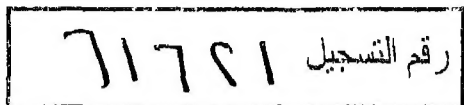
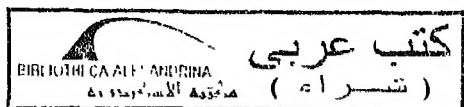


يوسف السباعي

نادية



الجزء الأول



يوسف النباي

ناروت

الشيخ العلامة

للمؤلف

(قصص قصيرة ١٩٤٧)	أطيانف
(رواية ١٩٤٧)	نائب عزرائيل
(قصص قصيرة ١٩٤٨)	اثنتا عشرة امرأة
(.....)	خبايا الصدور
(.....)	يا أمة ضحككت
(.....)	اثنا عشر رجلا
(رواية ١٩٤٩)	أرض النفاق
(قصص قصيرة ١٩٤٩)	في موكب الهوى
(.....)	من العالم المجهول
(.....)	هذه النفوس
(رواية ١٩٥٠)	إلى راحلة
(قصص قصيرة ١٩٥٠)	ميكي العشاق
(.....)	بين أبو الريش وجنيّة ناميش
(.....)	أغنيات
(مسرحية ١٩٥١)	أم رتيبة
(قصص قصيرة ١٩٥١)	هذا هو الحب
(.....)	صور طبق الأصل
(رواية ١٩٥٢)	بين الأطلال
(.....)	السقامات
(قصص قصيرة ١٩٥٢)	سمار الليالى
(.....)	الشيخ زعرب
(.....)	نفحة من الإيمان
(مسرحية ١٩٥٢)	وراء الستار
(قصص قصيرة ١٩٥٣)	ست نساء وستة رجال
(.....)	هذه الحياة

(رواية ١٩٥٣)	البحث عن جسد
(مسرحية ١٩٥٣)	جمعية قتل الزوجات
(رواية ١٩٥٣)	فديتك ياليلي
(قصص قصيرة ١٩٥٣)	ليلة خمر
(..... » ١٩٥٣)	همسة عابرة
(رواية في جزأين ١٩٥٤)	رد قلبي
(قصص قصيرة ١٩٥٥)	ليال وذموع
(رواية ١٩٥٦)	طريق العودة
(مقالات ١٩٥٧)	أيام تمر
(..... » ١٩٥٨)	من حياتي
(..... » ١٩٥٩)	لطمات ولثام
(رواية في جزأين ١٩٦٠)	نادية
(..... » ١٩٦١)	جفت الدموع
(مقالات ١٩٦١)	أيام مشرقة
(..... » ١٩٦١)	أيام وذكريات
(..... » ١٩٦٢)	أيام من عمري
(رواية في جزأين ١٩٦٤)	ليل له آخر
(مسرحية ١٩٦٦)	أقوى من الزمن
(رواية في جزأين ١٩٦٩)	نحن لا نزرع الشوك
(رواية ١٩٧٠)	لست وحدك
(مقالات ١٩٧٠)	من وراء الغيم
(..... » ١٩٧١)	أيام عبد الناصر
(رواية ١٩٧١)	ابتسامة على شفثيه
(رحلات ١٩٧١)	طائر بين المحيطين
(قصة ١٩٧٣)	العمر لحظة

إهداء

إلى « نادية » الملهمه ...
أهدى « نادية » القصة ...
مع كل ما أملك من مشاعر طيبة .

« يوسف السباعي »

مقدمة

مرة أخرى أشعر بمسئوليتي ككاتب يعيش في فترة مليئة بالأحداث التي تغير مجرى التاريخ في وطنه ..

ولست أظن الكاتب يمكنه أن يفصل نفسه عما يحيط به .. فإنتاج الفنان عملية استقبال وإرسال .. أو امتصاص وإفراز .. وهو يأخذ مما حوله ليؤثر فيمن حوله .

وعندما كتبت « أرض النفاق » و « وراء الستار » و « البحث عن جسد » و « يا أمة ضحككت » .. كنت أعكس بها ما استقبلت من انفعالات سببها إحساسنا بالفساد والفوضى التي كانت تدمغ حياتنا وترتكنا في حق وضيق ولهفة تملأ نفوسنا على شيء يخلصنا من حالة الضياع التي كنا نعيش فيها .

وعاصر جيلنا هذا الشيء الذي كنا نتلهف عليه .. وحدثت الثورة التي أعادت لنا إحساسنا بالكرامة .. ووضعتنا حيث كنا نتمنى دائماً أن نكون .

وأحسست بمسئوليتي ككاتب وضابط عاش في تلك الفترة التي انتهت بالثورة ، وعانى كل التجارب التي مرت بها وأحس بالانفعالات التي أحس بها أصحابها .. أحسست بمسئوليتي التي تدفعني إلى تسجيل كل هذه الحوادث والتجارب والانفعالات التي سبقت الثورة وأدت إليها .

وكتبت « رد قلبي » بقدر ما أملك من جهد وقدرة وأمانة ، وقد أكون متعجلاً في كتابتها .. وقد يكون البعد الزمني الذي يبرز لنا الحوادث بطريقة أوضح وشكل أعم .. لم يتوفر لي أثناء الكتابة .. ولكنني مع ذلك أقدمت على كتابتها .. يدفعني إلى ذلك إحساس بمسئولية الكاتب .. تاركاً لغيري ممن قد يتأثر بعدى ومن يتوفر له البعد الزمني الذي يمكنه من تسجيل صورة أدق ، ورسم شكل أشمل وأوضح . ولعلني أكون قد وفرت له ما يعينه على عمله .

ويبدو لى أن جيلنا من الكتاب قد منحه الله من الأحداث الضخام ما هياً له زاداً من مصادر الإلهام والانفعال .. فلم تكد تنتهى أحداث الثورة حتى بدأت أحداث التأميم والعدوان والانتصار فى بور سعيد .

ومرة أخرى أحسست بمسئوليتى إزاء الأحداث الكبار التى جعلتنا فى التاريخ شيئاً مذكوراً .. والتى جعلت من الأيام التى نعيش فيها أياماً لها على الزمن قيمة . وكتبت هذه القصة التى جرت حوادثها فى الفترة التى تلت الثورة ، والتى امتلأت بالحوادث الضخمة التى انتهت ببور سعيد .. مستعيناً على كتابتها بلهمة .. كان لها الفضل الأكبر فى كتابة هذه القصة .

تلك الملهمة هى « نادية » التى لقيتها فى قمم الألب العليا .. والتى لولاها ما عرفت الكثير من تلك المعالم الإنسانية والطبيعية التى سجلتها فى هذه القصة .. والتى كانت بالنسبة لى الدعائم الكبرى التى حملت هذه الأحداث التاريخية التى حاولت تسجيلها .

وبعد . أرجو أن أكون قد حققت بها بعض ما يعوّض على جهدى فى كتابتها ، وما يعوّض جهد القارئ فى قراءتها .. وما يعوّض الملهمة .. عن عرض بعض حياتها .
والسلام عليكم ورحمة الله .

« يوسف السباعى »

— ٩ —

(١)

توأمتان

دقت الساعة أربع دقائق .. وقفزت « منى » من فراشها في وثبة بهلوانية قاذفة
المجلة من يدها وهتفت بنادية :
— هيا بنا .

وتمطت « نادية » وتثاءبت وأراحت أطرافها في استرخاء وأجابت وعيناها
مسيبتان :

— دعيني أسترح .

— ألن تشاهدى المباراة ؟

— لا .

— ألن تذهبي إلى النادى ؟

— سأذهب بعد الإفطار مع ماما وبابا .

— غبية !! أتعبرين هذا ذهاباً إلى النادى .. تحشرين نفسك وسط

العجائز .. هيا .. قومى .

ومدت « منى » يدها تحاول أن تجذبها من الفراش فصاحت « نادية » :

— قلت لك إنى متعبة .

— أتظلين راقدة هكذا حتى المدفع ؟

— أجل .

— إنك تضيعين عمرك بهذا الصيام .. لماذا لا تفطرين ؟

— ولماذا أفطر ؟

— لأنك عاجزة عن الصيام .

— ١٠ —

- أنا لم أشك إليك .
- ولكنك تقضين نصف نهارك راقدة بلا حراك .
- كذابة .. هذا أول يوم منذ بدء رمضان .. أرقد فيه .. لأننا تعبنا في المدرسة طول اليوم .
- ولماذا لم أتعب أنا ؟
- لأنك مفطرة .
- ولماذا لا تفطرين مثلي ؟ أيرضيك أن تدخل الجنة وحدك ؟
- وضحكت « نادية » وأجابت :
- سأتوسط لك .. لكي تدخل معي .
- أتقبل وساطتك ؟
- ربما .
- إذاً لنأخذ معنا « عصام » .. إني لا أستطيع دخول الجنة بدونه .
- ومن أدراك أنه في حاجة إلى وساطة !
- لأنه لا يصوم أيضاً .
- ولماذا .. وهو كالعجل ؟
- لأنهم يدوخونه في الكلية الحربية .. هل رأيته بعد أن حلقوا له رأسه ؟
- حلقوا العصام .. لابد أن شكله قد أصبح مضحكا جداً .. لم يكن به شيء سوى شعره .. لست أدري ماذا دفع هذا الغبي إلى دخول الحربية بعد أن أخذ ليسانس الحقوق ؟
- أنا .
- أنت ! وله ؟
- لأنني أريد أن أراه بالبذلة الرسمية .. إني أحب الضباط جداً .
- لأنك هايفة .. وهو أهيف منك لأنه سمع كلامك .
- لماذا ؟ إنه سيصبح نائب أحكام .. على سن ورمح .. هل رأيته ببذلة

الكلية ، و « الكاب » ؟

— لم أراه .

— فانتك نصف عمرك .

— لمه ؟ .. من يكون ؟ .. جمال عبد الناصر .. أمال لو كان بشعره ؟

— كان فانتك عمرك كله .

وقذفت « منى » بينطلون البيجامة .. وتناولت البنطلون البلوجينز من الشماعة ، ووضعت ساقها فيه بوثة راقصة ، ثم حشرت ردفها فيه وضغطت على « الكبسولة » .. وجذبت « السوستة » ثم أردفت قائلة :

— على أية حال تستطيعين أن تريه اليوم .. إن لديه فسحة وسيحضر لمشاهدتي أثناء اللعب ، ثم تناول الشاي معاً .

ولم يلق قول « منى » ارتياحاً لدى « نادية » وردت محذرة :

— لا داعي لهذا الشاي .

والتفتت إليها « منى » متسائلة :

— ولمه ؟

وهزت « نادية » كتفها وأجابت :

— أولاً .. لأننا في رمضان .

وقاطعتها « منى » بسرعة :

— لا يهمنى رمضان .

واستمرت « نادية » تقول في لهجتها المحذرة :

— وثانياً .. لأن الناس ..

وعادت « منى » تقاطع في حدة :

— ولا يهمنى الناس ..

— إن تصرفاتك يجب ...

— إنى أنصرف بما يرضينى .. لا ما يرضى الناس .. إنى لا أستطيع أن أعذب

نفسى ، من أجل أن أنا فقهم وأريهم . إن تصرفاتى من شأنى وحدى . وأنا أستطيع أن أتحمل نتائجها .

— أنت كاذبة .

— كيف ؟

— لأنك لا تتحملين شيئاً ولأنك تعرفين من الذى يتحمل .

— ماذا تقصدين ؟

— أقصد أنك تعملين العملة ، وتلقين عبثها على غيرك .. إنك تسيئين التصرف .. و « ماما » المسكينة تتحمل النتائج .

— نعم ؟ .. من الذى طلب منها أن تتحمل النتائج .. أنا لست عاجزة عن مواجهة الناس .. إني أستطيع أن أتحمل لومهم .. وأتحداهم جميعاً .

— إن أحداً لن يلومك .

— لماذا ؟

— لأنك طفلة .. ولأنهم يرجعون كل عبثك الصبباني .. إلى سوء تربيتك .. ولأن أمك الفرنسية .. قد نضحت عليك . لقد سمعت عمتى تقول عنك فى النادى « اكف الجرة على فمها تطلع البت لأمها » .

— لو قالت أمامى هذا .. لشتمتها .. أنا لا يهمنى عمتى ولا أبوها ولا أمها .

— ولكن يهمنى أمنا .. لماذا تظلمينها بحماقتك ؟ لماذا تساعدنيهم على

التشجيع بها والحملة عليها .. أنت تعرفين .. كم هى طيبة .. وتعرفين أنها تصوم معنا رمضان ولماذا تتركينهم يأخذونها بطيشك ويلومونها من أجلك .

— وماذا يهمنى منهم .. لماذا لا نقاطعهم جميعاً ؟

— لأنها قد أصبحت جزءاً من أسرهم .. وهى لا تستطيع أن تفصل أبى عن

أخواته وأمه وأبيه ..

— إذن لتتحمل شرورهم .

— ولماذا لا تتعقلين أنت . وتترنين فى تصرفاتك وتقطعين عليهم سبل اللوم ؟

— ١٣ —

- وماذا فعلت حتى أستحق لومهم ؟
 — ألا تعرفين ماذا فعلت ؟
 — لا .
 — مثلاً .. مصاحبتك الدائمة لعصام .
 — إنه my boy friend .
 — ليس في تقاليدنا شيء اسمه boy friend هذه صفة لم نعترف بها بعد في أسرتنا .
 — في الدول المتعدنية يعترفون بها .
 — وعندنا نعتبرها انحلالاً .. ليس للفتاة الحق في أن تصاحب مخلوقاً .. يقل عن درجة خطيب .
 — وعصام سيخطبني .
 — عندما يخطبك تستطيعين أن تصاحبيه إلى السينما .. وتشرى معه الشاي .
 — سأجعله اليوم يخطبني .. ماذا عندك غير هذا من أدلة طيشي ؟
 — وقذفت « منى » بجاكيت البيجامة ووضعت ذراعها في قميص حريرى خفيف ، وأخذت تشد أزراره على كرقى صدرها الممتلئين .
 — وأجابت « نادية » وهى تنظر إلى حلمتيها البارزتين من وراء القميص الخفيف :
 — هذا اللبس الذى ترتدينه !
 — ما به ؟
 — ألا تعرفين ما به !! ألا ترين آثاره في أعين الناس التى تريد أن تلتهمك وأنت سائرة في الطريق !! ألا ترين انعكاسه في وجوه الشبان المحيطين بك في النادى !
 — وهزت « منى » كتفيها في استخفاف .. محاولة أن تخفى ابتسامة رضاء شاعت في وجهها .. وقالت محتجة :
 — وماذا أفعل . إذا كان جسدى هكذا .. وكانت عيون الناس فارغة .
 — وأجابت نادية :

— ١٤ —

- لمى جسدك .. وهم يغمضون عيونهم .
— ألمه أكثر من هذا ؟
ووضعت منى كفيها على ردفها اللتين شدهما البنطلون الضيق ثم سارت تهز وسطها في حركة راقصة وقالت وهي تضحك :
— آمال لو مشيت كده .. يقولوا إيه ؟
— إنت بنت مايعه .
وانحنى « منى » تفتح أحد أدراج « الشيفونيره » وتساءلت وهي تقلب الثياب التى بها :
— أين الشورت ؟
— ألا يوجد عندك ؟
— لا أثر له .
— لا بد أنه لم يأت من عند « المكوجى » .
— الله يخرب بيته .. دائماً يؤخر « المكوة » .. كيف أستطيع اللعب ؟
— يوجد فى درجى « شورت » .. خذيه .
وفتحت « منى » درجاً آخر وأخذت تبحث فى محتوياته حتى أخرجت الشورت ثم نشرته بين يديها وقالت وهي تزوى ما بين عينيها :
— هذا ليس « شورت » .
— ماذا يكون إذن ؟
— إنه « لونج » .. إنه طويل جداً .. يكاد يغطى الركبتين .
— أحسن .
— أحسن إذا ارتدته ماما .
— ولكنى أرتديه فى ألعاب المدرسة .
— ومن قال إنك لست خيراً من ماما !
— ألا بد أن يكشف عن فخذيك حتى يصلح للارتداء ؟
— طبعاً .

— ١٥ —

— أنتوين اللعب أم الاستعراض ؟

— كليهما .

— يا منى اعقلى . هل تعلمين أن « الشورت » الذى ترتدينه محل تعليق النادى

كله .

وضحكت منى قائلة : ولهذا أرنديه .

وعادت تقلب « الشورت » بين يديها ثم قالت :

— على أية حال .. لابد من ارتدائه .. وأعتقد أنى لو ثبت ساقيه فسيصبح

معقولا .

ثم صاحبت منادية بصوت مرتفع : ماما .

وأجابتها أمها من الحجرة المجاورة :

— نعم يا منى .

— أريد إبرة وفتلة .

— له ؟

— لكى أنثنى رجلى الشورت .

— الإبرة والفتلة فى درج « ماكينة » الخياطة .

وكانت إجابة الأم خليطاً من الفرنسية والعربية المكسرة . وبعد لحظة كانت

« منى » قد أتمت تقصير « الشورت » ووقفت تستعرضه أمام المرأة .

وأدارت ظهرها للمرأة وعلبت شفتها السفلى قائلة :

— مش بطل .. ما رأيك يا نادية ؟

— فضيحة .

وأجابت منى متخائبة :

— معك حق .. إنه يحتاج لثنية أخرى .

— ولماذا لا تخلعيه .. وتلعبين عارية ؟!

— ياريت .. إن سكرتير النادى يطردنى .

- أنتخشين فقط سكرتير النادى ؟
 وواجهت « منى » المرأة وشبت على أطراف أصابعها .. ووضعت ذراعيها
 فى وسطها ، وأخذت تستعرض جسدها فى إعجاب أمام المرأة قائلة :
 — أرايت أجمل من هذا جسداً !! أليس حراماً أن يخفى الإنسان مواهبه ؟
 — مغرورة وعبيطة .
 وأخذت « منى » تتمشى أمام المرأة .. ثم قفزت إلى الفراش بجوار « نادية »
 واحتضنتها وقبلتها وهى تقول ضاحكة :
 — يا ستى العجوز .. أنا لست مغرورة .. إنما أحب أن أغيطك .. لأنى ..
 وقطع حديثها .. كحة خفيفة متقطعة .. وبدا القلق على وجه « نادية »
 وقالت ناهرة :
 — منى .. البسى فانلة .
 — الدنيا حر .
 — البسى الفانلة بالتى هى أحسن .. لأن ماما لن تتركك تخرجين هكذا .
 — اسكتى أنت .. إنها لن ترائى وأنا خارجة .
 — ولماذا لا تلبسين الفانلة ؟ إنك تعرقين بسهولة .. وإذا هبت عليك أية
 نسمة .. سيصيبك البرد .. وأنت تعرفين أن صدرك لا يحتمل .
 — لقد شفيت تماماً .
 — لا تكونى عنيدة يامنى .
 — إنى أكره الفانلة .
 — لماذا ؟
 — لأنها تضغط صدرى .. وتبططه » .
 — أفى سبيل العياقة .. تعرّضين نفسك للبرد ؟
 — أولا .. ليس هناك برد .. وثانياً لا أستطيع أن أبدو أمام الناس وكأنى
 طفلة بلا صدر .

— ١٧ —

- البسى تحتها « السوتيان » .
 — لن ألبس شيئاً . اسكتى أنت ولا تتدخل فى فيما لا يعنك .
 — إذا لم تلبسى الفانلة .. سأخبر ماما .
 ونهضت « نادية » من الفراش وفتحت درج « منى » .. وأخرجت
 الفانلة .. وقذفت بها إليها .. قائلة : — ألبسى .
 وأمسكت « منى » بالفانلة فى ضيق وقالت :
 — أتظنين نفسك وصية على .. أنت لست أكبر منى .
 وضحككت « نادية » قائلة : — بل أكبر منك .
 — لقد نزلنا سوياً .
 — بل نزلت قبلك .
 — ببضع ثوان .
 — بضع ثوان .. أو بضع سنين .. مادمت قد نزلت قبلك .. فأكون أكبر منك .
 — ومن أدراك أنك نزلت قبلى ؟
 — اسألى ماما .
 — ومن أدرى ماما .. لأنها قطعاً كانت فى غير وعيها .
 — لا بد أنهم قالوا لها .
 وكيف استطاعوا أن يميزوا بيننا .. إنهم حتى الآن يخطئون فينا .. لقد
 شكرتني مدرّسة الفرنساوى بالأمس على ما فعلته أنت .
 — على العموم . أنا أكبر .. أو أنت أكبر . المهم أن تلبسى الفانلة .
 — سألبسها بشرط .
 — ما هو ؟
 — أن تذهبنى معى إلى النادى .
 — أنا متعبة يا « منى » وصائمة .
 — سلى صيامك .

(نادية — ج ١)

— ١٨ —

- ليس هناك ما يسلى .
- حتى مشاهدة الكروكيه ؟
- وبدا الاضطراب على « نادية » وأجابت :
- ماذا تعنين ؟
- أبدأ .. فقط خيّل إلى أنك بدأت تهوين مشاهدة الكروكيه .
- وماذا فى ذلك ؟ إنها لعبة مسلية .
- مفهوم .. مفهوم .. ولا سيما إذا لعبها بعضهم .
- لا تدعى النباهة .
- ولا تدعى أنت العبط .. هيا بنا .
- وشردت « نادية » برهة .. وما لبثت حتى تناولت « البلوزة »
- و « الجيب » .. وبعد لحظات كانت التوءمتان تغادران دارهما فى « منشية
- البكرى » إلى نادى « مصر الجديدة » .

— ١٧ —

- البسى تحتها « السوتيان » .
 — لن ألبس شيئاً . اسكتى أنت ولا تتدخل فيما لا يعينك .
 — إذا لم تلبسى الفانلة .. سأخبر ماما .
 ونهضت « نادية » من الفراش وفتحت درج « منى » .. وأخرجت
 الفانلة .. وقذفت بها إليها .. قائلة : — ألبسى .
 وأمسكت « منى » بالفانلة في ضيق وقالت :
 — أتظنين نفسك وصية على .. أنت لست أكبر منى .
 وضحكت « نادية » قائلة : — بل أكبر منك .
 — لقد نزلنا سوياً .
 — بل نزلت قبلك .
 — بوضع ثوان .
 — بوضع ثوان .. أو بوضع سنين .. مادمت قد نزلت قبلك .. فأكون أكبر منك .
 — ومن أدراك أنك نزلت قبلى ؟
 — اسألى ماما .
 — ومن أدرى ماما .. إنها قطعاً كانت فى غير وعيها .
 — لا بد أنهم قالوا لها .
 وكيف استطاعوا أن يميزوا بيننا .. إنهم حتى الآن يخطئون فينا .. لقد
 شكرتني مدرسة الفرنساوى بالأمس على ما فعلته أنت .
 — على العموم . أنا أكبر .. أو أنت أكبر . المهم أن تلبسى الفانلة .
 — سألبسها بشرط .
 — ما هو ؟
 — أن تذهبنى معى إلى النادى .
 — أنا متعبة يا « منى » وصائمة .
 — سلى صيامك .

(نادية — ج ١)

يَتَرَبَّونَ الشَّيْ أَوْ يَرْقُبُونَ الْأَجْسَادَ الْعَائِمَةَ أَوْ الْمُسْتَلْقِيَةَ .

لم يكن هناك ما يوحي « بشهر رمضان » سوى بضعة الضباط والموظفين الذين التفوا حول مائدة في مدخل الحمام وقد ارتدوا القمصان « والبطلونات » .. وبدأت عليهم مظاهر الاسترخاء والملل ، وأخذوا يتبادلون حديث السياسة وآخر النكت .. وقد مدوا سيقانهم وأرخوا أجسادهم في مقاعد القماش .

وفي الحديقة الخلفية المتسعة بدت ملاعب « الكروكيه » خضراً مستوية ناعمة كاللبساط ، وقد أخذ اللاعبون يتحركون فيها الهوينى وينحنون على الكرات الكبيرة الملوّنة ليضربوها بتؤدة واتزان .
وفي آخر الحديقة بدا ملعب الفولى .. وقد أخذت الفتيات يتواثبن فيه ويتقاذفن الكرة قبل بدء المباراة .

ولم تكد إحداهن تبصر « منى » تعبر الباب حتى صاحت بها :
— منى .. ألم تلبسى بعد ؟

وأجابتها « منى » وهى تعدو منطلقة إلى قاعة الحمام :
— حالا .. ثانية واحدة .

واقتربت «نادية» وحدها من الملعب .. وأقبلت الفتيات عليها يحينها في مرح وخفة .. واتخذت «نادية» مجلسها على أحد المقاعد المرسومة خارج الملعب وقد أمسكت بيدها كتاب «الأيام لطة حسين» وقد ثنت حرف آخر ورقة وصلت إليها .
واكتمل عدد الفريقين المتباريين .. فريق النادى .. وفريق المدرسة الإنجليزية . ونجحت « الشورتات » والسيقان العازية في جذب أنظار أكبر عدد من رواد النادى ، فالتفوا حول الملعب لمشاهدة المباراة .

وأقبلت حكم المباراة .. ومدربة النادى .. « مدموازيل حكيم » إحدى عوانس النادى .. وشخصياته المحببة .. وقد ارتدت نظارتها وعقست شعرها وحشرت نصفها السفلى في شورت كحلى وصل إلى ركبتها .. وحشرت

نصفها العلوى فى « سوتيان » كاد يقسم شحم ظهرها سنامين .
وقبل أن تنفخ الحكم فى صفارتها .. وقع بصرها على « نادية » .. فهتفت بها
فى دهشة :

— منى !! لماذا لم تغيرى ملابسك ؟
وضحكت الفتيات .. وصاحت إحداهن متخابثة وهى تجذب « نادية » من
ذراعها :

— قومى « يامنى » البسى .
— وابتسمت « نادية » وأجابت فى رقة :
— لقد ذهبت « منى » لتبدل ملابسها .. أنا نادية يامدموازيل حكيم .
وقالت الحكم وهى تهز رأسها فى يأس :
— عبثاً أحاول التمييز بينكما .
وجذبت « نادية » ضفيريها المدلاة على ظهرها ولوّحت بها وهى تقول ضاحكة:
— أنا بضمفيرة يا مدموازيل حكيم .
وكانت « منى » قد أقبلت تعدو فى خفة بالشورت المشئى والقميص الخفيف .
ولم تكدرها « مدموازيل حكيم » حتى هزت رأسها هزة المعرفة وقالت :
— ومنى .. بلا ضفيرة .. وبلا ثياب !!
وقبل أن تدخل « منى » الملعب .. رفعت ذراعها ملوحة لثلاثة أرباع الفتيان
الذين اصطفوا لمشاهدة المباراة .. قائلة فى دلال : — هاللو .

ورفع الفتية أيديهم وهتفوا لها :
— « ول » منى .. « ول » منى .
وانحنى « منى » فى تهريج كما تفعل الممثلات على خشبة المسرح .. وقالت
الحكم وهى تنفخ فى صفارتها ناهرة « منى » :
— أسرعى يامنى . كفى عبثاً .

وبدأت المباراة .. وجلست « نادية » ترقبها وقد وضعت الكتاب

في حجرها .

لم يكن خطأ الحكم في تمييز « نادية » من « منى » بالشيء المستغرب .. فقد كان بينهما من الشبه الظاهري في القسمات ما يجعل تمييز كل منهما عسيراً إلا على من يعرفهما معرفة وثيقة ويعرف الفوارق الدقيقة التي تميز كلا منهما عن الأخرى .

كانت الملامح الجامعة في كل منهما .. شقرة في الشعر .. واتساع وخضرة في العينين .. وامتلاء في الشفة السفلى .. وغمازتان في جانبي الفم تظهران واضحتين مع كل بسملة .

وكانت ملامح الجسد تكاد تتطابق .. إلا في وحة في إحدى أصابع قدم « منى » اليسرى .

وكانت أوجه الخلاف بين التوءمتين — غير وحة القدم — تكاد تكون كلها مصنوعة من اختلاف الطباع .. عدا سنة في فم « نادية » ضغط عليها الباب عند النمو فبرزت بروزاً خفيفاً ، جعل طبيب الأسنان يحشر في فمها سلكاً حتى يعيد السنة إلى موضعها .

وفيما عدا ذلك .. كان التمييز بين التوءمتين يقوم على فوارق الخلق .. أو انعكاسه على التصرف والمظهر

كانت « منى » خفيفة مرحة ، وكانت « نادية » رزينة متقدة وقد يكون هذا ناتجاً عن طبيعة التكوين ، وقد يكون أكثر من ذلك .. ناتجاً عن إصابة « منى » .. تلك الإصابة التي جعلتها بين ذويها كالهشيم ، يخشى عليه من التفتت .

لقد بدت الأعراض عليها .. قبيل العاشرة .. كانت تعدو في المدرسة ، وعندما عادت إلى البيت سعلت وبصقت دماً !

وكانت صدمة مروعة لأبيها وأمها . ولم تفهمها « نادية » في أول الأمر ، ظنت أن المسألة لا تعدو أن تكون فصداً أو جرحاً .

ولكن مظاهر الارتياح حولها ، وفرط الجزع والاهتمام والوحشة التي خيمت على البيت ، جعلتها تدرك أن هناك خطراً حاقاً بأختها .

ولكن الخطر لم يطل .. فقد كانت سرعة إدراكه وفرط العناية المبذولة في دفعه ، كفيلاً بجثثاته .

وزال الخطر عن الصبية الشقراء ، الحلوة المرحه ، ولكنه خلف وراءه إحساساً دائماً بوجوده .. وخوفاً مستمراً من رجعه .

وكانت النتيجة الطبيعية لهذا الإحساس ، هو إفراط في العناية بـ « منى » والخشية عليها ، والتدليل لها .

ولم تكن توءمتها « نادية » أقل من أبويها إحساساً بهذا . كانت بطبيعة خلقها .. أميل إلى الهدوء والرزانة .. أكثر إحساساً بشعور الأمومة واحتمالاً للمسئولية .

وزادها الخطر الجديد الذي حاق بأختها .. إحساساً بالحب لها والخوف عليها ، وتملكها نحوها شعور أشبه بشعور الأم ، منه بشعور النداء أو التوأم .

ويبدو أن فرط العناية ، والخوف والتدليل ، قد دفع في نفس « منى » إحساساً بأن خطراً خفياً يترصد لها .. وشكاً في أن ذلك الذي أصابها ، وروع ذويها ، لم ينجل تماماً ، بل هو جاثم فوقها ليطبق عليها بين آونة وأخرى .

وقاومت « منى » إحساسها بمزيد من المرح ، ومزيد من الضحك .. وبدأت — عن غير قصد منها — متشبثة بالحياة . مستغلة لساعاتها .. مقتنصة لمتعتها .. وكأنها تنشد ، بلا وعى ، مع الخيام : « ويلتا إن ضاع يومى من يدى » .

كانت « منى » إذن — بحكم خلقها الطبيعي المرح ، وبحكم إحساسها بالخطر الجاثم — منافعة ، نزقة ، طائشة ، مستخفة .

ولم يحاول أحد ، أن يوقفها ، إلا بما يمنع تعرضها للخطر أو الانزلاق . ولم تكن هى بطبيعة إدراكها للخطر .. تندفع إلى الحد الذي يعرضها له ..

ولم تكن كذلك — بطبيعة خلقها القويم المستقر في باطنها — لتندفع إلى حد الانزلاق فيما يمكن أن يشينها .

وانهمكت « منى » في المباراة ، حتى حانت فترة الراحة الأولى .. ونادتها نادبة آمرة : — منى .

ونظرت إليها « منى » وهى تهز رأسها مستفسرة . وقالت « نادبة » فى لهجة حاسمة : — كفى يا منى .

واستعدت صديقتها « كاميليا » للدخول بدلا وقالت :
— سألعب بذلك يا منى .. لقد تعبت .

ونظرت « منى » إلى المتفرجين .. فلمحت « عصام » وقد أقبل مع صديقه « صبرى » الطالب بالطب ، فرفعت له يدها بحية ، قائلة بلهجتها المرحية : — هالو .

وأشار لها « عصام » ثم اتخذ وصاحبه مقعدين مجاورين لنادبة ، وحيياها بإشارة من رأسيهما .

وأجابت « منى » على « كاميليا » فى إصرار :

— انتظرى . سألعب فترة أخرى . إلى لم أتعب بعد .

ولم تحاول « نادبة » أن تعيد طلبها ، فقد أدركت أن « منى » لا بد أن تلعب للاستعراض أمام « عصام » .

واستمرت المباراة . وقد بدا القلق على « نادبة » وأخذت ترقب « منى » فى قذفها للكرة .. وغدوها وراءها .

وحانت منها التفاتة إلى ملعب « الكروكيه » المجاور .. وقد تغير جميع اللاعبين به .. وأقبل عليه أربعة لاعبين جدد .. ثلاثة رجال وسيدة .

ولحت أحد الرجال ، فدق قلبها بعنف .. وأعادت بصرها سريعا إلى ملعب « الفولى » .. ثم أخذت تعبت فى كتاب « الأيام » بأصبعها فى حركة عصبية مضطربة ومرّت برهة ، قبل أن تتمالك نفسها ، وتستعيد جأشها .. وتلفتت خلسة إلى

من حولها لتؤكد أن أحداً لا يعنيه أمرها وأن المتفرجين .. قد ركزوا كل اهتمامهم لمباراة « الفولى » وليس لمراقبتها .

ومرة أخرى أدارت رأسها ببطء نحو ملعب « الكروكيه » وبدأت تفحص اللاعبين .. واستقر بصرها هذه المرة على السيدة التى صحبت الرجال الثلاثة . وعرفت فيها إحدى زبائن ملاعب « الكروكيه » الدائمين أو أحد عناصر الجاذبية فيه .

كانت « جاذبية عبد الحميد » إحدى الأرستقراطيات المطلقات وكانت رشيقة فى حركاتها ، جذابة فى إيماءاتها ولفتاتها .

وكانت جاذبيتها العامة أغلب على جمالها التفصيلى . وكانت دائماً تذكر « ناديه » بالمعيز .. لا تدرى له .. قد يكون لبوزها الممدود .. أو لأذنيها « المطرقتين » .. أو لجسدها الرفيع .. وحركتها الرشيقة ، وتواتبها فى الملعب بين آونة وأخرى .

ومع ذلك .. ورغم اقترانها دائماً فى ذهن « ناديه » بالمعيز كانت أنيقة جذابة ، من النوع الذى « يعف » عليه الرجال .

ولم تحس « ناديه » أبداً بضيق منها ، بل كانت أميل إلى استلطافها .. حتى أبصرتها الآن فى الملعب وأبصرت الرجال الثلاثة الذين يلعبون معها .. أو على وجه أدق .. أبصرت زميلها فى اللعب .

وأعادت « ناديه » بصرها هنيهة إلى ملعب الفولى حتى لا يحس أحد بتحولها التام من مراقبة الفولى إلى مراقبة الكروكيه .

وقبل أن تعيد بصرها إلى ملعب الكروكيه لترقب اللاعب الذى سبب لها كل هذا الاضطراب ، والذى سبب لها السخط على معزة الكروكيه ، الجميلة الجذابة . التى يعف عليها الرجال . أحست بصيرى زميل « عصام » يلتفت إلى الملعب ثم يدفع عصام بمرقفه قائلاً : — الله !! الدكتور مدحت .

والتفت عصام إلى الملعب ، ثم هز رأسه دون اهتمام قائلاً :

— آه .

وعاد « صبرى » يزغد « عصام » قائلاً :

— إنه يلعب مع جاذبية .

ولم يبد « عصام » كثير دهشة ، وهز رأسه وهو يرقب ملعب القولى ويتتسم

لـ « منى » قائلاً : — طيب .

واستمر صبرى فى تعليقه المنفرد : — إنها تشتغل عليه .

وأجاب عصام بطريقته غير المكترثة وهو منهمك فى مراقبة منى : — دعها

تشتغل .

— مغفلة . « جه نقبها على شونة » .

ولم يرد « عصام » .. لم يكن مهتماً ألبتة بحديث صبرى . ولا كان يهيمه أبداً

نقب « جاذبية » الذى ، أتى على شونة الدكتور مدحت .. ولكن شخصاً آخر

كان شديد الاهتمام بالحديث .. كانت « نادية » تتمنى لو استطاعت أن تجيب

على صبرى لتحصل على المزيد من تعليقاته .

ويبدو أن صبرى كان مصرّاً على أن يقول كل ما بنفسه رغم عدم اهتمام عصام

به .

تساءل صبرى وهو يرقب « جاذبية » تنحنى بجذعها ثم ترفع المضرب الشبيه

بالدقماق لتطرق به الكرة البيضاء :

— أتدرى لماذا ؟

ودون أن يعرف عصام ما هو هذا الذى يريده أن يدريه لماذا . قال ببساطة

وهو يصفق لمنى :

— لماذا ؟

لأنه يكره النساء .

وأجاب عصام بلا وعى ، دون أن يعرف من هو هذا الذى يكره النساء : —

مغفل .

— إنه عبقرى .. هل تصدق أنه أجرى بالأمس أماننا عملية لمدة ثلاث ساعات أزال بها المثانة لأحد المرضى . وأول أمس رأيته بعيني يزيل معدة مريض آخر .. وفي الأسبوع الماضى قطع أربعة أزوار .

وهنا التفت عصام فى دهشة إلى صاحبه .. وتساءل قائلاً : أيشغل جزّاراً ؟ !
ولم تتمالك « نادية » نفسها من الضحك ..
وأجاب صبرى فى غيظ :
— جزّار يا غبى !. إنه جراح .. أكبر جراح عندنا فى السرطان ..
— اللهم احفظنا .
— إنه يندو عنيفاً .. ولا يجيد المجاملة .. ولذلك يكرهه معظم الأطباء عندنا .. ويسمونونه الجزّار .
— معهم حق !
— ماذا أفهمك أنت بالجراحة ؟
— مادام قد قطع فى الأسبوع الماضى أربعة أزوار .. ومعدة .. وطحالا .. لماذا لا يسمونه جزّاراً ؟
— إنه أحياناً يقطع أكثر من هذا .. إن آخر ما قيل فيه .. هو أنه بعد انتهائه من العملية قال للممرض : « شيل المريض » .. ونظر الممرض إلى ما أزيل من المريض وما تبقى منه وسأله حائراً : « أشيل مين فيهم ؟ » !
— وبعد هذا الا يسمى جزّاراً ؟ !
— بل يسمى عبقرياً .. لقد أنقذ ما يقرب مائة حالة مستعصية .. كان مصيرها إلى الموت .
وملاً « نادية » إحساس بالتفاخر والغبطة ، كأنها هى التى أنقذت مائة روح . وعادت تنظر إلى ملعب الكروكيه ، لترقب العبقرى الجزّار ، بجسده الطويل ، وكتفيه العريضتين . ووجهه الأسمر وعينييه الخضراوين .. وأنفه الأميل إلى الضخامة .. وفكه العريض .. وشعره الذى دبت فيه مبادئ صلع ..

— ٢٨ —

ورأت المعزة الجذابة تقفز حوله ضاحكة .
وأبصرته يضرب الكرة .. ولا يضحك ..
وسمعت صبرى يردد مرة أخرى فى سخرية :
— « جه نقيبها على شونة » ..
وأحست « نادية » بشئ من الطمأنينة ..

— ٢٩ —

(٣)

من بعيد

انتهت مباراة الفولى .. وأقبلت « منى » تحيى عصام ، وقاطعتها « نادىة »
محدرة :

— أنت عرقانة .. أسبرى لإبدال ملابسك قبل أن يلفحك الهواء .
وشدت « منى » على يد عصام ثم انطلقت تعدو تجاه قاعة الملابس وهى
تهتف :

— خمس دقائق .

وأجاب عصام :

— سأنتظرك عند حوض السباحة .

والتفت إلى نادىة متسائلا :

— أتشرين معنا الشاى ؟!

وأجابت نادىة :

— إلى صائمة .

— أنا متأسف .. لقد نسيت أننا فى رمضان .. أقصد أنى

وقاطعتها نادىة ضاحكة :

— لا بأس .. سأشاهد « الكروكيه » .. وألحق بكما عند الحمام .

والتفت لعصام إلى صاحبه قائلا :

— هيا بنا .

وأجاب صبرى وهو يرقب نادىة :

— سأبقى أنا أيضاً لمشاهدة الكروكيه .

والتفت عصام إلى الدكتور مدحت وقد انحنى يضرب الكرة فى الملعب وقال

لصبرى ضاحكا :

— خذ باللك من صاحبك .. وإلا قطع زور واحد أو نزع معدة آخر .
واتجه عصام إلى الحمام وجلست نادية أمام إحدى المناضد المحيطة بملعب
الكروكيه واتخذ صبرى مقعده على المقعد المقابل .
وبدا صبرى بالقميص الأبيض المشمر الأكمام والبنطلون الفانلة ، نحيلاً طويلاً
كالعصا السمرء .. بارز عظام الوجنتين صغير الذقن يغطى عينيه السوداوين
الضيقتين منظار أسود للشمس والنظر .
وسادت فترة صمت كانت « نادية » تشاغل خلالها بمراقبة اللعب ، وكان
صبرى ينقل بصره بين اللعب وبين جانب وجهها ..
وبدا على صبرى أنه يحس بنادية أكثر مما يحس باللعب وأنه يبحث في ذهنه عن
نقطة ملائمة يبدأ بها الحديث .

لم تكن المرة الأولى التى جلس فيها إلى « نادية » .. فقد سبق أن ضمتها بعض
جلسات النادى حول الحمام ، أو فى « التراس » المستدير المطل على الحديقة
والملاعب ، أو داخل البهو فى أمسيات الشتاء .. ولكن الجلسات كانت تضم
خليطاً من فتيات النادى وإخوتهن أو أقاربهن أو أصدقائهن ، وكان الحديث عن
الرياضة أو السياسة وتبادل النكتة والمزاح هو كل ما يشغل الجلسات الصبانية
المرحة .

ولكن صبرى كان ينظر إلى « نادية » .. بشىء لا يلائم كثيراً هذه الجلسات
الصبانية المرحية . كان لها فى قرارة نفسه بوضع أكثر جدية من غيرها من
الفتيات .. كان يملأ نفسه شعور بالتقدير وإحساس بالرغبة فى أن يكون بينهما
أكثر مما بين « الشلة » من صلات .. وعندما كان يرسم خطوط مستقبله
العريضة .. ويؤثث بيته وينظم عيادته .. كان يضعها .. أو يضع شيئاً شبيهاً بها فى
صدر حياته وعلى قمة أمانيه .

ذلك كان وضع نادية .. فى نفس الفتى النحيل الطويل .. الجالس يسترق إليها

البصر في قلق .. مجهداً نفسه في التقاط طرف حديث يثير به اهتمامها .
وكانت « نادية » تعرفه كمخلوق مميز .. عن بقية فتيان « الشلة » مميز بأدبه
وذوقه وخلقه وبعده عن الصبيانية والتهرج .
ولكن تمييزه لم يصل إلى حد اعتباره مطمئناً لآمالها .. أو موضوعاً
لتفكيرها .

كانت تستريح إليه .. ولا شيء أكثر من ذلك .
مخلوق آخر .. هو الذى وضعت في الموضع الذى وضعها هو فيه .. موضع
الصدارة من الأمانى والأحلام والمستقبل الوردى المزدهر .. موضع المحتل لقلب
خال ، الداعي لذهن متلهف ، الساقى لنفس عطشى ، المؤنس لروح موحشة .
هذا المخلوق .. هو الذى جلست ترقبه في صمت دون أن يحس بها .. وهو
ينتقل وراء الكرة . و « جاذبية » — أو معزة « الكروكيه » تقفز حوله ضاحكة
متشينة .

كان الدكتور مدحت .. أو « العبرى الجزار » هو أمنيته السرايية
البعيدة .. بعد الشمس في الأفق .

كانت ترقبه من بعيد .. دون أن يعرفها أو يحس بها ودون أن يعرف مخلوق
سوى أختها « منى » التى استطاعت التخمين — أنه لديها شيئاً .. وأنه ملء
أوهامها وأحلامها .. الملتصق بكل آمانيتها .

كانت تتبعه بعينها خفية .. وترقبه في استراق وصمت .. واستطاعت خلال
عام أن تعرف كل حركاته وسكناته في النادى ماذا يلعب ، وأين يجلس .. ومن
يصاحب .. ومتى يأتى .

بدأت معرفتها له .. بنوع من النفور والكراهية .. سببه إحساسها بأنه مخلوق
أنانى قاس .. عند ما أبصرته — وقد أغمى على « هدى » إحدى فتيات
النادى — ينتقل إليها في تراخ وبطء ويلقى عليها نظرة خاطفة ثم يقول في

استخفاف :

— اتركوها .. ستفيق وحدها .

وعندما قالت له إحدى الفتيات :

— إنها مغمى عليها .

— وماذا أفعل لها !! شموها نشادر .. طسوها يجفنة ماء .

وانفلت عائداً إلى مكانه في هدوء وهو يتمتم :

— مياعة بنات .

وأدهشها استخفافه وبروده وعجرفته وسألت عنه من حولها فأجابها

« عبدالله » مدرّب التنس :

— الدكتور مدحت .

ولم تستطع أن تمنع تأففها منه وسخطها عليه :

— ولماذا كل هذه الكبرياء والعجرفة !

وأجابها المدرّب مؤمناً على قولها وهو يهمن .

— راجل أليط .. ليس عنده مروءة .. هل تصدقين بعد كل هذا التمرين له ..

ذهبت إليه ذات مرة في العيادة لآخذ شهادة بأى مريض .. حتى أستطيع السفر

إلى بلدنا .. فرفض إعطاؤها لي .. قائلاً إني « زى البمب » وأنه لا يستطيع أن

يعطى شهادات مزورة .. فذهبت إلى الدكتور جادالله .. فأعطاها لي وأنا

واقف .

— الدكتور جادالله !!!

— أجل .. زميله الذى يجلس معه دائماً .. رجل أمير . لا يرد لأحد طلباً .

وأمن على قوله إبراهيم مراقب الحمام وهو يهز رأسه :

— الله يعمر بيته .. لقد أخذت له زوجتى بالأمس فأعطاها مزيجاً نفعا

جداً .

وأجابته :

— لو أخذتها إلى الدكتور مدحت .. لطردها ؟
— طبعاً .. لقد رفض أن يتولى معالجة عمال النادي .. في الوقت الذي قبل
الدكتور جادالله أن يعالجههم مجاناً .

و لم يكذب إبراهيم ينتهى من كلامه حتى أبصرت « نادية » رجلاً أنيقاً وسيماً
يندفع بين الفتيات إلى حيث رقدت « هدى » ثم ينحنى عليها فاحصاً ويحملها بين
يديه .. ثم يسير بها متجهاً إلى « الجراج » ليضعها في عربته ويحملها إلى عيادته .
وهز إبراهيم رأسه معجباً وقال :

— هذه هي الشهامة .. أرايت يا ست نادية !!

وهزت « نادية » رأسها متسائلة :

— من يكون !!؟

— الدكتور جادالله .. رجل شهم .

وانقض الحشد .. والدكتور مدحت باق في مقعده لا يعبأ بمن حوله .

وتعجبت « نادية » من تصرفه العجيب .

تراخيه .. واستخفافه .. وكبرياؤه .. ثم .. الاكتفاء بأن يصف لإغماء الفتاة ..
نشادر .. أو .. طسة ماء في وجهها .. ثم يصف لإغماءها « مياعة بنات » .
لا يمكن أن يكون هذا طبيباً فأى إنسان يمكن أن يعالج الإغماء بالنشادر ..
وطسة الماء .. وأن يصفه بالمياعة .. إنه حيوان .. فقط .. غليظ القلب ..
متعجرف .

وهو رجل بلا مروءة .. لأنه رفض أن يعطى الشهادة لإبراهيم المدرب ،
ولأنه رفض أيضاً .. أن يعالج العمال .

ودب في أعماقها إحساس بالنفور والبغضاء .. من الطبيب القاسى
المتعجرف ، العريض المنكبين ، الطويل القامة ، الذى يغلب تجمعه ابتسامه .

وفى ذات يوم اختفى إبراهيم مدرب التنس ، وعندما سألت عليه بعد أن
افتقدته بضع مرات خلال لعبها للتنس أو مشاهدتها له .. أنبأها أحد زملائه وهو

(نادية — جا)

— ٣٤ —

يهز رأسه ويمصمص بشفتيه .. بأنه :

— مسكين .. لا أمل فيه .

— كيف ؟

— لقد أصابه — أبعد الله عنا الشر جميعا — المرض الخبيث الذى يسمونه

السرطان .

وأحست « نادية » برجفة وهى تسمع قول الرجل وتساءلت قائلة :

— وبعدين ؟

— ولا قبلين .. لا فائدة منه .

— مسكين !!

— المسكينة امرأته .. وأولاده .. لديه من الأولاد أربعة .. غير الذى فى بطن

أمه .

ومضت بضعة أسابيع .. و « نادية » لا تكاد تقرب ملعب التنس حتى يصيبها ما يشبه الغثيان عندما تتذكر المدرب الميثوس من حياته .. والزوجة الحبلى .. والأولاد اليتامى .

وفى ذات يوم فوجئت به ، وقد جلس على الدكة الخشبية أمام كشك التنس الأخضر عند مدخل قاعة الملابس .. كان يرتدى البنطلون والقميص ويلبس على رأسه « البرنيطة » البيضاء .

وكان سليما معافى .. وكان يضحك ويشاكس من حوله ، ولم يك به أثر لمرض .. ولا كان ينقصه شيء .. مما تعودت أن تراه به .

اللهم إلا شيئاً واحداً .. هو ذراعه .

لقد كان إبراهيم مدرب التنس ... بلا ذراع .

ولم يكد يراها .. حتى قفز من مكانه وأقبل عليها مرحباً وهو يقول

ضاحكاً :

— ٣٥ —

— أهلا .. ست نادية .

وأحسنت « نادية » بغصة في حلقها وهي ترى الرجل .. قد فقد ذراعه ..
اليمنى .. وسيلته الوحيدة للرزق .. ومع ذلك لم يبد عليه أنه فقد شيئاً ..
وتماكنت « نادية » نفسها وأجابته بنفس روحه المرحه :

— أهلا .. إبراهيم .. كيف حالك ؟!

— الحمد لله . لقد أصبحت سليماً أربعة وعشرين قيراطاً .

— أشفيت تماماً ؟!

— تماماً .. لم يعد نى شىء . لقد طار المرض مع الذراع الطائرة

ثم أشار إلى ذراعه .. وأردف ضاحكاً :

— راح .. الله لا يرجعه .. لقد دوّخنى .. لقد أراى نجوم الظهر .. لقد

أراى أياماً ، لا أراها الله لعدو ولا حبيب !

وأخذت « نادية » ترقب الرجل الضاحك وهي تسترق النظر إلى ذراعه ..

وقالت وهي تحاول أن تزدد دموعها :

— الحمد لله على سلامتك .

— الحمد لله .. والدكتور مدحت .. لم ينقذنى من براثن الموت سواه .

ودهشت نادية .. وردت متسائلة :

— الدكتور مدحت ؟

— أجل .. لقد أنقذنى .. رغم أنفى .. هل تصدقين ؟

— كيف ؟

— عرف بمرضى .. وعندما كشف على .. قال بمنتهى البساطة .. وبطريقته

المستخفة المتعجرفة .. إنه لا بد من قطع ذراعى .. تصوّر .. قطع ذراعى

اليمنى سبب رزقى .. وحياتى .. وحياة أولادى .

— وماذا فعلت ؟!

— تركته بالطبع .. وقلت عنه : مجنون .. وعدت لأستسلم لآلامى ..

ولطمأنة الدكتور جادالله وابتساماته .. ومزيجه .. ولزقاته ..

— ثم عدت إليه ؟

— أبدأ .. لقد عاد هو إليّ .. عندما استغيبنى . وعندما رفضت أن أذهب إلى المستشفى لأقطع ذراعى .. عندما ولولت امرأتى . ضربها . ثم حملنى برغمى إلى المستشفى . وبرك على أنفاسى .. وخدرت .. ثم قطع ذراعى .

ولم تستطع « نادية » أن تغالب ضحكتها .. رغم ما فى قول الرجل من مأساة .. ولكنها لم تكن تتصور قط .. طبيباً متمديناً .. يهجم على مريض .. ويرك على أنفاسه .. ثم يحقنه بالبنج ويقطع ذراعه رغم أنه .

وتساءلت « نادية » خلال ضحكتها :

— هذا ليس طباً إنها جزارة .

— إى والله ياسبت نادية .. لو ترين كيف هجم علىّ وكيف صاح بامرأتى « أنت حيوانة .. تريدين أن تقتليه .. من أجل القرشين اللذين يأخذهما من النادى ؟ » .

وعندما أجابته امرأتى باكية : « لن يشتغل إذا قطعت ذراعه » أجابها « ولن يعيش إذا لم تقطع » .

— لا بد أنه كان على حق !

— طبعاً .. على حق .. لقد شفيت تماماً .. أصبحت كالجن الأزرق .. ولكن بلا ذراع ..

— لن يصعب عليك إيجاد عمل بغيرها .

— لقد وجدت فعلاً .. إنى أعمل كما أنا .. إن مجلس الإدارة وافق على أن

أبقى مشرفاً على المدرّين .. بناء على رجاء الدكتور مدحت .

— إنه يبدو رجلاً ذامروءة .. لقد أسأنا به الظن .

— جداً . إنه إنسان . لقد تولى أمر امرأتى وأولادى ، طيلة مرضى . إنه

مخلوق ممتاز فى كل شىء .. عدا شىء واحد .

— ماهو ؟

— إنه مزور ؟

— أجل ...

— كيف ؟

— إنه لم يكن يستطيع أن يجرى لى عملية بتر الذراع .. إلا إذا أخذ « منى » إقراراً كتابياً بالموافقة .. ولما كنت أرفض إجراء العملية .. فقد قطع ذراعى .. ثم أخذها .. وبصم بها الإقرار .

واندفع إبراهيم مقهقهاً وهو يقول :

— هذا تزوير .. إنها لم تكن ذراعى حين بصم بها .. لقد كانت شيئاً لا صنة

لى به .

وصمت إبراهيم برهة ، وأحست « نادية » أنها لا تستطيع أن تغالب دموعها ، ونظر إليها الرجل ... ذو الذراع المتورة وهو يتساءل فى دهشة :

— لماذا تبكين يا ست نادية ؟ لقد سمعته .

ومنذ ذلك الحين .. تبدد شعور الكراهية والنفور .. وحل محلها إحساس بالاحترام والتقدير .. ثم تطور رويداً رويداً .. إلى حب .. أخذ يعمق ويزداد كلما جلست لتراقب الرجل الطويل العريض المنكبين .. الذى يغلب تجمهه بسمته والذى لا يحفل كثيراً .. بمجاملة الغير .. ولكنه يحمل فى رأسه ذهنأ عبقرى .. وفى صدره قلباً يفيض بالحنان والمحبة . وانتهت لعبة الكروكيه .. و« نادية » مستغرقة فى شرودها وهى ترقب مدحت يتجه فى تودة إلى خارج الملعب .

ونفض صبرى وهو يسألها :

— أستلحقين بهم عند حوض السباحة ؟

— ٣٨ —

وأجابت نادية :

— أجل ...

وتحرك الاثنان في صمت تجاه الحمام .. وصبرى مازال يجهد ذهنه في إيجاد
نقطة يبدأ منها الحديث !!.

(٤)

حديث السلام

— جلس « عصام » على إحدى المناضد في الشرفة « تحت » السقف المنحدر « المستطيلة المجاورة لحوض السباحة .. وأقبل عليه بعض الأصدقاء والصدىقات يحيونه في ترحيب ويعلقون مازحين على شعره المخلوق ، ويسألونه هل تعلم السلاح والتنشيد .

وجرى الحديث بينهم في خفة ومرح حتى أقبلت « منى » بعد أن ارتدت ملابسها .. وبدأت الشلة تنفض رويداً رويداً حتى خلت المائدة إلا من الاثنين . وأقبل عليهما السائق النوى يحمل صينية الشاي .. فوضع الإبريق والسكرية والفنجانين بينهما .. وقبل أن ينصرف سأل عصام منى :

« أتريدين شيئاً يؤكل . كيك ؟ أو جاتوه ؟ أو سندوتش ؟

— لا داعي .. إني سأفطر معهم في البيت .

— وأنا أيضاً .. لست أدري ما الداعي إلى إصرار البيوت على تغيير مواعيد

الطعام .. إذا كان ثلاثة أرباع أهلها مفطرين . ليس في بيتنا صائم غير أمي والخادمة .. ومع ذلك نجلس جميعاً على مائدة حافلة في وقت الإفطار .

— نحن أيضاً . لا يوجد صائم في البيت غير أمي ، ونادية .

— أملك صائمة ؟

— أجل ...

— ولماذا ؟!

— لقد نذرت عندما أصيب أبي بالذبحه بعد أن أخرجه من الجامعة .. أن

تصوم رمضان .

وضحك عصام وقال :

— ولماذا لاتصلى ؟!

— لقد حاولت نادية أن تعلمها .. ولكن لم تستطيع أن تحفظ الفاتحة أو التحيات .. لم أفرنسية أخيب منها .

— إنها طيبة جداً .. يَخِيلُ إليّ أحياناً .. وأنا أبصر طيبتها وهدوءها وصمتها .. أنها جدتي أم أي .. حتى إني أشك كثيراً في أنها ولدت في جبال الألب ، وأكاد أجزم بأنها من مواليد تحت الربع .
— ربيع في عينك .

— طيب أسأليها .. وإذا لم تقل لك إنها من مواليد تحت ربع .. جبال الألب .
— لن تفهم معنى .. تحت الربع .. إنها لا تستطيع أن تتكلم جملة عربية متأسكة .. بعد وجودها في مصر خمسة عشر عاماً .

— من غباوتها ! عندما تصبح حماقي سأعلمها الرّوح .
— على فكرة .. لقد قلت لنادية إنك ستخطبنى اليوم . ورفع عصام عينيه عن فنجان الشاي ونظر إليها في دهشة متسائلا :

— ولماذا قلت لها هذا ؟

— لقد أنبتني على كثرة ملازمتك لي .

— وما لها هي .. أقد جعلت نفسها وصية عليك ؟

— لقد قالت إن أهل أوى كلهم ثائرون على تصرفاتى وإنهم يهتمون أوى بأنها أساءت تربيتهى فلما قلت لها إنك My Boy friend قالت : إن عائلتنا لا تعترف بأقل من خطيب فقلت لها : سأجعلك تخطبنى اليوم .

— أنت مجنونة !

— لماذا ؟

— لأنى لا أستطيع أن أخطبك وأنا مجرد تلميذ لا هنا ولا هناك !

— ألم تحصل على الليسانس ؟

— أجل .

— ٤١ —

- أجل .
- ألم تكن تستطيع أن تتوظف أو تصبح محامياً ؟
- أجل .
- انتبهنا .
- لم تنته .. لأنك ظلمت تلحين على حتى دخلت الكلية الحربية .. فأصبحت تلميذاً من جديد .. وأى تلميذ ؟ .. تلميذ غلبان .. كحيان .. ليس هناك واحد من صف ضباط الكلية إلا ويتأمر ويبيع فيه ويشترى .
- وضحكت « منى » وسأته في حنان :
- أنادم أنت ؟
- أبدأ .. على العكس .. إني نادم لأنى لم آخذها من قصيرها .. وأدخل الحربية من الأول .
- لا .. لا .. هذا أحسن .. إني أفضل أن تكون ضابطاً وشيئاً آخر .
- تعين .. مثل تاجر وترزى ؟
- بالضبط .
- ورشفت « منى » رشفة أخيرة من فنجانها ، ثم أردفت متسائلة :
- ومتى ستنتهى من هذه التلمذة .. حتى تصبح إنساناً محترماً يستطيع أن يخطب ؟
- ونظر « عصام » في عينيها الخضراوين الضاحكتين . وتساءل :
- أحقاً .. تتعجلين الخطبة ؟
- وهزت كتفها في استخفاف قائلة :
- أبدأ .. أنا لا يهمنى شيء .. إنما نقلت إليك حديث نادية عما تقوله عمتى .. وإن كنت شخصياً لا أعابها ولا بكل أهلها .
- إن أمامنا وقتاً طويلاً . أنت لم تبلغى السادسة عشرة بعد .
- في يونية القادم سأبلغها .

— ٤٢ —

— وأنا مازال أمامى طريق طويل حتى أستقر ، وأصبح رجلاً جديراً بالزواج
وبإنشاء أسرة وتعمير بيت .. من يعلم أين سيقذفون لى بعد التخرج ؟
— وأين يحتمل أن يقذفوا بك ؟

— من يدري !

— ألم تقل لى إنك ستخرج لتكون نائب أحكام فى إدارة الجيش ؟
— ليس بعد التخرج مباشرة . إنهم سيلحقوننا بالأسلحة للتدريب على عمل
القوات المسلحة .. حتى نستطيع أن نخدم فى الميدان كبقية الضباط ..
— وأى سلاح سيلحقونك به ؟

— الله أعلم .. لن يستطيع أحد أن يعرف مصيره إلا عند التخرج بعد بضعة
أشهر .

ونظرت إليه « منى » فى إعجاب .. وقالت :

— إنى أريدك أن تذهب إلى السلاح الذى يضع سلسلة على كتفيه .
— لا أظن .. لأن أركان حرب المدرسة من المدفعية .. وهو يريد أن يلحقنى
بسلاحه حتى أنفعهم فى ألعاب القوى .
— لا .. لا .. سيكون منظرك هائلاً بالسلسلة .
وضحك عصام قائلاً :

— يا منى . كفى عن هذا العبط .. إنك تعامليننى كأنى .. حصان .. يمكن
أن يكون منظره أجمل بالسلسلة منه بدونها .
وابتسمت « منى » وقالت فى إصرار :
— سأخبر عمى سليمان .. لكى يرشحك للفرسان .. لأنه سيتناول الفطور
معنا اليوم .

— لا تتعبى نفسك .. مازال الوقت مبكراً .. إننا لن نتخرج قبل أغسطس .
وبدت « نادية » مقبلة مع صبرى .. يسيران الهوينى تجاه الشرفة ، ورمقهما
عصام قائلاً :

— ٤٣ —

- يبدو أن هناك إعجاباً متبادلاً بين صبرى ونادية ؟ !
— لا أظن .
— لماذا ؟
— لأنه ليس هناك إعجاب متبادل بينها وبين أى إنسان .
— ماذا تقصدين ؟ !
— أقصد أن الخلق الوحيد الذى تعجب به لا يعجب بها .
— ولماذا ؟
— لأنه لا يحس بها .
— من هو ؟ !
— الدكتور مدحت .
— الذى كان يلعب الكروكيه الآن ؟
— أجل .
— وما الداعى لإعجابها به !! إنه لا يجيد لعبة الكروكيه .
— ليست المسألة مسألة « كروكيه » .
— مسألة ماذا إذا ؟
— الله أعلم .. أما الذى أعلمه .. فهى أنها تحب دائماً أن ترقبه ويصحبها
الارتباك والاضطراب عندما تراه أو تسمع عنه .
— ووصلت « نادية » وصبرى .. وكان صبرى قد منّ الله عليه أخيراً بنقطة يبدأ
منها الحديث . فسأل « نادية » قائلاً :
— مارأيك فى مؤتمر باندونج ؟
— وكانت « نادية » تمنى طول الطريق أن يبدأها صبرى بالحديث .. وأن
يصل معها ما انقطع من حديثه عن الدكتور مدحت مع عصام .
— كانت تمنى أن يواصل حديثه عن عبقرية مدحت .. وعن عملياته وعما
يفعل وعما يقول .. ولكن صبرى أصيب بالبهيم ، ولم تدر هى كيف تدفعه إلى

الحديث .

كانت تخشى أن تقول شيئاً يشتم منه اهتمامها بمدحت .. أو رغبتها في الحديث عنه .

وعندما منّ الله على صبرى بالحديث .. تكلم عن مؤتمر باندونج .. ولم يكن في ذهن « نادية » صورة واضحة عن باندونج .. إلا ما تقرؤه من عناوين الصحف العريضة .

واتخذ كل منهما مقعده على المنضدة بجوار « منى » وعصام .
وأخذ صبرى يسترق النظر إلى جانب وجه « نادية » .. ولمح ضفيريها الذهبية المدلاة على ظهرها .. والزغب الأصفر الذى يبدو على صفحة خدها أسفل سالفتها بمحاذاة أذنها .

وأحست « نادية » أنها لا بد أن تجيب بشيء عن سؤال صبرى عن رأيها عن مؤتمر باندونج ، فهزت رأسها متسائلة :

— رأى فى أى شىء فيه ؟

— مبادئه وأهدافه .

ورفع عصام وجهه متسائلاً :

— ما هو ؟

— مؤتمر باندونج .

وضحك عصام قائلاً :

— طبعاً يعجبك أنت لأنك شيعى .

وهز صبرى رأسه ثانياً بشدة :

— أنا لست شيعياً .. أنا من أنصار السلام .

— أنصار السلام .. يعنى شيعى .

— الذين ينادون الآن بالسلام ، ليسوا الشيوعيين وحدهم . لقد كَوّن المؤتمر

كتلة جديدة محايدة تنادى بالسلام .. وتقر مبدأ التعايش السلمى !

— ٤٥ —

— الشيوعيون أيضاً يَقْرَون هذا .. لأنهم لا ينشرون مذهبهم بالعنف ..
ولكن بالتسلل .

— أنت أمريكيانى .

— وأنت شيوعى .

— أنا مع جمال عبد الناصر .

— وأنا أيضاً مع جمال عبد الناصر .

وتدخلت « منى » صائحة :

— وأنا لست مع جمال عبد الناصر .. لأنه طرد أبى من الجامعة .. وأصابه
بذبحه .

وتدخلت « نادية » قائلة .

— جمال عبد الناصر ليس له دخل بخروج أبيك .

— من الذى طرده إذن ؟

— الغيرة والوشايات والتائيم .. هل تظنين أن جمال مسئول عن خطايانا
جميعاً .. وأن عليه أن يحتمل وزر كل واش تمام ١٢

— إنه مسئول عن كل ظلم يقع علينا .. إنه مسئول عن إقامة العدل بيننا .

ونظر عصام حوله فى حرج وقال :

— دعونا من هذا الحديث الآن .

ونظرت إليه « منى » قائلة فى سخرية :

— لا مؤاخذه .. نسيت أنك لبست البذلة الكاكية ١١

ونظر إليها عصام نظرة رادعة قائلاً :

— منى .. تأدبى .

وضحكت « منى » ورفعت يدها بالتحية العسكرية قائلة :

— حاضر يا فندم .

وعاد صبرى من جديد يدير دقة الحديث إلى مؤتمر باندونج قائلاً :

— ٤٦ —

— على أية حال أنا أعتبر مؤتمر باندونج نقطة تحوّل في تاريخ العالم .. وخطوة إيجابية في سبيل إقرار السلام .. وأعتبره كذلك قد وضع مصر موضعاً مشرفاً بين شعوب العالم .. لقد حددنا به شخصيتنا المستقلة .. وأزلنا به التبعية التقليدية .. للغرب .

وهز عصام رأسه وقال مصدقاً :

— في هذا .. معك حق .

ثم رفع سبابته وهزها مؤكداً وقال في إصرار :

— ولكنني مع ذلك ما زلت أصر .. على أن أنصار السلام شيوعيون .. وأنهم ممنعون بمؤتمر باندونج أكثر مما هم ممنعون بالثورة .. وأنهم لم يفعلوا بجمال إلا بعد مؤتمر باندونج .

— ليكن .. شيوعيون .. شيوعيون .. إن السلام هو السلام .. وغير

معقول أن نكره السلام لأن الشيوعيين ينادون به ؟

وسدت « منى » أذنيها قائلة في احتجاج :

— دعونا من السلام والشيوعيين لقد سببتم لي صداماً ! تحدثوا في أي شيء آخر .

ونظرت إلى مياه الحمام الفيروزية الصافية وقالت في شوق :

— وددت لو أخذت غطسة .. ما رأيك يا عصام ؟

ونظرت إليها نادية في غيظ وقالت :

— أنت مجنونة ؟ .. ألم يكف الجهد الذي بذلته اليوم !؟

وهزت « منى » كتفها قائلة :

— ليس هذا من شأنك .

ونهرها عصام قائلاً :

— معها حق يا منى . لم يكن هناك ضرورة أبداً للعب الذي لعبته اليوم .. بل

ليس هناك أية ضرورة لأن تفعل ما يجهدك .

— ٤٧ —

وبدا الضيق على وجه « منى » وأجابت :
 — أنا سليمة مائة في المائة .. أسلم منك ومنها .
 وأجاب صبرى فى رقة :
 — طبعاً ... إنك أسلم منا جميعاً .. فقط .. لا ضرورة للإجهاذ . نحن أيضاً
 لا نهجذ أنفسنا . اكتفى دائماً بالفرجة على اللاعبين ، إن هذا أسلم موقف يمكن
 للإنسان أن يقفه فى الملعب .
 وضحكت « منى » قائلة :
 — ولكنى لا أستطيع أن أشاهد المياه دون أن أقذف بنفسى فيها .. إلى لا أكاد
 أرى البحر ..
 وقاطعها عصام متسائلاً :
 — هل تنوون الذهاب هذا العام إلى الإسكندرية ؟
 وهزت نادىة رأسها قائلة :
 — لا أظن .. إن أبى يصبر على أن نذهب إلى فرنسا هذا العام .
 وقالت منى :
 — كل عام يقول هذا .
 — هذا العام يبدو جاداً .. إنه يريد أن نقيم هناك فى « جرينوبل » .. وهو
 ينتظر خطاباً بالموافقة على تعيينه فى جامعة « جرينوبل » .. وأمى طبعاً تشجعه .
 وتساءل عصام فى دهشة :
 — أحقاً هذا يامنى ؟
 — لا تصدقها .. قلت لك كل عام يقول هذا .
 وأردفت نادىة :
 — إن صدره قد ضاق .. بعد خروجه من الجامعة .. وحالته المعنوية سيئة ..
 ومما تريد الذهاب لزيارة أهلها .. فقد مضى علينا خمسة أعوام بعد آخر زيارة .
 وقاطعتها منى :

— ٤٨ —

— إن أقصى ما سنفعله هو أن نذهب لقضاء بضعة أشهر كما فعلنا آخر مرة . لا
تصدق أن إلى سيتعين في « جرينوبل » . كلام فارغ .
ونظرت « نادية » إلى الساعة فوجدتها قد قاربت السادسة والنصف ..
فهبت قائلة :

— هيا بنا .. لقد أوشك المدفع على الضرب .

وسأل عصام منى :

— أتحضرين غداً للعلوم ؟

وهزت منى رأسها هزة إيجابية .

وسأل صبرى نادية مررداً :

— وأنت يا نادية أستمحضرين ؟

وأجابت نادية :

— يمكن .

وتحركت التوءمتان في طريقهما إلى البيت .. واحدة بشعرها المقصوص
وخطواتها الخفيفة ولفتاتها المرححة ، والأخرى بضيفرتها المدلاة وخطواتها المتزنة
وسيرها المتعد .

(٥)

صدمة تطهير

كانت الشمس قد بدأت تنحدر نحو الأفق الغربى عندما غادرت « نادية » و « منى » النادى متجهتين إلى الدار ولم تكن الدار تبعد كثيراً عن النادى .. كانت إحدى « الفيلات » المتوسطة ذات الطابق الواحد التى يمتلئ بها حي منشية البكرى .. وكانت تقع على شريط « المترو » ، وتحيط بها حديقة متوسطة تناثر بها أشجار البرتقال والمنجة والجوافة والأحواض التى ما زالت بها بقايا زهور الشتاء الجافة المعشوشبة ، والنخيل قد تكاثف حولها فى إهمال وغزارة .. وخرطوم ممزق .. تنساب مياهه وسط النجيل ، وتستسرب إلى الأحواض ، ويحد الحديقة سور حديدى قديم متوازى القضبان قد تخللته أغصان الجهنمية من ناحية الشارع المطل على المترو ، ويحدها من الناحية الخلفية سور من الحجر تشقق بياضه وتفتتت موته من نشع الحديقة .

والبيت يبدو ، وقد لُوِّحت الشمس لونه ، فأحالت طرطشته الحمراء إلى لون بنى كالح . وفى مواجهة الباب الحديدى العريض يقوم الدرج الرخامى الذى حددت حافته أحواض الجارونيا ورصت على جانبيه قصارى اللاتانيا .. وينتهى الدرج بشرفة متسعة قامت على أعمدة تسلق على أحدها عود من الياسمين ظلل بأوراقه المتكاثفة أحد جوانب الشرفة .

ويفضى باب الشرفة إلى قاعة مربعة رص بها طقم جلدى ضخمة عتيق ، وشيدت على جانبها الأيمن مدفأة من الصولناجة وعلقت فوق المدفأة صورة كبيرة ملونة لقبطان فرنسى تتأبط ذراعه سيدة بدنية غطت القبعة نصف وجهها . وكانت الصورة مع صورة أخرى خشبية بارزة لكوخ فوق جبال

(نادية — ج ١)

الجليد هي كل بقايا ذكريات الأم الفرنسية من وطنها القديم .
وفي القاعة تناثر من الأثاث كل ما يحتمل أن نراه في قاعتنا ، منضدة عليها زهرية .. ومشجب في الحائط علقت عليه عصا الأب .. «وشبشب» الخادمة وراء الباب .. وصحف ومجلات ملقاة على أحد المقاعد .

وعلى يمين القاعة حجرة استقبال .. يملأ نصفها بيانو .. عريض ورثته الأم عن أمها السمينية المعلقة صورها فوق المدفأة بجوار القضبان والنصف الآخر من الحجرة رصت فيه المقاعد والأرائك التي ترص شبيهاً من الحجرات في بيوتنا .
وعلى يسار القاعة حجرة مكتب .. هي في الوقت نفسه حجرة نوم للأب .. بعد أن تحولت الأريكة الموضوعة في الركن إلى فراش بمضى الاستعمال .. والحجرة بعد هذا لا تزيد على حجرة أى أستاذ في الجامعة .. كتب في رفوف معلقة على الجدران .. أو مرصوفة في دولا ب .. أو مبعثرة على مكتب .. وملابس ملقاة هنا وهناك .. فردة حذاء مقلوبة وشراب أسفل أريكة .. وجرنال يطارده الهواء في أرض الحجرة عابثاً بأوراقه .. وساحة الحجرة ميدان مستمر لمباراة بين رب البيت وأهله .. في النكش والتسوية ، واللخبطة والترتيب .. وهو يبعثر وهم يلمون ، وهو يفرش وهم يساوون .. وهو يدعى أن تسويتهم لخبطة .. وأنهم يجب ألا يمسوا ممتلكاته .. والأم تؤكد له أن الحجرة جزء من البيت ، وأنها لا بد أن تخضع لنظام النظافة والترتيب فيه .

وأخيراً استطاع أن يخرج من المكتب بمحتوياته من دائرة نفوذ أهل البيت ، وأن يحصل على ضمان بعدم مس كل ما يدخل في نطاقه مهما بدا قذراً مبعثراً ، بعد أن أقنع الأم بأن أى تغيير في نظام المكتب أو نقل لما به من أوراق وكتب .. يعتبر عبثاً خطيراً بكل ما يعده من محاضرات ودراسات .. وتشتيئاً لأفكاره ، وأن ما تراه هي بعثرة إنما يراه هو أجدى طريقة في التنظيم .. وأن يجد كل شيء

مبعثراً في المكان الذي تركه فيه ، من أن يفقده منظماً في مكان لا يعرفه .
 وفي مواجهة القاعة باب زجاجي يؤدي إلى دهليز يقع في نهايته السلم الخلفي
 المؤدى إلى الحديقة والسطح ، وعلى يمينه المطبخ والحمام وحجرة تستعمل للطعام
 وللجلوس والخياطة والثلاثة أرباع الأعمال التي يعملها أهل الدار ، وقد وضعت
 بها أريكتان وتوسطتها منضدة فرش عليها مشمع ، وفي ركن منها ماكينة خياطة
 ودولاب به كل ما يمكن أن يخطر على البال مما يلزم الأسرة ومالا يلزمها ، من
 جرائد قديمة إلى زجاجات فارغة إلى ملابس إلى علب ألوان ، إلى حبوب عصافير ،
 إلى عرايس قديمة ، إلى ألبومات صور ، إلى كل ما يخطر أو لا يخطر على بال .
 وتواجه الحجرة المختلطة حجرة التوأمتين ذات الفراش المشترك ،
 والدولاب ، والشفونية ، والمكتبين الصغيرين . أحدهما نظيف مرتب ،
 والآخر قد بعثرت فوقه الكتب . وثناثرت الأوراق ، واختلطت المحيرة بعلبة
 البوردة ، والقلم بإصبع الأحمر ، وألقى على مقعده منشفة ، و « سوتيان »
 صغير .

وبجوار حجرة التوأمتين تستقر حجرة الأم بباب يفضي إلى حجرة المكتب
 التي يستقر فيها الأب .. وبين الباب طبيعة العلاقات بين الأم والأب ، إذا كان
 مفتوحاً فالعلاقات طيبة ، وإذا أغلق فسوء تفاهم مستحكم .
 وحجرة الأم .. تكاد تكون مستقلة عن جميع حجرات البيت في طابعها ..
 وهي تعبر تعبيراً جيداً عن طبيعة الأم .

كانت الأم « مدام لورا » ، أو « مدام فاضل » مخلوقة منطوية ، طيبة
 القلب .. التقت بالأب ، وهو يدرس في جامعة « جرينوبل » في جنوب
 فرنسا ، وكان لقاؤهما خلال عام ١٩٣٨ .

وكانت تعمل وقتذاك في سكرتارية المدرسة ، وقد جمع بينهما القرب في
 المدرسة والقرب في السكن حيث كانا يقطنان في حجرتين متجاورتين في بيت
 امرأة عجوز في أحد أطراف المدينة .

وكان موطن « لورا » في جاب .. إحدى البلاد الصغيرة في منطقة الألب

العليا جنوب جرينويل .. وكانت تذهب لزيارة أمها خلال العطلة الأسبوعية في أيام الدراسة .

وأنشأت الغربية والجيرة بين الاثنين نوعاً من الألفة . وطدت الصداقة بينهما ، وتطورت الصداقة إلى حب .

وتردد « فاضل » في اتخاذ خطوة إيجابية لتحديد علاقتهما فقد كان هناك شبه ارتباط بينه وبين « ابنة عمه » في مصر .. وكانت الأسرة تأمل عند عودته أن يتم الزواج .

ولكن نشوب الحرب ، وزيادة فترة البعد ، والإحساس باليأس من العودة في هذه الظروف القائمة ، وعدم ظهور أية بارقة تنبئ بحالة سلام .. وازدياد علاقة الحب .. وتطورها إلى علاقة أكثر من مجرد تبادل شعور .. جعله يتخذ قرارا بتحديد العلاقة على ضوء الواقع .. وانتهى الأمر بهما إلى الزواج .

وقضى الاثنان الأشهر الأولى من زواجهما في بيت « لورا » في جاب .. وأمضيا في البيت الصغير المقام وسط المزارع على سفح الجبل .. أسعد أيامهما .. كان كل شيء حولهما ممتعاً .. رغم ظروف الحرب التي لم تستطع أن تمنع الثلوج من الذوبان ، ومياه الشلالات من التدفق على سطح الجبل ، ومياه البحيرة من الانسياب حول شواطئها .. ولا استطاعت أن تمنع البراعم من التفتح ، والزهور من أن تغطي هام الشجر .

ووضعت « لورا » التوءمتين .. ومضت بضع سنين والأربعة يعيشون بين « جرينويل » و « جاب » في جبال الألب العليا ، حتى سنحت فرصة للعودة إلى أرض الوطن ، فحمل الأب زوجته وابنتيه .. وعاد إلى القاهرة .

وفوجئت الأسرة بعودته ، وفوجئت أكثر بحمله .. وعندما خفت مظاهر الفرح بعودته برزت مظاهر التبرم بحمله والثورة على فعلته الحمقاء ، وأخذ الوجوم يحيط بالأسرة الصغيرة ، والتجهم يزداد حولها . ولم تستطع الأسرة الكبيرة أن تخفي خيبة أملها فيه ..

وتطور الأمر إلى شبه مقاطعة ، وقادت الحملة عليه أخته « زكية » صديقة « ابنة عمه » .. التي كانت الأسرة قد وطلدت أمرها على زواجه بها .

وأحسست « لورا » بنفور الأسرة منها ، وهى بطبعها مخلوقة سلبية صامتة .. فانطوت فى بيتها تعيش فى شبه عزلة مع زوجها وتوعمتها .

ومرت الأيام ، ونمت التوعمتان ، تكاد كل منهما تكون صورة من الأخرى ، وتكاد الاثنتان تكونان صورتين مصغرتين لأمهما .. نفس الشجر والأعين

المتسعة الخضر ، والحواجب الكثة المقرونة والأهداب الطويلة والشفاة الممتلئة . ولم تستطع الأم أن تؤثر فى ابنتها ، كما تفعل كل أم أجنبية .. فقد كانت

شخصية الأب أقوى وأطغى .. وكانت « لورا » شديدة الحب له والتأثر به .. فبدت هى الفرنسية الوحيدة فى البيت ، عدا أثاث حجرتها ، والصورة المعلقة

فوق المدفأة والبيانو الذى يملأ حجرة الاستقبال .

وخلال تلك المدة لم تعد إلى « جاب » سوى مرة واحدة لزيارة أمها .. وقضت هناك عطلة الصيف هى زوجها وابنتها ، ثم عادوا جميعاً مع بدء

الدراسة ، وأحسست فى قرارة نفسها أن موطنها لم يعد « جاب » ، وأن موطنها هنا .. فى البيت الصغير المقام عند شريط المترو .. وأن كيائها أصبح مرتبطاً ..

بالمخلوقات الثلاثة التى تعيش من أجلها ، زوجها وابنتها .

مرت السنون ، ونمت طفلتها ، وترهل جسدها .. وخطط الشيب شعر زوجها ، وعمقت التجاعيد حول عينيه .

ولاشئ أكثر من ذلك .

لأن تغيير عميقاً فى جوهر حياتها .

نفس النفور والقطيعة والخصومة من الأسرة ، ونفس الانطواء فى بيتها ، ونفس السلبية .. إزاء أقرب الناس إليها وإزاء نفسها .

وحدثت الثورة ، وتبدلت أوضاع كثيرة فى مصر ولكنها لم تحس بشيء . وكان يمكن أن تستمر حياتها على نفس الرتبة والبساطة حتى حدث لها أول

صدمة .. عندما خرج « فاضل » من الجامعة .
ولم يكن خروجه في حد ذاته .. يعنى صدمة بالنسبة لها ، ولكن صدمته هو
بالخروج ، هو الذى هذ كيائها .

كان وقع الخروج على « فاضل » شديداً .. فقد كان يحس أنه يجب عمله ،
وأنه قد كرس له حياته ، ووضع فيه كل أمله . ولم يحس قط أنه قصر ، أو
أخطأ .. وكان شديد التحمس للثورة والترحيب بكل أعمالها .. من خلع
ملك ، إلى إلغاء ألقاب ، إلى تحديد ملكية ، إلى .. إلى ...

حتى خرج من الجامعة !

وكيف !! فى التطهير !

وبعد كل هذا التحمس للثورة ، والإخلاص فى عمله ..
وجد نفسه على قارعة الطريق ، كأنه مذنب .. لأبد للثورة أن تطهر البلد منه ،
حتى تستقيم أمورها .

كانت آماله كثيرة ضخمة .. كان مساعد أستاذ .
وكان كرسي الأستاذية أمامه خالياً يوشك أن يتربع عليه .
ولكنه بدلاً من أن يتربع عليه يتربع على الرصيف .
ولم يستطع أن يتحمل الصدمة ، فأصابته ذبحة صدرية .
ورقد فى الفراش . وساد البيت وجوم وكآبة .. وأحست الزوجة الفرنسية
الطيبة بخطورة حالته ، وأحست أن سندها فى هذه الدنيا الفارغة الواسعة ..
يوشك أن يتخلى عنها ، ليركها عزلاء مع ابنتين « زغب الحواصل ، لا ماء ولا
شجر » .

وبدت فى الدار تائهة .. تصلى بكل لغة . ولكل إله .

حتى من الله عليه بالشفاء .

وشفى من علته ، ولكنه لم يشف من سخطه .

وفي هذه الساعة كان يجلس في حجرته .. وقد تمدد فوق الأريكة بالبيجامة ،
وانهمك في القراءة .

وبدا جسده نحيلاً ، ورأسه قد خف شعره .. وبدأت ملامحه التي تعودت على
الابتسام ، وقد كستها مسحة مرارة لا تكاد تفارقها .

وسمع وقع أقدام تصعد السلم الرخامي ، وعرف من خفة وقعها .. أقدام
أخيه « سليمان » .. وأكدها له العربة الكاكية التي لحها من النافذة تقف أمام
باب الحديقة .

ووضع « فاضل » الكتاب الذي في يده جانباً .. ورفع يده فخلع نظاره .
وسمع وقع أقدام زوجته تتجه إلى باب الشرفة الخارجية .
وعلا صوت سليمان يقول ضاحكاً :

— كيف حالك ؟ أما زلت صائمة ؟

وهزت « لورا » رأسها مؤكدة في لهجتها الفرنسية :

— طبعاً صائمة .. إنه نذر .

— أول فرنسية أراها تنذر الصيام .. إنه صيام مسلمين ، وربنا لن يقبله
منك ، إذا لم تسلمي .

— إنه ربنا جميعاً ، وأنا أؤمن به كما تؤمن به أنت ، ولست أحس أن هناك أى
خلاف بيننا .

— مضبوط .. معك حق .. أين فاضل ؟!

— في حجرته .

— والبنات ؟!

— في النادي .

— نادى ؟!

فتنظر إلى ساعته وأردف متسائلاً :

— ٥٦ —

— ألسن صائحات ؟

— نادية فقط .

— ومنى !؟

— تصوم يوم ، وتفطر عشرة .

— ولكن نادية تأخرت .. إن موعد الإفطار قد قرب !

— لا بد أنهما في الطريق .. لقد كان لدى « منى » مباراة في « الفولى » .

— فولى !! ألم نقل إنها يجب أن تكف عن كل ما فيه إجهاد لها !

— لقد قلت لها هذا .. ولا أريد أن أكثر عليها بالتحذير فأنى أحس أنه يؤثر عليها تأثيراً عكسياً .

— كيف ؟

— إنه يخفض من روحها المعنوية .. ويجعلها تحس أنها مريضة دائماً . إنى أنصحها من آن لآخر .. بألا تجهد نفسها ، لأن قدرتها محدودة .

— مسكينة هذه البنت !

وقبل أن يدخل إلى القاعة بدت الفتاتان على الباب .. ولم تكذب « منى » ترى سليمان حتى اندفعت تعدو من الباب صائحة في فرح :

— « أنكل » سليمان !

وفتح سليمان ذراعيه قائلاً ، وهو يضحك :

— بالحضين .

ووقفت « منى » أمامه وهي ترفع إصبعها محذرة :

— عيب يا أنكل سليمان .. لقد كبرت .

وجذبها سليمان من ذراعها وضمها إليه .. وقبلها في خدها وهو يقول :

— كبرت على .. سأظل أحضنك حتى بعد أن تتزوجى .

ووصلت « نادية » فعمد سليمان يده إليها وضمها إليه وقبلها كما فعل مع

« منى » . ثم قال :

— وأنت أيضاً. حتى بعد أن تتزوجى .
وضحكت « نادية » وهى تستسلم إلى ضمته .. وقالت وهى تتسائل
محذرة :

— وحتى بعد أن تتزوج أنت ؟
وضحك سليمان وقال :
— إذا كنت سأتزوج امرأة طيبة كأهلك فسأحضن نساء الأرض جميعاً
أمامها .
وضحكت الأم قائلة :
— هيا بنا .

وأتجه سليمان إلى حجرة أخيه وتصافح الأخوان فى شوق ومحبة ، وسأل
سليمان :
— كيف الحال ؟

وهزّ « فاضل » كتفيه وكست ملامحه نظرة الضيق والسخط واليأس وقال :
— الحمد لله .. الذى لا يحمد على مكروه سواه .
— لماذا كل هذا السخط يا أخى ؟ !
وقبل أن يجيب « فاضل » سمع دوى مدفع الإفطار وأقبلت « نادية » تنادى :
— تفضوا .

(٦)

مصرية

جلست الأسرة إلى مائدة الإفطار ، ووقفت الخادمة تنتظر في قلق بعد أن رصت آخر صحاف الطعام . وقبل أن يمد أحدهم يداً إلى المائدة قالت الأم للخادمة :

— اذهبي يا عطيات لتفطري مع دادة فاطمة .

وكانت « فاطمة » خادمة لازمت الأسرة الكبيرة منذ طفولتها ، ثم تزوجت وطلقت فعادت مرة أخرى للخدمة في بيت « فاضل » بعد عودته من فرنسا ، وتولت تربية التوأمين وخدمة الأسرة كل هذه السنين في رضاء وإخلاص . وكانت مجدة دعوباً لا يكاد يعيها شيء إلا حبها للباعة المتجولين والمكوجية والبقالين وجميع أصناف الرجال الذين يفلدون على الدار .

ولم يكن على المائدة أى أثر من آثار الأم .. كانت مائدة إفطار مصرية مائة في المائة .. بما فيها من دورق « قمر الدين » وأطباق « الكشك بالفراخ » .. وصينية « البطاطس » وأطباق الخشاف وطبق القطايف .. وتناول سليمان كوب « قمر الدين » ومصمص بشفتيه في استطعام وقال للأم :

— قمر الدين لذيذ جداً ، لا يعقل أن تعمله ربة دار فرنسية !

وضحكت « منى » قائلة :

— « فرنسية إيه يا أنكل سليمان ؟ » . إنها لم تعد فرنسية . لقد قال عنها

عصام .. إنها فرنسية من تحت الربع .

ورد فاضل وهو ينظر إلى « لورا » ضاحكاً :

— معه حق .. لولا لكتتها لما صدق أحد أنها فرنسية .

واعترض سليمان قائلاً :

— وشعرها الأصفر وعيناها الخضراوان !؟

— ٥٩ —

— لدينا من هذا الكثير .. في المنصورة .
وأحسست الأم بعض الارتباك وهي تجد نفسها محل فحص وتعليق وردت
معترضة :

— إذا كان هذا من أجل « قمر الدين » فأنا لم أصنعه .. إن التي صنعتها
نادية .

ورد سليمان :

— برافو نادية .. ست بين مدهشة .

وأجابت « نادية » في تواضع :

— إنه ليس عملية عسيرة .

— ولكنها تحتاج إلى ضبط .

وتدخلت « منى » قائلة في سخرية :

— هي كيميا ؟ ..

وأجابها سليمان في تحد :

— أتستطيعين أن تعمل مثله ! ؟

— لو أردت لعملت .

— ولماذا لا تجربين ؟ !

— ليس لدي وقت .

— ماذا يشغلك ؟ !

— أشياء أخرى أهم كثيراً من « قمر الدين » ..

— مثل ؟

— مؤتمر باندونج .

وضحك سليمان وتساءل في سخرية وهو يغرس الشوكة في قطعة من

اللحم :

— هل اشتركت فيه ؟!

— طبعاً ..

— وما رأيك في التعايش السلمى ؟

ونظرت « منى » إلى « نادية » وسألتها ضاحكة :

— ما رأيك أنت يا نادية .. ماذا قال صبرى عنه ؟ ..

وضحكت « نادية » وأجابت :

— التعايش السلمى هو ما أفعله أنا .. وأنت .. نرقد فى فراش واحد ،

ونجلس متجاورتين على المائدة ، وفى الفصل ، وفى كل مكان نحل به .. ولكل منا مذهبه فى الحياة .. لا تفعل إحداها ما تفعله الأخرى .. ولا تحب ما تحبه .. ولكن

بلا عراك .. ولا قتال ولا جدال .

وعلق الأب وهو يهز رأسه :

— ﴿ ولا أنا عابد ما عبدتم .. ولا أنتم عابدون ما أعبد .. لكم دينكم وإلى

دين ﴾ .

وتساءلت نادية :

— كما تفعل أنت مع ماما ؟

— بالضبط ..

— إن بيننا إذن مثل للتعايش السلمى .

وتساءلت منى :

— وما دخل التعايش السلمى فى مؤتمر باندونج ؟!

وأجاب سليمان :

— إنه أهم مبادئه .

— آه .. قلت لى ..

— أعرفت إذن أنك لا تفهمين فى « قمر الدين » .. ولا فى مؤتمر باندونج ..

وأن نادية تفهم فى كليهما !

وأجابت « منى » ضاحكة :
 — ومع ذلك سأخطب قبلها .
 ورفع الأب رأسه المطرق المحدث في الطبق الذى أمامه . ونظر إلى « منى » فى
 شئ من الدهشة .. وكست وجه « منى » لمحة من الحياء ، ولكنها سرعان ما
 بددتها وقالت فى جرأة :

— أجل .. إن عصام قرر أن يخطبنى .
 وتدخلت الأم فى الحديث قائلة فى شبه زجر :
 — « منى » .. هذه الأشياء لا يمزح الناس فيها .
 — أنا لا أمزح :.. لقد قال لى عصام إنه سيخطبنى إذا ما تخرج .
 وصمتت برهة ثم وجهت بصرها إلى سليمان وأردفت قائلة :
 — بشرط .

وتساءل سليمان ضاحكاً :

— ما هو !!؟
 — أن تلحقه بسلاح الفرسان ..
 — وما دخله هو بالفرسان ؟!
 — لقد التحق بالكلية الحربية .
 — عصام ابن الست « أسما » جارتكم ؟!
 — أجل ..

— ألم يكن يدرس فى الحقوق ؟!
 — لقد تخرج والتحق بالكلية الحربية .. وسيتخرج قريباً .. ليصبح نائب
 أحكام ، وهم يلحقونهم أولاً بمختلف الأسلحة وهو يريد أن يكون فى
 الفرسان ..

وهز سليمان رأسه قائلاً :

— فهمت .. إذا كانت المسألة هكذا .. فبسيطة .. لقد ضمنا لك خطيباً ،
والدور على نادية ..

وأجابت نادية :

— إني سأتم دراستي ..

وقال الأب وهو يلوك لقمة في شذقيه :

— ومنى أيضاً ستتم دراستها .

وأجابت منى :

— لقد زهقت من الدراسة .

ورد الأب في لهجة جادة :

— ستتم الدراسة سوياً في « جرينوبل » .

وضحكت « منى » وصاحت في مرح :

— إذا كان الأمر كذلك .. فأنا مستعدة أن أتم دراستي .

ونظر إليها سليمان وتساءل ضاحكاً :

— والعريس ؟!

— ينتظر حتى أعود .. لقد قال لي إن أمامه وقتاً طويلاً حتى يستقر أمره .

ويصبح له مرتب معقول يؤهله لفتح بيت .. فحتى يجتاز وقت المرمطة .. أكون
قد عدت إليه .

— وتركينه يتمرط وحده ١٩

— إذا كان يجب أن يذهب معنا إلى جرينوبل .. فليس لدى مانع .. أما أن

اللاحقه في العريش ورفع وغرة .. فيفتح الله .

وضحك سليمان وهو يقول :

— طول عمرك .. بلا صاحب .. لا تؤمنين .

— لماذا ؟! إذا كان هو يرضى بذلك .. فما شأنك أنت !!

وكانت « نادية » تبدو شاردة الذهن .. وهي تقلب قول الأب في

— ٦٣ —

رأسها .. ولم تكذ « منى » تنتهى من قولها حتى تساءلت « نادية » فى صوت خافت :

— ولماذا لا نتم دراستنا هنا .. فى الجامعة !؟

وأجاب الأب فى كلمات مقتضبة :

— لأننا سنذهب لنعيش هناك .

وتبادل الجميع النظرات .. وسألت « منى » أمها :

— حقيقة يا ماما ؟

وهزت الأم كتفها قائلة فى استسلام :

— كما يريد أبوك ..

ونظر سليمان إلى أخيه نظرة فاحصة وسأله :

— أتقول حقاً يا فاضل !؟

— أجل ...

— ولِمَه !؟.

— لأنى سأعمل هناك .. لقد أرسلت إلى مدير الجامعة هناك .. وكان

أستاذى .. وأتوقع الرد بين حين وآخر ..

— هب أنه أتى بالرفض !؟

— لا أعتقد .

— على أية حال نرجو نحن أن يكون بالرفض .

— ولماذا !؟

— لأنه ليس هناك أبداً مبرر لسفركم .

— وهل هناك مبرر لبقائنا !؟

— طبعاً .. إنه بلدك .

— لا أحد يريدنى فيه .

— من قال هذا !؟

- قالته الجامعة التي فصلتني .
- هذا ليس معناه أن البلد لا يريدك !
- أنظن البلد الذي يراني غير صالح في مهنتي الأصلية .. ولا يأتمنى على عملي .. وعلى طلبتي .. أنظنه يريدني ؟!
- لماذا تقول البلد .. ولا تقول عميد الكلية .. أو بعض الأساتذة !! لماذا تجمع البلد كله في شخص هؤلاء ؟!
- لأن البلد لم ينصفني منهم .. أستطيع أن تذكر لي لماذا أخرجوني في التطهير ؟! أنا غير منتج ؟ لقد ألفت من الكتب ما يعلو هامتك .
- لم يقل أحد هذا .
- الآن زوجتي فرنسية ؟ لماذا إذن لم يخرجوا كل الذين زوجاتهم فرنسيات ؟! لأنني أعطيت دروساً خاصة .. لماذا لم يرفدوا كل الذين يعطون دروساً خاصة .. الآنني ..
- أنت تعرف لماذا خرجت .. وتعرف الذين وشوا بك ، والذين كانوا ينافسونك على كرسي الأستاذية .. أنت تعرف كيف كالوا لك التهم ..
- ولماذا أخذ بهمهم ؟!
- لأن من العسير تبيان الحقائق من الأكاذيب .. لقد اختلط الباطل بالحق في عمليات التطهير .. ووجدت النفوس الدنيئة مرتعاً لها ترتع فيه بالوشايات والتمايم والمكائد .. وكان من المستحيل .. منع عمليات الظلم أن تحدث .. أو عزل البريء عن أكرام المذنبين .
- لماذا لم تحاول أنت أن توضح لهم .. أنت ضابط .. وصديق لمعظمهم ؟!
- من قال لك إنني لم أحاول .. لقد حاولت .. واقتنع بعضهم .. ولكن التراجع في حالة واحدة .. يجبر وراءه الحالات الباقية .. وتصبح عملية التطهير كلها عبثاً في عبث .. ومع ذلك . لماذا تستمر على هذا السخط ، وأنت قد

عوّضت عن حالتك .. إنك الآن تربح أكثر مما كنت تربح في الجامعة .. لقد عيّنت في شركة إير فرانس .. وأنت تعطى دروساً في الليسيه .. وتعطى دروساً خاصة .. ومجموع مرتبك من كل هذا .. أكبر من مرتبك في الجامعة .

— ليست المسألة مسألة مرتب يا سليمان

— ماذا يضايقك إذن ؟!

— مرارة التهمة الباطلة .. ألم الظلم .. هل تظنها هينة على نفسى أن أظل حياتى مدموغاً بوصمة التطهير ؟! أظننه سهلاً على نفسى أن أترك بناتى يقال عن أبين إنه مطرود في التطهير ! ماذا أمام الناس عندما يسألوننى لماذا طردت ؟

حرامى .. أم فاسق .. كيف يكون ردّى ؟!

— يا أخى الذى يعرفك .. يعرف حقاً من أنت . ولن يتساءل لماذا خرجت .. لأنه واثق أنك لست حرامياً ولست فاسقاً .. والذى لا يعرفك لن يهمه لماذا خرجت .. أما الذين يكوهونك .. فسيقولون عنك .. لص وفاسق .. سواء

أطردت من الجامعة .. أم وليت على إدارتها .

— إنك تقول هذا لأنك لم تجرب !

— وماذا سيفيدك السفر !

— سأعيش في جو آخر .. لا يقابلنى فيه كل يوم إنسان يسألنى .. لماذا خرجت .. ولا ألقى في كل يوم شامتاً أو معزياً .

— أمن أجل هذا تترك بلدك .. وتفضل عليه الغربة ؟!

— ليست غربة بالنسبة لى .. لقد عشت فيها خمس سنوات .. وهى بلد امرأتى .. أم بناتى .. وسأحصل فيها على مركز محترم ومرتب ضخم . سأكون أستاذاً . لا طريد تطهير .

— والبنات ؟.

— ماهن ؟ .. ستدخلان جامعة من خير الجامعات .

— ٦٦ —

- وتعيشان بعيداً عن أهلها .. ووطنهما ؟!
- هب أنهما في بعثة دراسية .
- وبعد الدراسة ؟!
- يفرجها ربنا .
- إن حياتهما .. هنا في بلدهما ، لإنهما ستزوجان هنا !!
- لم يزل الوقت مبكراً .. على الزواج .
- ولكن فرصتهما تبدأ من الآن !!
- الفرصة لن تضيع منهما .. ستجدان حظهما في أى مكان .
- ولكن فارقاً بين أن تجدها في وطنهما .. وأن تجدها خارجه .. لإنهما فوق كل اعتبار مصريتان ، ولا بد أن تتزوجا مصريين .
- ووجه سليمان القول إلى الأم متسائلاً :
- أليس كذلك يا لورا ؟!
- وهزت « لورا » رأسها وقالت مؤكدة :
- أجل .. أنا أعرف هذا تماماً .. وما حاولت قط أن أحولهما عن هذا .
- وضحكت « منى » قائلة :
- لقد حولناها نحن عن فرنسيتها ، لقد أضحت مصرية ، من تحت الربع أيضاً .
- وتساءل سليمان :
- إذن لماذا تركينه يقول هذا ؟!
- ولماذا أناقشه !! والرد لم يصل بعد من الجامعة .. ألا يحتمل أن يكون بالرفض .. فأوفر على نفسى المناقشة .
- وضحك سليمان وقال :
- معك حق .. وفرى مناقشتك إلى حينها .
- وقبل أن ينهض عن المائدة ، وهو يلتقط آخر « زبينة » في طبق الخشاف قالت

— ٦٧ —

له « منى » :

— لاتنس أن تطلب « عصام » فى الفرسان ؟!

وضحك سليمان قائلا :

— « تانى » !

وتفرّق الجميع من حول المائدة .. ما عدا « نادية » فقد جلست مطرقة

شاردة .. وقول سليمان يدور فى رأسها :

— « فارق بين أن تجده فى وطنها وأن تجده خارجه .. إنها فوق كل اعتبار

مصرية .. ولا بد أن تتزوج مصرياً » .

وتخيلت المصرى .. الطويل القامة ، العريض المنكبين الأسمر الوجه .

وأحست أنها لا تستطيع أن تحيا فى أرض .. لا تطوّها قدماه .

(٧)

بصيص يخبو .. !

بعد بضعة أسابيع ، كان الدكتور « مدحت » يغادر غرفة العمليات بمستشفى الدمرداش .. عقب إحدى عمليات الجراحة ، أو « الجزارة » كما كان زملاؤه يسمونها .

واستلقى « مدحت » على « فوتيل » في حجرة مكتبه .. مرخياً أعصابه بعد ثلاث ساعات من الشد والتوتر .. وكانت الحجرة الصغيرة تطل على الشارع الجانبى للمستشفى المقاطع لشارع رمسيس .. وبين آونة وأخرى كانت تقطع استرخاءته أصوات الباعة وزوار المرضى الذين تدفقت زرافاتهم متجهة إلى الباب الخلفى للمستشفى .

— وأغمض « مدحت » عينيه برهة ليفتحهما على أقدام تطرق أرض الغرفة وصفير يعلو فى أرجائها .. وصوت زميله « جاد الله » يصيح به :

— صح النوم .

ونظر إليه « مدحت » فى غيظ ، وتساءل :

— ماذا تريد ؟ ..

— الساعة قد قاربت الثانية !

— لتقارب الثانية ! أو الثالثة :

— والذين ينتظروننا فى النادى !

— من هم ؟

— لا تحاول أن تدعى ضعف الذاكرة كالعباقرة .

— لست عبقرى .. ولا أذكر شيئاً من هذيانك .

— هذيانى أنا .. ألم تدع « ميرفت » وخالتها للغداء معنا اليوم فى

— ٦٩ —

النادى .. ثم نشاهد حفلة السباحة ؟!

— اليوم ؟!

— أجل .. اليوم

وضغط « مدحت » جبينه يا بهامه وسبابته كأنه يحاؤل طرد الإعياء الذى حل به .. وأجاب فى غير اكتراث :

— أظننى دعوتهما .. لكننى ...

— ماذا؟!

— متعب .. لماذا لاتصحبهما أنت ؟!

— أنا لا أدعو أحداً للغداء .. إني أستطيع أن أصحبهما فقط لحفلة السباحة .

— سأدفع لك حساب الغداء .

— معقول .. لولا أنى أعرف أنهما يريدانك أنت .. أو على الأقل .. واحدة منهما .

واعتدل « مدحت » فى مقعده وقال فى لهجة جادة :

— اسمع يا جادالله .. إني لا أريد أن أعيب بأحد أو أخدع أحداً ..

— ومن قال إنك تعيب أو تخدع !.

— أنت تعرف أنها من أسرة طيبة .. وتعرف أن صلتى بأسرتها نشأت بعد أن

أجريت لأمرها عملية المراقبة ، وأجريت لها عملية الأعور .

— وماذا فى ذلك ؟!

— وتعرف أيضاً أن ثمة استلطافاً نشأ بينى وبينها .

— الحمد لله .. لقد اعترفت أنت بنفسك .

— ولكنه لم يكن من جانبى أكثر من استلطاف .

— يكفى هذا .

— ولكنه كان .. من جانبها .. مشروع حب .. ومن جانب الأسرة ..

مشروع زواج .

— وَلَمْ لَا !!

— لأنى لا أريد الزواج .

— يا غبى .. ترفس النعمة بقدمك .. ترفض ثلاثمائة فدان وعماريتين وأبوها يستطيع أن ينفعلك فى مستقبلك .. إنه قد يصبح فى أى وقت عميد كلية مدير جامعة أو وزير صحة !

— لا يهمنى أبوها .

— ومع ذلك فالفتاة نفسها ليس بها عيب .. وأنت نفسك قلت ! تستلطفها فلماذا تترك الفرصة تفلت منك !؟

— لأنى أكره أن أقيد نفسى .. أنت تعرف أنى أمضى ثلاثة أرباع يومى فى المستشفى .

— ومن أجل هذا يجب أن تجد ما ينقذك من هذا الهوس الذى تعيش فيه .. حياتك أضحت عملية سرطان مستمرة . ولا أحد يسأل عنك أو يسمع منك إلا بضعة « الغلابة » الذين تمزق أجسامهم وتتركهم أنصاف آدميين . ولكنهم أحياء .

— حياة مزعجة .. أنا أفضل الموت على حياة بلا مرىء أو معدة .
— أنت مغفل .

— وأنت مجنون .. لماذا لا تريح نفسك .. وتريح المرضى .. وتفعل كما أفعل
— لأنى جراح .. ولست محتالا .

— يا أخى .. هناك جراحون كثيرون مثلك .. ولكنهم لا يفعلون ما تفعل الجراحة تقول لك .. افتح . وانظر .. ولا تقول لك .. افتح ، ومزق .
— اسمع .. أنا لا أريد أن أناقشك .. أنت إنسان جاهل .. وتحيد الابه والمعاملة أكثر مما تحيد الطب

— كل الناس عندك جهلة !!

— فعلا .

— إذن قم بنا يا حضرة العالم .. لأن الموعد أوشك أن يحل ، ولا داعي لأن تدع الفتاة تنتظرك .

— قلت لك إلى متى .. ثلاث ساعات .. وأنا واقف على قدمي .

— ستستريح في النادي .. ستتغدى .. وتشاهد حفلة السباحة .. وتلعب لك دورين « كروكيه » ثم تواصل جهادك في تمزيق أعضاء الخلق وتقطيع أوصالهم .. قم بنا .

وجذبه « جاد الله » من ذراعه .. فنهض « مدحت » من المقعد وذهب إلى استراحة الأطباء فغسل وجهه وأبدل ملابسه ثم هبط إلى حديقة المستشفى، وبعد لحظات كانت عربة « جاد الله » تنهب بهما الأرض في شارع الخليفة المأمون متجهة إلى النادي .

وكانت الساعة قد بلغت الثانية والنصف عندما وصل الصديقان إلى النادي وأقبلا على مدخله الرئيسى ليجدا المقاعد قد رصت حول حوض السباحة ، ومنصة الحكام قد أعدت ، والميكروفون قد علا صوته منادياً أحد المتسابقين أو الحكام .

وتلفت « جاد الله » حوله ثم اتجه إلى القاعة الشتوية المواجهة للمدخل يتبعه « مدحت » ثم دلف إلى الطرقة الزجاجية المحيطة بالنافورة .. فوجد الضيفتين تنتظران على إحدى الموائد المجاورة للحاجز الزجاجي ، ولم يدهن هناك فارق كبير في السن بين الفتاة والخالة ، وبدت الفتاة — في جملتها — لطيفة .. أهم ما يميزها عينا سوداوان واسعتان ، وفم انفرجت شفتاه عن ضب خفيف ، وشعر أميل إلى الخشونة ، والخالة تقريباً من نفس النوع مع امتلاء في الجسد ، واكتناز في الصدر والردفين .

وجلس الجميع حول المنضدة ، وواجه « مدحت » النافذة الزجاجية المتسعة . وقد انفرجت عن النافورة وسط الحوض المستدير وقد أحاطت بها أوراق الكلة الخضراء ، وزهورها النفيرية البيضاء ، وانبسط حولها بساط من النجيل تظله

— ٧٢ —

الكافورة العجوز الضخمة الجذع الممتدة الفروع .
وأقبل « الجرسون » ، فانشغل « مدحت » بانتقاء أصناف الغذاء ، ويد
شاحباً ، شارداً الذهن ، ساهم البصر .
وحاولت « ميرفت » أن تستدعيه من شروده قائلة :
— الحر اليوم شديد .

وأطرق « مدحت » وهو ينظر إلى أوراق شجر الكافور التي تهتز في خفا
كأنما تحركها أنفاس هادئة وأجاب في اقتضاب :
— أجل .

— ألا تنوى السفر إلى الإسكندرية ؟
— لم أقرر بعد .

— ومتى تنوى أن تقرر ؟

— المسألة تتوقف على المرضى والعمليات .

وتدخل « جاد الله » ضاحكاً :

— لن تسافر في سنتك .. لأن المرضى لا يشفون .. والعمليات لا تنتهى .
وقالت « الخالة » وهى تتناول بطرف الشوكة قطعة من « الخس » الذى
امتلأ به طبق السلطة :

— سنسافر إن شاء الله خلال أسبوع .. لقد كنا ننوى السفر إلى أوروبا ..
لكن الرجل الكبير غير رأيه واكتفى بسيدى بشر .
وقالت ميرفت :

— وماله سيدى بشر !! إني أحبه جداً .

— لأنك لم ترى غيره .

ووجهت « الخالة » قولها إلى مدحت :

— لقد سألتى الدكتور عبد الفتاح أن ندعوك للشاي غداً
ورفع « مدحت » عينيها المحمقتين في أوراق الكافور .

— ٧٣ —

ونظر إليها متسائلاً :

— غداً ؟!

— أجل .

— ولكنى .. سأكون مشغولاً .

— بعملية ؟!

— بعمليتين .

— أجلهما .

— العمليات لا تنتظر .

— من أجل مريضتك العزيزة ميرفت .

وبدا من قولها كأن « ميرفت » تعنى لديه شيئاً .. ونظرت إليه « ميرفت »
نظرة راجية مستعطفة .

وأجاب مدحت قائلاً :

— ولماذا الإصرار على أن يكون الشاى غداً .. لماذا لا يكون بعد غد مثلاً ؟!

وأسرعت ميرفت تقول :

— ليكن .. كما تريد .

وأردفت « الخالة » مؤكدة :

— اتفقنا ؟!

وهز مدحت رأسه موافقاً .

وقالت ميرفت :

— بعد غد أفضل .. ستكون أختى « نائلة » أتت مع زوجها من السويس ..

وستكون فرصة أعرفكما ببعض .

ولم يعلق « مدحت » .. ونظرت إليه « ميرفت » نظرة لم تستطع أن تخفى ما

بها من إعجاب .. وأحس « مدحت » بشيء من الارتباك .

واستمرت الفتاة تقول ببساطة :

— لا تدري كيف يقدرك أبى .. وكيف يمتدحك .. إن الأسرة كلها باتت تعرفك .. بعد أن أنقذت حياتى .
 وضحك « مدحت » مجيئاً :
 — أنا لم أنقذ حياتك .. إن المسألة لا تستدعى كل هذا . إنها عملية أعور .. لا راحت .. ولا جت .
 — ولكن لو لم تنقذنى فى الوقت المناسب لا نفجر وأودى بحياتى .
 — من قال لك هذا ؟
 — كلهم .
 — لا تصدقهم ، ولا تصدق أن أحداً يموت بالأعور أبداً .
 — أنت دائماً تحاول إنكار ذاتك !
 — بالعكس .: إنهم يقولون عنى إلى مغرور كبير .
 — لست أرى ذلك .
 — وتدخل « جاد الله » قائلاً :
 — أنت مخطئة .. إنه أكبر مغرور رأيت فى حياتى .
 وأقبل « الجرسون » بصحاف الطعام .. وانهمك الجميع فى تناوله .
 ودار خلال الطعام حديث عن الجو ، والإسكندرية ، والعمليات . وروى « جاد الله » بضع نكات ، وتبادلت ميرفت مع مدحت بعض كلمات عن المستقبل والبيت والأولاد .. وأجس « مدحت » كأن الفتاة تطرق باب حياته .. وتستأذن فى الدخول .. وأحس بباطنه نوعاً من التردد .. فلا هو يصدها .. ولا هو يفتح لها بابه ويأذن بالدخول .
 إنه يجد فيها شيئاً لطيفاً .. ولكنه ليس لطيفاً بالقدر الذى يقيد به نفسه .. وبرضخ له مستقبله .. وحياته .. وحرته ..
 والزواج فى نظره .. عملية كبرى .. لا يجد فى نفسه القدرة عليها .. فهو يعدها دائماً عن دائرة تفكيره .

وانتهى الطعام .. وقاموا متجهين إلى حمام السباحة لمشاهدة الحفلة .
 وكان الحمام قد احتشد بالنظارة ، والحكام والمتسابقين ، والأجساد المرنة
 الملفوفة تتواثب في الماء .. والراذا يتطاير .. والميكروفون يضج .. والصغير
 يتعالى .. وصيحات التشجيع تنطلق من جانب لآخر .
 ودلف « مدحت » وأصحابه بين الصفوف واستقروا على بضعة مقاعد من
 ناحية حجرة الملابس تكاد تكون ملاصقة لحافة الحوض .
 وفي مواجهته أسفل المظلة الكبيرة .. استقرت « نادية » وقد أحاطت بها
 « شلة » النادى من الصبيان والفتيات .. وبدأ « صبرى » ملاصقاً
 لها .

ولم يكد « صبرى » يلمح الدكتور « مدحت » حتى هتف :
 — الله !! الدكتور مدحت . ومعه ميرفت .
 وبلا وعى سألت نادية :
 — ميرفت مين ؟

— بنت الدكتور عبد الحميد .. أستاذ الأشعة في الكلية .
 وصمت برهة .. ثم قال كأنما يحدث نفسه :
 — إذن فالإشاعة لا بد أن تكون صحيحة .
 ومرة أخرى سألت « نادية » .. بلا تردد ولا تفكير :
 — أية إشاعة ؟
 — إشاعة خطبتهما .. لقد ترددت الإشاعة منذ أن أجرى لها عملية الأعور ..
 وكنت أنا أول من استتجها .. منذ أن لاحظنا جميعاً اهتمامه الزائد بها .
 وأحسنت « نادية » كأن عبأ يطبق على أنفاسها .. ويقبض بقسوة على
 جوفها .

وبدا لها كأن جانباً جميلاً مريحاً .. يوشك أن يُقْتَلَع من حياتها .
 لم تكن تطمع في شيء محدود .. وإنما كانت تبصر أملاً هادياً مضيئاً يلوح لها

من بعد .. كما تلوح أضواء المرفأ للسفينة الضالة .
هذا البصيص البعيد .. الغامض .. من الأمل .. قد أخذ يبهت ، ويهتز
ويتراقص .. لقد عصفت به كلمات الفتى التى ألقاها فى غير اكتراث .. حتى
كادت تخمده .

ونظرت « نادية » إلى الفتاة نظرة فاحصة .. واستمر « صبرى » يردد فى
لهجته غير المكترثة :

— تبدو فتاة طيبة وأبوها رجل عظيم .. إنه من خير أساتذتنا .. لا شك أنه
سيكون زوجاً موقفاً .. بالنسبة له ، وإن كنت أشك فى أنه هو نفسه سيكون
زوجاً مريحاً .

وتساءلت « نادية » فى حدة .. كأنما الأمر يعينها هى .. وكأنها هى التى
توشك أن تكون زوجته :

— وله ؟

— لأنه .. عبقرى .. والعباقرة .. لا يكونون أزواجاً صالحين .. إنه أحياناً
يبدو جافاً خشن الطبع ، وأنا لا أتصور زوجة تحتل أن زوجها يفضل عملياته
ومرضاه عليها .

— ومن أدراك أنه سيفضلها عليها ؟!

— لأنه الآن يفضلها على نفسه وعلى راحته .

وتعالى « الميكروفون » .. فغطى على صوتيهما ، وأخذ يردد أسماء المتسابقين
فى المسابقة التالية :

« تتابع » مائة متر سباحة حرة .. تيم الهليليدو .. إبراهيم خورشيد ..
صوفى تادرس .. إميلييا .. محمود نازى .. تيم الأهللى ..

واستمر « الميكروفون » يردد الأسماء .. حتى وصل إلى فريق النادى ،
وسمعت « نادية » اسم عصام ، وتلاه اسمان .. ثم سمعت « الميكروفون »
يردد .. « منى فاضل » ستنزول بدل « نونا عبد السميع » لمرضها .

— ٧٧ —

وقفزت « نادية » من مقعدها .. قائلة :
— غير معقول .

واندفعت « نادية » من بين الصفوف و « صبرى » يتبعها متسائلا :
— ما هذا غير المعقول ؟

— غير معقول أن تنزل المسابقة .. إنها لا تستطيع .. إنها مجنونة .. ستجهد نفسها فى المسابقة ، والدكتور حرّم عليها الإجهاد .

وأسرعت « نادية » تخوض بين الصفوف لكي تصل إلى « منى » التى وقفت فى صف المتسابقين الذين استعد أولهم على حافة الحمام .

ووصلت « نادية » إلى قرب حجرة الملابس .. عندما وجدت الطريق قد سد أمامها ، واضطرت أن تسير على الحافة الضيقة التى بين حرف الحمام والصف الأول من المقاعد .. وحتى هذه الحافة قد سدت أمامها .. بمنضدة وضعت عليها الجوائز .

وبدا على « نادية » الضيق وهى تحاول أن تصل إلى « منى » لتمنعها من النزول .

وحانت منها التفاتة إلى يسارها فأبصرت « مدحت » يجلس على قيد خطوة منها .

وأحست بارتباك شديد وهى تجد نفسها على مثل هذا القرب منه ، وزادها الارتباك. ضيقاً حتى أحست بأنها توشك على البكاء .

ونظر إليها « مدحت » .. وأحس بأنها فى مأزق وأنها تريد الانتقال إلى الناحية الأخرى .

ودون أن ينطق بكلمة واحدة .. مد ذراعيه فحملها من ذراعيها كما يحمل الطفل ورفعها فوق المنضدة وهبط بها إلى الناحية الأخرى ثم جلس .. معاوداً النظر إلى المتسابقين والحديث مع « ميرفت » وكأنه لم يفعل شيئاً .

ووقفت برهة .. مشدوهة حيرى .. كأنها بها مس .

— ٧٨ —

وعندما آفاقت اندفعت لتصل إلى « منى » .. وكانت « منى » قد قفزت
في الماء ، وأخذت تضرب بيديها بعنف حتى تحافظ على مكان فريقها
في التتابع .

(٨)

اعرفها جيداً

كانت « منى » ترقد في فراشها ، وقد جلست « نادية » بجوارها تقلب إحدى المجلات .. وكانت الشمس قد أوشكت على المغيب ، وبشائر نسيمات الليل الرطبة قد أخذت تهب من النافذة البحرية المواجهة للفراش فتحرك ستائرهما « الأورجاندى » برفق وخفة ، وعبق الياسمين المتسلقة على حافة الشرفة الشرقية المجاورة للفراش يتصاعد إلى الغرفة في موجات خفيفة متباعدة .

ومدت « منى » يدها فسحبت المجلة من حجر « نادية » قائلة :

— أتقرئين .. أم تسرحين ؟

— الاثنين .

— أراهن أنك لم تقرئي حرفاً واحداً .

ورفعت « منى » المجلة من أمامها وأردفت قائلة :

— سأسألك في الصفحة التي كنت تقرئينها .

وضحكت « نادية » وردت قائلة :

— لا داعي للاختبار .. فتكسبين الرهان .

— قيم كنت سارحة ؟

— في أشياء كثيرة .

— أولها ؟

— سفرنا إلى « جرينوبل » .. الذي يصير أبى عليه .

— وماذا يضايقك فيه ؟!

— هل تظنين من السهل أن نترك بيتنا وأهلنا ووطننا ، ونرحل كالمهاجرين ..

إلى غير رجعة .. أو إلى رجعة بغير موعد ؟

— من قال هذا ؟!

— أبى .

— كلام .. هو نفسه لن يحتمل أكثر من بضعة سنوات . نكون قد أنهينا فيها دراستنا في « جرينوبل » .. ويكون سخطه قد خف .. وأصابه الملل من فرنسا وعأوده الحنين إلى مصر .

— وإذا استمر العيش هناك ؟!

— غير معقول .

— هيبه فعل ؟!

— عن نفسي .. سأترككم عند ما أمل .. وأعود بأول باخرة ؛ للزواج من « عصام » .. إذا لم يحضر هو قبل ذلك ليختطفني ويعود بي .. لقد صمم على ذلك .. عند ما أنبأته بعزم أبى على السفر بنا إلى فرنسا .

وأطرقت « نادية » وبدا الحزن على وجهها ، واستطردت « منى » قائلة :
— لست أدري لماذا تحملين هم السفر هكذا .. إننا سنغير حياتنا إلى أفضل .. هل تذكرين بضعة الأشهر .. التي أمضيناها في « جاب » .. الفسحة والمرح ، وتسلق الجبل .. بين المياه المنحدرة .. والأشجار ؟! هل تذكرين البحيرة في أعلى الجبل ، والبرقوق .. الذي كنا نقطعه من الشجر !! كانت حياتنا لذيدة .

— إلى حين ، وليس إلى الأبد .

— ومن قال إلى الأبد ؟

— إذا كنت قد وجدت من يجيء ليختطفك ويعود بك ، فإنني لم أجد .

— لماذا ؟ أيعجز عن اختطافك .. وقد رفعك كالريشة فوق المنضدة ؟

واحمر وجه « نادية » وأحست بقلبها يدق في عنف .. وضحكت « منى »

قائلة :

— لماذا يحمر وجهك هكذا كالأطفال ؟ ولماذا تحاولين إخفاء مشاعرك

عنى .. إني أذكر لك كل نافهة عن حركاتي وسكناتي ، ومشاعري وأحزاني ..
وأنت تكتمين عني كل شيء في صدرك وفي رأسك .. ألا تثقين بي ؟!
وهزت « نادية » رأسها في اضطراب وحيرة وأجابت :
— ليست مسألة ثقة .. إني لأجد هناك ما يستحق الذكر .
— كيف ؟ .. ألا تحببته ؟!

وصمتت « نادية » برهة وبدا عليها الشroud ، وأردفت « منى » تساءل في
إصرار :

— لماذا لا تحبين ؟ .. إنك تحببته !
وترددت « نادية » وهزت رأسها في حيرة ثم قالت :
— ليست المسألة بمثل هذه السهولة .
— كيف ؟!

— لا أستطيع ببساطة أن أجمع بضع أحاسيس في نفسي . لأحدد لها هذه
الصفة .. لست أجزؤ على هذا .
— تجرئين ؟ .. أحتاج اعترافك بالحب .. مع كل هذا الذي تحسبته .. إلى
جراحة !!

— طبعاً يحتاج .. لأنني لا أعرف ماهو الحب .. حتى أقول إن ما بي حب ..
هل يمكن أن نسمى .. أوها منا .. وتمنياتنا .. التي نخترنها في صدورنا ، ونفعل
بها وحدنا .. دون أن يحس بها أحد .. حباً ؟
— أنت معقدة يا نادية .. تتحدثين عن المسألة .. كأنها درس طبيعة .. أو
تمرين هندسة .. لماذا لا تحبين ببساطة : أتحببته أم لا تحببته ؟!
— لست أدري .

— قولي لي .. كل ما تحسبن به ، وسأخبرك أنا .. هل تحبين رؤيته ؟ إياك أن
تقولي لا .. فأنا أعرف جيداً شغفك الفجائي .. بمشاهدة « الكروكيه » .
وضحكت « نادية » وهزت رأسها بالموافقة .. واستمرت « منى » تقول :
(نادية — ج ١)

— ٨٢ —

- هل تفكرين فيه ؟!
- أجل .
- كثيراً !!؟
- كلما سنحت لي فرصة للتفكير .
- هل يدخل بينك وبين صفحات الكتب .. أعني هل يمنعك من المذاكرة ؟
- ليس دائماً .
- كان يجب أن يمنعك .. فأنا عندما أكون في حالة حب لا أستطيع المذاكرة .. ما علينا .. أنت إنسانة غير طبيعية .. تحبين المذاكرة أكثر من اللازم . لنكمل الأسئلة : هل تعجبين بكل شيء فيه ؟!
- تقريباً .
- ما معنى تقريباً !! هل هناك أشياء لا تعجبك فيه ؟.
- لا .. إنما لست أعرف كل شيء فيه .
- هل هناك أشخاص .. يعجبونك أكثر منه ؟!
- لا أعتقد .
- أجيبني إجابة قاطعة ، لا أو نعم ؟
- وضحكت « نادية » وأجابت قائلة :
- لا ...
- وصمتت « منى » برهة وبدا عليها التفكير ثم قالت فجأة :
- هل تتمنين أن يقبلك ؟!
- وبدا الارتباك على « نادية » واحمر وجهها وأجابت كأنها تنفي عن نفسها جرماً :
- بالطبع لا ...
- وبسطت « منى » كفيها وهزّت رأسها في أسف قائلة :
- واحد من اثنين .. إما أنك لا تحبينه .. أو أنك مغفلة ، والأخير هو الأرجح .

— ٨٣ —

- إلى لم أفكر قط في أمر كهذا . لم يخطر لي ببال . إن ..
- إذن فأنت كما قلت .. مغفلة .. إلى أمتنى لو يقبلنى عصام ، ولولا بقية من خجل لم أستطع التخلص منها بعد .. لقبيلته أنا .. على أية حال ، إذا وضعنا تغفيلك جانبا ، وجمعنا كل إجاباتك فإننا نستطيع أن نصل إلى نتيجة حاسمة .. مؤكدة .. وهى أنك تحببته !؟
- وشردت « نادية » بعينها من الشرفة وعبرت ببصرها أوراق الياasmine الرقيقة المهتزة إلى السماء التى أخذت زرقتها تبهت وخيوط الغسق الرمادية تنتشر خلالها .
- وقبل أن تعاود « منى » حديثها قالت « نادية » فى صوت خافت وكأنا تحدث نفسها :
- أنا أكره أن يكون الأمر كذلك .
- لماذا !؟
- وددت لو أنه مجرد إعجاب بشخصيته .. وخلقه . ونبوغه ، وأغلب ظنى أن هذا هو حقيقة ما بى .
- ولماذا تكرهين أن تحببه !؟
- ليس هناك مبرر لهذا ، ولا نتيجة له .
- مبرر ..؟ ونتيجة ..؟ أتظنينه موضوع إنشاء ؟
- لماذا أحبه !؟
- لأنك تحببته .
- إنه لا يحس بى ، ولا يحتمل أن يحس بى .
- كيف .. ألم يحملك بين ذراعيه .. فى حفلة السباحة ؟
- حملنى كأنى طفلة أعجز عن العبور إلى الجانب الآخر .
- هذا ذنبك أنت .
- كيف !؟

— لأنك تتركين هذه الضفيرة السخيفة .. تتدلى حتى تصل إلى ردفك ، وتلبسين « الفائلة » التي تمسح صدرك ، وهذا الفستان الذى يديك كطفلة فى مدرسة .. لماذا تصرّين على هذا المظهر الصبياني السخيف ؟! لماذا لا تفعلين مثلى ؟! إن لك صدرا أكبر من صدري ، ورفدين أملأ من ردفى .

— ما هذه السخافة ؟! هل تظنين الحب يكتسب بإبراز الصدر والأرداف ؟! — لست أقصد هذا ، وإنما فقط أريد أن تظهرى كفتاة يمكن أن تلفت نظر رجل .. لا كصبية تضع فى غمار صبية النادى الذين يتحتم عليهم الرحيل عندما يندق جرس الساعة ، والذى يمنعهم « هنرى » من دخول القاعة . أفهمت ؟! — لست أريد أن أجذب نظر أحد .

— انفلقى .. ذنبك على جنبك .. ستظلين .. تحمقين فيه كالبلهاء وهو يلعب « الكروكيه » حتى تلطشه منك « معزة » « الكروكيه » .

ولم تطف بذهن « نادية » معزة « الكروكيه » ولكن طافت بذهنها « ميرفت » وقد جلست بجوار « مدحت » أمام حوض السباحة ، وتذكرت قول « صبرى » إنها شبه مخطوبة له .. وإنها تعتبر بالنسبة إليه « زواجة رابحة » ، وأحست مرة ثانية بذلك العبء الثقيل الذى يطبق على أنفاسها ويعتصر جوفها ، وبدأ لها بصيص الأمل يهتز ويترنح ويلفظ آخر أنفاسه .

وبلا وعى أطلقت زفرة حارة وقالت فى شيء من المرارة :

— لا فائدة .. إن الإنسان لا يخشى على ضياع ما لا يملك .

— ولماذا لا يحاول أن يملكه ؟!

— لأنه ملك لغيره .

— لست أفهم !!

— إنه خاطب .

— من أنباك ؟

— صبرى ..

- ومن تكون !؟
- الفتاة التي كانت تجلس معه في حفلة السباحة .
- وهفت « منى » في دهشة :
- هذه المعزة الكرتاء .. خطيبته ؟
- كل الناس عندك معيز !؟
- هذه حقيقة . معزة . ألم ترى ضيها وشعرها الأكرت ؟
- إنها فتاة لطيفة .
- ألم أقل لك إنك مغفلة .. هذه الفتاة تفلح في « لطفه » وأنت قاعدة تحملقين فيه في بله .. بضيفرتك ، و « مريلتك » وصدرتك المبطط .
- ولم تجب « نادية » وعادت تحملق ببصرها من خلال الشرفة في فراغ السماء الذي تكاثفت الخيوط الرمادية في نسيجه الأزرق .
- واستطردت « منى » تقول في حماس :
- لو كنت مكانك لما احتمل منى أكثر من بضعة أسابيع .
- التفتت « نادية » إليها وتساءلت في لهجة يائسة ساخرة :
- ماذا كنت ترينك فاعلة !؟
- أولا .. أكف عن الجلوس خارج الملعب واستراق النظر إليه ، وأنزل إلى الملعب لألعب معه .
- بلا معرفة !!
- هل تظنين كل الذين يلعبون في ملعب « الكروكيه » لهم معرفة .. لأنهم ينزلون للعب ثم يتعارفون ويصبحون أصدقاء .. فلماذا لا تفعلين مثلهم ؟
- وتساءلت « نادية » في لهجة حاملة :
- ألعب معه « الكروكيه » ؟
- ولم لا ؟ جرّى هذه الضفيرة ، والبسى البلوزة الديكولتيه اللبنى ، والجيب الرمادى الضيق ، وانزلى الملعب .

ومضت فترة صمت .. تخيلت « نادية » خلالها نفسها وقد وقفت بجوار « مدحت » في ملعب الكروكيه ، وسارا معاً يتحدثان بلا كلفة ، وهى تضرب الكرة وهو يعجب بضرباتنا .

وفجأة هتفت بمنى فى خذلان شديد :
— ولكنى لا أعرف لعب الكروكيه ؟

وصاحت « منى » فى دهشة :
— يا غبية .. إن ثلاثة أرباع الذين يلعبون الكروكيه لا يعرفون كيف يلعبونه . بل ثلاثة أرباع الذين يعملون أى شىء لا يعرفون كيف يعملونه .. انزلى والعبي ، ولا تخشى شيئاً .

ومضت فترة سرحان بنادية ، قبل أن تسألها « منى » قائلة :
— ها .. اتفقنا ؟

وأطلقت « نادية » زفرة يأس أخرى وأجابت :
— أنا لا أحب هذه الطريقة ، ولا أجيدها ؟
— إية طريقة ؟!

— طريقة لفت الأنظار .. ووضع الخطط .. ومطاردة الغير .. ثم .. هبى أنى أفلحت فى أن ألعب معه الكروكيه .. هل تظنين كل الذين يلعبون معه إجباه ؟
— أنت وشانك .. ابقى عاجزة كما أنت .. هل تستطيعين أن تخبربنى كيف استطاعت هذه « المعزة » الكرتاء .. أن تجذبه إليها ، وتجعله يخطبها ؟
— لقد عمل لها عملية أعور .

وأجابت « منى » ضاحكة :
— انتهينا .. دعيه يعمل لك عملية أعور أنت الأخرى ، ما دام لا يطب إلا بالعمليات .

وردت عليها نادية مؤنية :
— أنت عابثة .

- وأجابت « منى » فى لهجة جادة :
- أبدأ والله .. لو كنت مكانك .. لما تركته يفلت منى أبداً ، ولو أدى الأمر .. إلى العملية .
- وصمتت « منى » برهة كأنها تفكر فى شىء ثم هتفت فى ثقة :
- هل تحبين أن أحضره لك الآن ؟!
- كيف ؟!
- هاى التليفون وابحثى عن رقمه فى الدليل .
- ماذا ستفعلن ؟
- ألسنت مريضة ؟..
- أجل .
- سأستدعيه للكشف علىّ .
- أجنونة أنت ؟! إن لك طبيباً يعالجك ، وما حدث لك من تعب نتيجة إجهاد نفسك فى السباحة ، وقد سبق أن حذرك من هذا .. فبأى حجة تطلبين طبيباً آخر ، وجراحاً .. للكشف عليك ؟!
- سأقول لى شعرت بمغص شديد .. وخفت أن تكون نوبة أعور .. فطلبت الدكتور مدحت الذى نعرفه فى النادي .
- ولماذا لم تنتظر حتى يحضر بابا أو ماما ؟!
- أنتظر حتى ينفجر الأعور ؟! هاى التليفون بسرعة ، قبل أن يحضر أحد .
- وعندما يأتى ولا يجد بك شيئاً ؟!
- أقول إن المغص انتهى .. أهى مشكلة !
- وإذا وجد بك شيئاً ، وأصر على حملك إلى المستشفى ، وأجرى لك عملية ، وأطار نصف ما فى جوفك كما يفعل بمرضاه ؟
- وصمتت « منى » وبدأ عليها الوجوم وقالت :
- هذه هى المشكلة .

ولكنها ما لبثت أن أردفت ضاحكة :

— إذا نوى هذه النية السوداء .. فتذهبين أنت .. أأست تحيينه ؟! ألا تضحين في سبيله . بأعور ؟! إنها ستكون فرصة العمر .. تصوّري نفسك راقدة ، وهو يجس نبضك ، ويكشف على صدرك ، ويضع كفه على جبينك ، وتصورى أنه يروح ويغدو حولك ، ولا عمل له إلا الغيار لك والسؤال عنك والاطمئنان عليك .. ماذا تريدن أكثر من ذلك ؟! ستغادرين المستشفى وفي إصبعك خاتم الخطوبة ، ورحم الله « المعزة » الكرتاء .

وصمتت لحظة تمالكت خلالها أنفاسها ثم أردفت في نصيحة الأم :

— أسرعى بالتليفون .. قبل أن يطير منا .

ولم تتحرك « نادية » وإنما تحرك ذهنها .. ليتخيل كل ما قالته « منى » .. هي راقدة .. في فراشها ، ومدحت يقف بجوارها .. يمسك رسغها ويتحسس جبينها بكفه الكبيرة .

أى رقدة .. يمكن أن تكون أحب إليها من هذا ؟! لماذا لا تمرض ، حتى تستمتع بجواره ، وتمسك يده ؟! إنها أحست أنها تطير عندما رفعها بين يديه !. لماذا يدخل عليها الله بنعمة المرض .. الذى يهين لها السبيل إليه .

وصاحت بها منى :

— لماذا لا تتحركين ؟! إذا لم تأتى بالتليفون سأنهض أنا لآتى به .

وأفاقت « نادية » من أحلامها ، ونظرت إلى « منى » وقالت في لهجة خليط من اليأس والمرارة .. والسكينة والقناعة :

— لا يا منى ، كوفى عاقلة ، ليس هذا مجال عبث وهو .

وهزت « منى » رأسها وقالت :

— أنا مالى . لقد حاولت أن أمنحك الفرصة ، فرفضتها .

— نحن لا نستطيع أن نتيح لأنفسنا فرصاً .. إنها متاح لنا ، ونحن نقتنصها .

— أنت عاجزة ؟!

— ربما .
وسمع وقع أقدام مزدوجة في الخارج .. استطاعت كل منهما أن تميز فيها أقدام
بيهما وأمهما .
ودخل الاثنان الحجرة ، وجلست الأم بجوار « منى » على الفراش . وضمتها
ليها في حنو ، وجلس « الأب » على مقعد بجوار « التسريحة » قائلاً :
— كيف حالك يا منى ؟
— الحمد لله .
— نريدك أن تشدّي حيلك . حتى لا تؤخرينا عن السفر !
وسألت نادية :
— هل تقرر السفر ؟
وأجاب الأب :
— أجل .. لقد وصل الرد من « جرينوبل » بالموافقة وسنسافر في أقرب
فرصة .. غداً سأعد جوازات السفر .. وأسأل عن مواعيد البواخر .
ومن جديد .. عادت « نادية » تحس بذلك الشيء الثقيل يطبق على أنفاسها
ويعتصر جوفها .. وبدت لها الذبالة التي كانت تتراقص .. قد خبت تماماً .
لم يعد هناك من أمل ..
حتى تلك الوسائل العابثة الصبيانية التي اقترحتها « منى » ، لم يعد إليها من
سبيل .
إن « منى » تأمل في العودة .. لأن هناك من ينتظرها .. ويعدها لو تأخرت
أن يذهب ليختطفها .
أما هي فستذهب .. بلا أمل .. لأن أحداً .. لا يحس بها .. ولا يأبه لها ..
ولا يعدها باختطاف .. أو حتى بتذكر ..

(٩)

ملك للغير ...

كان اليوم الأخير « لمنى ... ونادية » قبل الرحيل عن مصر ، وكانت التوءمتان قد وصلتا إلى النادى قبيل الظهر .. لتلقيا تحية وداع على الأصدقاء . وانطلقت « منى » إلى الحمام حيث تراحم الأعضاء .. وتعالى صياحهم حتى جعلوا من الحمام ما يشبه السوق ، وبدت « نادية » تسير الهوينى بين ممرات الملاعب الخضراء في الحديقة الكبيرة .

كانت تحس بحزن مشوب باليأس والخوف ، ولم يكن بنفسها أى إحساس بفرحة السفر التى تحس بها « منى » .

كان ألم الفرقة أغلب على نفسها ، وكانت تمنع البصر فى كل ما حولها .. كأنما تحاول تثبيتته فى ذهنها .. حتى لا تبهت الفرقة صورته ، ولا يححو البعد ذكراه .

كانت تحب كل هذه الأشياء التى تحيط بها .. هذه الأرض الخضراء ، ومجموعات الزهور ، والأشجار المتناثرة هنا وهناك ، و « الكشك » الأخضر الذى أحاطت به أدوات « الجمزيم » ، وبوابات الشجر التى تسلقت عليها أعواد الجهنمية ، والشرفات المستديرة العريضة التى تحيط بأبنية النادى ، وملاعب « التنس » التى يعدو حولها صبية « التنس » لجمع الكرات ، وملاعب الاسكواش بلاعبها الذين تلاحقت أنفاسهم وتصيب عرقهم ، و برج الحمام القائم فى الطريق إلى جانب الجراج الكبير .. بحمامه الأبيض الذى يقف على حافة حوض المياه الصغير ليرتشف الماء فى سلام وسكينة .

كانت تحس بكل هذا ، كأنه قطعة من طفولتها .. ومن صباها .

وكانت تحب كل من به .. عماله .. وموظفيه .. وأعضاءه .. كانوا يمثلون في نظرها كل مظاهر الحياة .. من كد وجد ، ومرح واستمتاع ، وإحساس بالحياة .

ووسط كل هذه الأشياء والمخلوقات .. يبرز مخلوق بذاته .. يمنح كل ما حوله قيمة ، ويجعل له معنى .

كان العبقري .. الطويل القامة ، العريض المنكبين .. بلامحه الجادة ، ووجهه الأسمر ، وعينه الخضراوين .. يقف وسط كل هذا .. ليخلع عليه هالة من الإشراق ، ويغمره في فيض من الضوء .

ومرّت بملعب « الكروكيه » ، وأشار لها بالتحية الصبى الأسمر الجالس تحت الشمسية .. فردّت عليه التحية مبتسمة في رقة .

وافتر ثغر الصبى عن ابتسامة كشفت عن أسنانه الفلجاء ، وقال وهو يقذف إحدى الكرات في الهواء ويلقفها :

— ألا تنوين أن تلعبى معنا يا ست نادية ؟

وأجابت « نادية » ضاحكة :

— أنا لا أعرف كيف ألعبها .

— إنها سهلة جدًا .. ستعلمينها وحدك بمجرد النزول إلى الملعب .. ألا تلعبين

اليوم ؟

وهزّت « نادية » رأسها وأجابت وهى تستمر في سيرها المتمهل :

— إن شاء الله .

وبرز العبقري مرة أخرى .. في ذهنها .. وقد انحنى يضرب الكرة في دقة

وإحكام .

وتذكرت قول منى : « لماذا تكتفين بالفرجة !! انزلى والعبى ولا تخشى

شيئاً » !

أجل كان يجب أن تنزل للعب .. تسلم عليه ، وتحدث إليه ، وتناول

معه الشاى .

لَمْ لا ! كل الفتيات يفعلن هذا !

أشياء كثيرة كان يمكن أن تفعلها معه ، لو لم تكتف بمجرد الجلوس والفرجة .

كان يمكن أن تمرض ، ويعودها .

كان يمكن أن تشاغله فى التلفون .

ولكن لا.. هذا عبث لا تطبيقه ، ولا تقدر عليه .

ثم .. ما الفائدة فى كل هذا الآن ، والرحيل قد أوشك والفرقة قد تأكدت ؟!

وأى رحيل !! وأية فرقة !!

رحيل بلا عودة ، وفرقة بلا أمل فى لقاء .

إن « منى » تجزم بأنهم عائدون ، ولكن « منى » شديدة التفاؤل ، وهى تجد

فى حياتها أملاً واضحاً يبعثها على هذا التفاؤل ، ويجعل عودتهم مؤكدة .

أما هى ، فماذا يدفعها إلى التفاؤل ؟

أى أمل يمكن أن يحتم عليها ضرورة العودة ؟

حتى الأمل الوهمى .. الذى كان يجعل أمنيته محتملة التحقيق ، قد تبدد ..

بعد أن عرفت أنه غير خال ، وأن مخلوقة أخرى قد تأبطت ذراعه وانطلقت به

كى تشاركه حياته .

وعادت أحاسيس اليأس والحزن تنسرب إلى أعماقها ، ولم يخرجها من

أوهامها الحزينة إلا هتاف بلغ سمعها نادياً :

— هالو نادية .

وتلفتت حولها ، فأبصرت صبرى بقامته الطويلة النحيلة ومنظاره السميك

وشعره القصير الجعد .

وأجابته فى رفق :

— هالو صبرى .

— مالك تسيرين وحدك .. أين منى ؟

— أظنها ذهبت إلى الحمام .
— كان يجب أن أعرف ذلك .. فقد أبصرت عصام منذ لحظة يسرع إلى هناك .

ومضت فترة صمت .. كان صبرى يسترق البصر إلى وجهها ، وهو يسير الهوينى بجوارها ، وقد أحس في قرارته بشعور ممتع .. وبدت له الفرصة سانحة لأن يقول أشياء كثيرة .. طالما حدث بها نفسه ، وهمّ بضع مرات أن ينطق ، ولكنه لم يعرف من أين يبدأ .

ووصل إلى الشرفة المستديرة التي تتوسطها الكافورة وبدت لهما النافورة تحيط بها زهور الكلة .. وتمهل صبرى قائلاً :

— أتودين الاستمرار في السير .. أم تفضلين الجلوس ؟

ورنت « نادية » ببصرها إلى الشرفة الخالية ذات السور المنخفض الذى غرست فيه الجارونيا الحمراء .. ثم تجاوزت الشرفة إلى سور الياسمين الذى يفصل الحمام عن الملاعب .. وترامى إلى مسامعها الصخب والضجيج ، وأحست أنها أميل إلى الوحدة والهدوء ، ولم تجد فى « صبرى » الرفيق المقلق الذى يمكن أن يزعج وحدتها أو يقطع الهدوء من حولها ، ووجدت فى عينيه شبه رجاء بالجلوس .. فهزت رأسها قائلة :

— لنجلس هنا قليلاً .. إذا شئت .

وصعد الاثنان إلى الشرفة المتسعة الخالية ، وجلسا حول المنضدة فى ظلال الكافورة العجوز .

ومرة أخرى ساد الصمت ، وتذكرت « نادية » حديث « صبرى » عن « مدحت » ، ووصفه له بالجزّار العبقري ، وتمنت لو عاود الحديث عنه .. فقص عنه كل ما يعرفه .. لماذا لا تسأله عنه ؟

حتى السؤال لا تجرؤ عليه ؟

وانطلق « صبرى » .. ليقول شيئاً يقطع به الصمت . ويغطفى

به عجزه عن الإفصاح بما يدور في خلدته ويرaud أحلامه :

— لقد انتهيت من الامتحان بالأمس فقط .

— حقيقة؟! وماذا فعلت ؟

— لا بأس ، ولو أنها ضربت لكمة في الجراحة .. كدت أضيع .. لولا ستر من الله ، ومن الدكتور مدحت .

وتيقظت حواس « نادية » وتحول تراخيها في الإنصات إلى اهتمام شديد ، ورفعت إليه عينها كأنما تطلب منه الشرح .

ولما صمت « صبرى » عادت تستحثة قائلة :

— ماذا فعل الدكتور مدحت ؟

— لقد عاوننى كثيراً .. إنه يبدو شرساً قاسياً ، وكل الطلبة كانوا يخشون الوقوع في يديه ، ولكنى لم أجد بين المتحنيين من هو أرق منه إحساساً وأشد عطفاً .

— ولكنه يبدو شديد التعجهم .

— لأنها قشرة زائفة يكسو بها رفته وفرط إحساسه .. هل تصديق أننى ضبطته مرة في حجرته ، وهو يغنى .

وضحكت « نادية » .. وأحست بمتعة فى السماع عنه .. وتساءلت فى دهشة كأنما سمعت نبأ عجيباً :

— يغنى ! .. ماذا كان يقول ؟

— أظن الجنود .. أو الكرنك .. أو شيئاً من هذا القبيل .

— وكيف يقضى أوقاته فى المستشفى ؟

وأحست « نادية » كأنما قد كشفت بسؤالها عن نفسها ، فأسرعت تقول :

— أعنى كيف تقضون أوقاتكم فى المستشفى ؟

— بين فصول الدراسة .. وغرف العمليات ، وغناير المرضى .. تصوورى .

أنى منذ يومين حضرت عملية مع الدكتور رمزى ، وأنى

— ٩٥ —

وأحست « نادية » أن الحديث قد بدأ يضل الطريق ، وأنه قد ابتعد عن محوره الرئيسي .. فانتظرت حتى سنحت لحظة وقف ، وقالت وكأنها تسأل سؤالاً عابراً :

— وخطيبة الدكتور مدحت .. كيف حالها ؟

— خطيبته !؟

— أجل .. الفتاة التي كانت تجلس معه في حفلة السباحة .

— ميرفت .. بنت الدكتور عبد الفتاح ؟

— أظنها هي .. ألم تقل لي إنها « خطيبته » .

— قلت إن هناك مشروعاً في خطبة ، وإنها زوجة « لقطه » بالنسبة له .

— وماذا تم في المشروع ؟

— لا أحد يعلم .. إننا لا نراه إلا في العمليات .. أوفى النادي ، وقد تكون المسألة مجرد إشاعة .

وأحست « نادية » بشيء من الراحة ، وبدأ لها بصيص الأمل ، وقد عاد يتراقص .

ولكن ما فائدته ؟ اشتعل أم خبا ، وهي على وشك الرحيل !

إنه مجرد إحساس مريح .. أليس لها الحق فيه ؟ أم يتحتم عليها أن ترحل وملء

نفسها الأسى واليأس ؟

وعاود « صبرى » محاولاته في طرق باب الحديث الذي لم يفلح بعد في

طرقه .

قال متسائلاً :

— منى تسافرون إلى الإسكندرية ؟

ورفعت « نادية » حاجبها في دهشة وقالت :

— إسكندرية ؟! . سنسافر غداً إلى فرنسا .

وفغر « صبرى » فاه ، وصاح في يأس :

— غداً !! غداً !!

— أجل .. غداً .

وأطرق « صبرى » برأسه فى حزن ، وتمتم قائلاً :

— هذه إذن زيارة وداع ؟!

— أجل ، وداع .. لكل الأعزاء الذين عرفتهم .

وأحس « صبرى » بشىء من العزاء ، وهو يحس أن الوداع قد شمله ، وأنه من بين الأعزاء .

وتساءل فى صوت خافت :

— وأنا بينهم ؟

— طبعاً

— ومتى تعودين ؟

— من يدرى .

— بعد انتهاء الدراسة ؟

— ربما .

وران السكون .. إلا من حفيف أوراق الكافورة وزقزقة عصفور يتواثب

على فروعها .

وشرد « صبرى » ببصره فى الملاعب الخضراء المترامية وعاد يقول كأنما يحدث

نفسه :

— وربما لا تعودين ؟!

وشردت « نادية » ببصرها فى نفس الناحية ، ولكن فى اتجاه أكثر تحديداً ..

وبدا لها الشبح الطويل ، العريض المنكبين ، يتحرك فى أحد ملاعب

« الكروكيه » ، وأجابت على سؤال « صبرى » فى لهجة ملؤها الأسى :

— أجل ..

وعاد « صبرى » يقول فى همس المحدث نفسه :

— حتى هذا البصيص من الأمل .. الذى كنا نحوم حوله .. ولا نعرف كيف نقربه .. قد نأت به ربح الفرقة إلى غير رجعة .

وبدت الكلمات التى نطق بها « صبرى » غير غريبة على نفسها ، ورفعت إليه عينها تستعيد ما قال .

وهز « صبرى » رأسه وقال فى لهجته الخافتة :

— هذه أشياء أظنك لم تعرفها بعد .

وهمت « نادية » بأن تقول : « بل أعرفها جيداً » .. عندما أبصرت

« منى » تندفع من باب الممر المؤدى إلى القاعة الشتوية وقد تبعها « عصام » بثيابه الكاكية .

وصاحت بهما « منى » ضاحكة :

— ما شاء الله .. أنما هنا فى مناجاة حارة .. وأنا أبحث عنك فى كل أنحاء النادي !!

وقال عصام معقّباً :

— مناجاة مع صبرى ؟. غير معقول .. قيس ينطق ؟

ورفعت « منى » يديها مطبقة فى وضع مناجاة .. وهتفت قائلة :

— بريك هل ضمنت إليك ليلى .. قبيل الصبح ؟

وقاطعتها « نادية » ناهرة :

— منى .. كفى عبثاً .

ثم نظرت إلى الساعة فوجدتها جاوزت الثانية عشرة .. فتساءلت :

— متى تنوين العودة إلى البيت ؟!

— مازال الوقت مبكراً . ماذا يغريك بالعودة إلى البيت ؟!

— أشياء كثيرة لا بد أن نهيها .

— مثل ؟!

— حزم بقية الحقائق .

— لقد حزمت كل حقايبى .

- ومساعدة ماما في إعداد الأثاث .
- ولماذا نعدّه .. مادمنّا سنتركه لعمتي كي تؤجره ؟
- على أية حال لا بد لنا من العودة للغداء .
- مازال الوقت مبكراً على الغداء .. ثم لماذا لا نتغدى في النادي !.. إن غصام .. يدعونا للغداء !.
- وعقب غصام مؤكداً :
- أجل .. ونذهب بعد ذلك إلى سينما ريثولي .
- فكرة مدهشة .
- ونظرت إليهما « نادبة » في دهشة :
- ما هذا الهذيان !.. غداء .. وسينما !! أنت تعرفين أننا سنبحر غداً .. في الظهر ، وأنا سنظل طول اليوم والغد في الاستعداد للسفر ، وأن عمّتك وبقيّة أقاربنا سيتناولون الغداء معنا اليوم .. وبعد هذا تقولين نتغدى في النادي ونذهب إلى السينما ؟..
- دائماً تعقدينها .
- وأنت دائماً ..
- وقاطعها غصام قائلاً :
- انتهينا لا داعي للعراك . سنجلس سوياً حتى الغداء . ثم أوصلكما إلى البيت .. وغداً سأذهب إلى الإسكندرية لتوديعكما على الباخرة .. ما رأيك .
- ياصبرى .. هل تأتى معي ؟
- ونظر صبرى إلى نادبة قائلاً :
- إذا لم أضيّق نادبة .
- وردت نادبة :
- بالعكس .. إنى أحب أن أراكما دائماً .. وسأشعر أن هناك من يهتم بنا .. عند الرحيل .

— ٩٩ —

ومرة أخرى .. شرد بصرها في الملاعب الخضر .. وبدا لها الشبح الطويل
لعريض المنكبين .. وكأنه يلوح لها بيده مبتسما ويهتف بها :
— سنأنتظرك دائماً .
حمداً لله .. على أوهامنا .. إنها لا تحرمنا بقية أمل .. وبقية عزاء ..

— ١٠٠ —

(١٠)

قبيل الرحيل ...

كانت الساعة قد بلغت الثانية عند ما أقبلت « نادية ومنى » من النادى .
وكان البيت يبدو أجرد عارياً .. وقد طويت سجاجيده ، ونزعت فرشته ،
وبدت « الأم » فى حركة دائبة بين الحقائق و « الدولاب » .
وعلى مقربة منها جلست العمة « زكية » .. وقد شردت كل منهما فى وادى
أفكارها .. لا يجمع بينهما إلا بضع كلمات تتبادلانها بين آونة وأخرى .
وقالت « العمة » وهى تنظر إلى الحقائق التى كدست بها الملابس
والمفروشات :

- ما هذا كله ؟ ما الداعى لأخذ كل هذه الأشياء ؟
- ونظرت إليها « لورا » وأجابت وهى منهكة فى ترتيب « البطانيات » :
- وما الداعى لتركها ؟
- لأجل السكان الذين سيستأجرون البيت .
- لا بد أن تكون معهم أعطيهم .
- إذا كنت تخشين عليها ، فلماذا لا تغلقين عليها أحد الدواليب بدل أن
تحمّلوا أنفسكم كل هذه الأثقال .. إنكم تبدوون كأنكم راحلون بلا عودة !
- جائز .
- فال الله .. ولا فالك .. لماذا تقولين هذا ؟
- لست أنا التى تقول .. إنه أخوك .
- لاتصدقيه .. هل تظنين أنه يستطيع أن يهجر أهله وبلده إلى الأبد ؟
- لماذا لاتسألينه ؟

— ١٠١ —

— هل تحبين له أنت هذا !
 — أنا أحب له كل ما يحب .. وعلى استعداد لأن أفعل كل ما يريد ، وأن أتبعه إلى حيث يشاء .
 — وأنا لا أظن سفر كم إلا انفعال غضب .. وما أظنكم إلا عائدتين عما قريب بمجرد أن تهدأ حالته ، وتستقر نفسه .
 — أرجو هذا .. أنا شخصياً لا يهمنى البقاء هنا أو هناك ما دمت مع زوجي وأولادى .
 ودخلت « نادية ومنى » .. وأقبلت نادية على عمتها تصافحها .. فضممتها « العمة » وقبلتها قائلة :
 — أهلاً نادية .: ستوحشنا يا حبيبتى !
 ومرت « منى » بالعمة فهزت رأسها قائلة :
 — « بونجور تنت » .
 وهزت « العمة » رأسها ومصمصت بشفرتها .. مستنكرة طريقة « منى » فى التحية .
 ونظرت الأم إلى « منى » مؤنبة وقالت :
 — سلمى على عمتك .
 — سلمت .
 — سلمى جيداً .. كما سلمت نادية .
 ومدت « منى » يدها بنفور إلى عمتها ، فهزتها « العمة » قائلة :
 — نحن لسنا قدر المقام يا ست منى .. أنت لا تحبيننا لأنا بلدى !
 — أنا لا أحب .. من لا يحبنى .
 — ومن قال إنى لا أحبك ؟
 — لقد قلت عنى إننى بنت « فاسدة » .
 وضربت « العمة » يدها على صدرها قائلة فى دهشة :

— ١٠٢ —

— أنا؟! أنا قلت هذا عنك ؟!

— وقلت أيضاً .. إن تربية أمي أفسدتني .. وقلت « اكفى القدر على قمها » .

— أنا قلت هذا !! أعدم عيني .

والتفتت الأم إلى « منى » ناهرة وصاحت بها :

— ما هذا الذى تهرفين .. أجنونة أنت ؟!

وأجابت « منى » فى إصرار :

— وأنا مالى .. إن كانت قد قالت هذا .

وهزت « منى » كتفها واتجهت إلى حجرتها .. واستمرت الأم تقول معتذرة :

— لا يضايقك كلامها .. إنها بنت مجنونة .. إنها ... وقاطعتها العمة قائلة :

— لا تحدثيني عنها .. إني أعرفها جيداً .. إن نادية هى بنتنا .

وردت نادية معلقة :

— إن منى طيبة يا عمى .. إنها تحبك ، ولكن لا تستطيع التحكم فى لسانها .

وتبعت نادية منى إلى حجرتها وهى تقول لها مؤنبه :

— ما هذه السخافة .. التى قلتها !

وأدارت « منى » وجهها إلى « نادية » ونظرت إليها متحدية وهى تقول :

— ألم تقولى لى أنت ذلك ؟!

— طبعاً قلته .. ولكنى لم أتوقع قط أن تقوليه لها .

— ولماذا ؟! لماذا لا أواجهها به حتى تكف عنه . إنى لا أحبها لأنها مخلوقة مرئية .. إنها تكره أمي .. رغم ما تحاول إظهاره لها من المودة .

— يا منى .. نحن لا نستطيع أن نواجه كل الناس بمساوئهم ، يجب أن نتغاضى عنها .. وإلا تحتم علينا أن نعيش بمعزل من الناس .

— انتهينا .. سنسافر من الغد ، ولن نرى لها وجهاً .. لعدة سنوات .. هذه

إحدى محاسن السفر .

وجذبت « منى » حقيبتها من أسفل الفراش .. وأخذت تقلب فيها قائلة :
— لقد نسيت مضرب « الاسكواش » فى النادى .

— لا يهم .

— وكذلك « الشورت » !

— « الشورت » مغسول ومنشور فى شرفة حجرة السفرة .

— ما زال هناك الكثير من ملابسى لم أضعه ، والحقيبة قد أتخمت وهى تكاد
لا تغلق .

— لا تحملى هماً .. إنى أستطيع أن آخذها فى حقيبتى .. فما زال بها متسع .

وجلست « منى » على حافة الفراش وقد واجهت مرآة التسيريحة، وأخذت
تنظر إلى وجهها وجسدها وهى تخلع حذاءها بطرف أصابع قدميها .

ووضعت يدها عند معدتها وهى تحس بقرصة الجوع .. وصاحت بأمرها فى
الحجرة الأخرى :

— الأكل يا ماما .. جعانة .

ووصل صوت أمها من الحجرة الأخرى يجيب :

— اصبرى قليلا حتى يحضر عمك سليمان وأبوك وسنأكل كلنا سوياً .

وعادت منى تتساءل :

— ماذا سنأكل ؟

— بطاطس .

— فقط ؟

— اذهبى إلى المطبخ . وانظرى بعينيك ما به . وكفى عن هذا الصياح .

ووثبت « منى » من مكانها على حافة الفراش واندفعت إلى المطبخ ووقفت

على بابه ترقب « فاطمة » وهى تقطع الطماطم فى طبق السلطة وتساءلت قائلة :

— ماذا صنعت لنا يا « دادة » ؟

— ١٠٤ —

— صينية بطاطس فى القرن .

— وماذا أيضاً ؟!

— صينية مكرونة بالبشامل .

— فى القرن ؟

— أجل .

— وماذا أيضاً ؟

— صينية قرع عسلى .

— ما شاء الله .. هذا يعنى أنى لن أتغدى اليوم .. إلى أكره أكل القرن .

وأشارت « فاطمة » إلى القرن البوتاجاز وقد أغلق على الصينيات الثلاث

وقالت معتذرة :

— أنت تعرفين أن عمتك وعمك سيتناولان الغداء معنا اليوم ، وتعرفين أيضاً

أننا حتى الحادية عشرة كنا مشغولين فى ترتيب الحقائق .. ولم يكن هناك

ما ينقذنا سوى الصينيات ..

— تقصدين .. لم يكن هناك ما ينقذكم سوى « التصلقة .. والكرونة » !

— الصينيات ستعجبك يا ست منى .. وخصوصاً صينية المكرونة .. لقد

صنعتها ...

— وحياتك أهلك « لا تنفلسفى » ... مهما عملت بها فأنى لا أحبها ، ولا

آكلها .. ماذا عندك أستطيع أن آكله ؟

— عندى خ .. أقل لك قطعتين ؟

— أجل .

— حالا . سأوقد « وابو الجاز » حتى يسعبنى .. لا بركة لى إلا أنت ياست

منى .

وكانت نادية قد وصلت إلى باب المطبخ ووقفت وراء منى تسأل فاطمة :

— من أخذ السويتز البنى من حقبتى يا « دادة » ؟

— ١٠٥ —

— أخذته ماما وأعطته « لأم محمد » لتغسله .

— وأين أم محمد ؟

— في الحجرة الصغيرة تغسل بدل بابا .

وتركت « نادية » باب المطبخ وسارت في الدهليز حتى وصلت إلى باب الغرفة الصغيرة التي تعودت الأسرة تناول الطعام والحلوى فيها .

وكانت « أم محمد الغسالة » قد وقفت أمام المنضدة ووضعت أمامها طشتاً صغيراً امتلأ بالبنزين ووضعت فيه إحدى بدل الأب ، وأخذت تدعك يافتها بكفها .

ووضعت نادية أصبعها على طاقتي أنفها وهتفت بأمر محمد :

— أف .. أنا أكره رائحة البنزين هذه .. لماذا لم ترسلوها إلى « المكوجي »

لينظفها ؟

— لقد عادت من عنده كما هي .

— لماذا لم ترسلوها إلى التتلى ؟

— ليس هناك وقت يا ست نادية .. وقد طلبت منى « ماما » أن أغسلها ، وسأنتهى حالا .

— لقد ملأت رائحة الحجرة بنزيناً .. وسأكل الآن ..

— حالا يا ست نادية .. دقيقة واحدة .

— لست أدري لماذا لم تغسلها في الحمام ؟

— الحمام مليء بالطشوش والغسيل المعصور .

وأمسكت « أم محمد » بالجاكطة ورفعتها بين يديها وأخذت في عصرها .

وأقبلت الخادم الصغيرة « عطيات » تحمل الشوكات والسكاكين وأخذت

ترصها على المنضدة قائلة :

— عن إذنك يا أم محمد .. نريد أن نجهز الترابيزة .

— سأعصر البنطلون ، وأرفع الطشت حالا .

— ١٠٦ —

وعادت «عطيات» إلى المطبخ لتأق بالأطباق، وبدت آثار أقدامها واضحة في الأرض بعد أن ابتلت بقطرات البنزين المتساقطة حول المنضدة من رذاذ عصر الجاكتة.

وتساءلت نادية عن السويتر قائلة :

— هل غسلت السويتر البنى ؟

— من الصبح .

— وأين هو ؟

— منشور في الشرفة .. ولا بد أنه قد جف .. لأن الشمس تضرب فيها من

الصباح .

ودخلت « نادية » إلى الشرفة لإحضار السويتر .. عندما عادت « عطيات » لتحمل الأطباق لرصها على المائدة .

وكانت « منى » قد عادت إلى حجرتها بعد أن أعلنت ثورتها على الصينيات ، وبعد أن اطمأنت إلى وعد « فاطمة » بعمل المخ .. وبعد أن رأت فعلا المخ بعينها .

ووقفت « فاطمة » أمام وابور الجاز تدفع فيه بالكباس . حتى أخرج بعض الجاز من ثقبه ، وأمسكت بعلبة الكيريت وأخرجت منها عوداً فأوقدته ، ثم أشعلت به الموقد ، وقذفت به إلى الأرض .

ولم تحس « الدادة » بما فعلت ، ولم تبصر عود الثقاب ، وهو يقع على آثار أقدام الخادمة الصغيرة الملوثة بالبنزين ، ولم تشعر بالنار تسرى وراءها كالأفعوان .. منتبهة خطي عطيات .

لم يشعر أحد بذلك التسلل الخاطف ، ولكنهم أحسوا بالحجرة الصغيرة التي كانت تسطع بها الشمس ، والتي امتلأ جوها ببخار البنزين قد هبت بها النيران فجأة في شدة وعنف . حتى بدت الحجرة كأنها كرة ملتهبة تتأجج بالسعير .

وصرخت « أم محمد » صرخة حادة واندفعت من باب الحجرة .. وقد أحست بالنار تهب حولها .. فار تطلعت بالخادمة الصغيرة التي كانت تقف بباب

الحجارة مذهولة .. وتعثرت الاثنان على الأرض وعلا صراخهما .
واندفعت « نادية » من الشرفة على صوت الصراخ لتواجه اللهب ..
وفوجئت أمامها بسد من النيران يحول بينها وبين الصرخات المتعالية من وراء
النيران .

ولم تستطع « نادية » أن تدرك حقيقة ما حدث .. وبدأ لها البيت كله ، وقد
تأججت به النيران .. واندفعت بلا وعى تحاول اجتياز النيران لتتقذ أمها
وأختها .. وهى تصيح كالجنونية :
— ماما .. منى .. ماما .. منى .

ولفحها الوهج .. وأحست بلسعته تلهب وجهها وذراعها فتراجعت
متأوهة .. ولكنها عادت مرة أخرى تحاول اجتياز النيران ، وهى تسمع صرخة
أمها الحادة ، وهى تصيح : — نادية ؟
واندفعت إلى النيران تحاول اجتيازها .. ومرة أخرى ، لفتح وجهها الوهج
وأحست بلسعته أكثر حرقة ، وأشد إيلاماً .

ومن وراء حاجز النيران سمعت صوت أمها تصيح بها فى هفة .
— نادية .. أين أنت ؟

وأجابت نادية فى صوت مختنق :

— ماذا حدث لكم ؟ أين منى ؟

— لا شيء يا نادية نحن بخير .

— أنى أريد أن آتى إليكم .

— قلت لك إننا بخير .. اقفرى أنت من الشرفة .

وترددت نادية برهة ، ولكنها أحست بلهب من النيران يلفحها .. وبدأ لها
كأن جسدها قد احترق ، وسمعت صوت « منى » يصيح بها من وراء النيران :
— اقفرى يا نادية من الشرفة .. سألف لآخذك .. نحن جميعاً بخير .. إن النار
لم تتعد الحجرة الصغيرة .

واستدارت « نادية » مندفعة إلى الشرفة ، لتجد « منى » تصيح بها ، وقد وقفت بجوار أمها المشدوهة وعمتها المولولة :
— اقفزى يا نادية .

وأحست باللهيب يطاردها .. وبالدخان يكاد يخنقها .. وأبصرت وجوه الجيران ، وقد أطلت من النوافذ تصيح بها « اقفزى » ووجدت البوابين والخدم والبقال ، وقد اندفعوا إلى الحديقة يمدون أيديهم إليها .
ولم تكن المسافة بعيدة .. فلم تتردد « نادية » فى القفز ولا سيما بعد أن أبصرت أمها وأختها أمامها بعيدتين عن النيران . وبعد أن أحست بلفح اللهيب يلسع جسدها .

وهبطت « نادية » إلى الأرض بعد أن تمزق ثوبها الذى اشتبك فى حديد الشرفة .. وتلقفتها أمها بين أحضانها .. وخرت معها راکعة إلى الأرض ، وقد انهارت أعصابها ووهنت قواها .. وأخذت تتحسس وجهها وجسدها .. وهى تنن هامسة فى بكاء مخنق : — نادية .. حبيبتي ماذا بك ؟
وضمت « نادية » أمها إليها ودموعها تنهمر من مآقيها :
— لا شيء .. إني سليمة .. لقد خفت عليكم .. خفت أن يكون الحريق قد أصابكم .

وركعت « منى » بجوارها وأخذت ترقبها فى جزع ، وقد احتقن وجهها وعنقها واحترقت أطراف شعرها ومؤخر ضفيريها ، ومدت ساقها اليمنى ، وقد بدت قدمها متورمة من التواء أصابها عند سقوطها إلى الأرض وهتفت لها مشفقة :

— لماذا اقتربت من النيران يا نادية ؟ لماذا لم تقفزى من الشرفة بمجرد أن أحسست بها ؟

وأجابت نادية باكية : — ظننت أن النيران قد أتت على البيت كله .. وخشيت عليكما أنت وأمي .. الحمد لله .. الحمد لله .

وكان الناس قد ازدحموا حول البيت واندفعوا إلى الحديقة ، وكانت النار قد استشرت وسرت من الحجرة إلى المطبخ والمر .. وكانت ألسنة اللهب قد تعالت من النوافذ وأعمدت الدخان الأسود قد أخذت تتصاعد فوق البيت . وسمع رنين جرس المطافىء ، وأعقبه رنين عربة الإسعاف وأخذ الضجيج يتعالى والازدحام يشتد .

وفي تلك اللحظة أقبلت عربة البكباشى « سليمان » التى أفسح سائقها الطريق لعربتى المطافىء والإسعاف دون أن يدرى سليمان أين تقصد العربتان .. ولم يخطر بباله عندما رأى بواذر الزحام فى أول الشارع أن شيئاً حدث فى بيت أخيه ، ولكنه لم يكذب طريقه فى الشارع ويبصر أعمدة الدخان المتصاعدة من البيت حتى نددت عنه صرخة دهشة وصاح بالسائق :

— الله .. أسرع .. أسرع .. إن الحريق فى بيت أختى .

وهبط سليمان من العربة .. ليجد رجال الإسعاف يحملون نادية إلى داخل العربة .. فاندفع إليها صائحاً :

— نادية !؟ مالك يا نادية ؟

وأجابت ، وهى تهز رأسها فى استسلام :

— لا شيء .. الحمد لله .. لم يصب منا أحد .

— وأنت .. ماذا بك ؟

— لست أدرى .. أحس أن وجهى مشدود .. ملتهب .

واندفعت « منى » إلى أحضان عمها ، وهى تبكى :

— عمى سليمان .. نادية احترقت .

وربت سليمان على ظهرها :

— نادية لم تحترق .. إنها بخير .

— وكان رجال الإسعاف قد أقبلوا حاملين « أم محمد » التى أصاب الحريق

ساقها .. وتعالى صياحها .

— ١١٠ —

وقبل أن تغلق عربة الإسعاف بابها قفزت إليها منى .. وهى تصيح
بأكية : — نادية .. حبيبتي .

وأقبلت الأم تنسج ، وهى تتعثر ، وأمسك بها سليمان قائلاً :

— تعالى فى عربتي .. سنسير وراءهما .

والتفت إلى أخته زكية قائلاً :

— خذى بالك من البيت .. وعند ما يأتى فاضل أخبريه أننا فى مستشفى

الدمرداش .. لا تهوى عليه الأمر .. الحكاية بسيطة .. وقولى له إن نادية بها
بعض الرضوض .

وجلست الأم بجواره فى العربة .. وقبل أن يتحرك السائق ... صاح سليمان
بأخته :

— خذى بالك من فاضل جيداً .. لا تدعيه يصدى .. أنت تعرفين أنه لا

يحمل صدمات .

وأجابت العمة ، وهى تكفكف دمعها :

— حاضر .. ربنا يستر .

واندفعت عربة « فاضل » وراء عربة الإسعاف ، واندفعت المياه من خرطوم

الحريق إلى باب الشرقة الذى تعالت منه .

(١١)

أمنية مطرودة

اندفعت عربة الإسعاف تشق طريقها يسبقها رنينها المنذر المتواصل ، وعندما وصلت مستشفى « الدمراش » انحرفت يمينا في الشارع الجانبي المفضى إلى باب الاستقبال .. تتبعها عربة « سليمان » الذى بدا عليه الوجوم والشرود ، وهو يربت على كفف الأم .. كلما تعالت أناتها .. قائلا :

— الحمد لله .. ربنا لطف .

وكررت الأم قولها في لكتها الأجنبية :

— الحمد لله .

وصمتت لحظة ، ثم عاودها الأنين ، وهتفت منشجة :

— نادية .. بنتى .

— إنها بخير .. ليس بها غير التواء في قدمها .. والتهاب في وجهها وعنقها .. سيضيع بالمراهم ، أو بالكمدات .. كل شيء سليم إن شاء الله . واجتازت عربة الإسعاف البوابة الحديدية .

ووقفت أمام حجرة استقبال الحوادث ، وهبط عاملا الإسعاف ليحملا « المصابتين » إلى الداخل .. واندفعت « منى وأمها » وسليمان في إثرهما . وأجريت للمصابتين الإسعافات الأولية .. بالمراهم والضمادات ، ورقدت

« نادية » في النقالة المتحركة ، وقد غطت وجهها الأربطة البيض فلم يبدو منه سوى عينيها اللتين بدت منهما نظرة هادئة مستسلمة .

وهمس طبيب الاستقبال الشاب الذى لم يمض على تخرجه أكثر من بضعة

أشهر :

— أعتقد أنه لا بد من إجراء عملية قص لجلد الوجه .

وجزع « سليمان » من قول الطبيب .. إذ لم يخطر بباله .. من منظر وجه « نادية » ، أن الإصابة تستدعى شيئاً من هذا . لقد بدا له أن الوجه مجرد احتقان من الصهد .. لا يحتاج إلى أكثر من مرهم مهدىء .

ورد على الطبيب متسائلاً :

— أترى هذا ضرورياً ؟!

— إذا كنتم حريصين على ألا يشوّه الحريق وجهها .
وأحبس سليمان بشيء يلتوى في باطنه ، وهو يحاول ألا يدع جزعه يبدو على
قسمات وجهه :

— طبعاً .. طبعاً .. لا تريد أن يمسه أى سوء .. افعل كل شيء أرجوك .

— لست أنا الذى سيفعل ، سأسأل لك مَنْ من الجراحين مازال هنا . أظن
الدكتور مدحت لم يغادر المستشفى بعد ، فقد كان مشغولاً فى إحدى
العمليات . انتظر لحظة ، سأسأل لك عنه .

وكان « سليمان » والطبيب يقفان بجوار النافذة بعيداً عن نادية الرافدة فى
استسلام على النقالة ، وكان الحديث يدور بين الاثنين فى صوت خفيض لم يبلغ
مسمع نادية أو منى أو أمهما .

ولم تكن واحدة منهن يدور بخلفها أن المسألة ستحتاج إلى عملية ، وكانت
« الأم » تقف بجوار ابنتها ، وقد أمسكت بيدها وكأنها تنتظر أوامر الطبيب
بالعودة إلى البيت .

واتجه الطبيب إلى التليفون الموضوع على منضدة فى ركن الحجرة ورفع
السماعة قائلاً :

— آلو .. محمود ؟ أنا حلمى .. أعطني الجراحة .

وبعد لحظة أجابه العامل :

— الجراحة معك .

وتسأل الدكتور حلمى قائلاً :

— مَنْ ؟ .. اسمع يا عباس .. من من الأطباء موجود عندك ؟! .. الدكتور مدحت .. في حجرة العمليات . متشكر . ووضع حلمي السماعة والتفت إلى سليمان :

— الدكتور مدحت موجود في غرفة العمليات .. أظننا نستطيع اصطياده بعد انتهائه من العبلية .

وأثارت كلمة العمليات .. في الجو .. نذير الخطر .. وأحست الأم أن ساقها لم تعودا قادرتين على حملها . وتشبثت بقائم النقالة حتى لا تقع وتساءلت « منى » وقد فغرت فاهها وبدا الجزع في عينيها :

— ماذا هناك يا « أنكل » سليمان .. لماذا تريدون الدكتور مدحت ؟! أما « نادية » ، فلم يعلق بذهنها شيء من كل ما قيل ، غير لفظين هما « الدكتور مدحت » !

لقد بدد اسمه سحابة الاستسلام التي خيمت عليها منذ بداية الحادث .. وأحست بأعصابها تشتد .. وحواسها ترهف .. ولم يعد في جفنها ذلك الشاغل الذي كان يطبقهما .

الدكتور مدحت .. موجود .. ؟

أجل .. محتمل جداً . أليس هذا هو مستشفى الدمراش الذي يعمل به !! — إن ذلك لم يطف بذهنها قط ، منذ أن أقبلت على المستشفى . إن الصدمة لم تترك لها فرصة التفكير في هذه الحقيقة .

ومع ذلك فقد برزت أمامها فجأة .. لتنبيهها أنه موجود وأنه يحتمل أن يقبل عليها بين لحظة وأخرى ، ليفعل بها شيئاً ، تحتمه إصابته .

ولم تفكر في طبيعة ذلك الشيء الذي يمكن أن يقوم لها به ، ولا في مدى خطورة الإصابة التي حتمت استدعائه ، وإنما فكرت في الكائن ذاته .. وفي خطورة إقباله عليها .. وتولييه أمرها .

تلك أمنية طالما طافت بذهنها ، فقد كانت طريقها الوحيد إليه .. كانت

بهذوئها وانطوائها وعزلتها .. لا تجد في أحلامها طريقاً إليه سوى المرض ،
والرقاد . كانت لا تجسر على الاقتراب منه إلا كمريضة ، يجس نبضها ..
ويتحسس جبينها ، ويجلس إذا أمكن على طرف فراشها يحادثها في رقة ، وينظر
إليها في حنان .

ورقدتها على النقالة . في حاجة إلى إسعافه .. وهو على بعد خطوات منها ..
وكل من حولها في انتظار معونته .. لقد باتت الأمنية على وشك التحقيق .
ورغم ذلك .. لم تحس لها الفرحة المنتظرة .
— لم يصفق قلبها لا استقباله كما صفق في الأوهام .. لقد كان به شيء يثقله .
لم تكن الصورة مطابقة لما رسمته في أوهامها .. لم يكن هناك من شبه بها ..
من قريب أو بعيد .

كانت تتخيل المكان مليئاً بالزهور ، وكانت تتصور السماء من وراء النافذة
الزجاجية زرقاء صافية ، تتحرك فيها الأوراق الخضرة وتزقزق العصافير ، وكانت
تخيل نفسها على فراش أبيض نظيف وقد أخفت الأغصان البيضاء ساقها وبدأ
نصفها الأعلى في ثوبها « اللبني » وقد أسندت رأسها إلى الوسادة وبدأ وجهها
نظيفاً يحيط به شعرها الذهبي المسدل على كتفها .

والحجرة البيضاء النظيفة قد دخلت إلا منه . وزهور الزنبق والداليا ، وهمساته
الحلوة الحنون .. لا يقطعها سوى صوصوة العصافير المتواثبة خارج النافذة على
الفروع الخضرة .

تلك هي صورة أوهامها ، كما رسمتها في دقة وإتقان ، وكما منحتها من ألوانها
الزاهية وأنطقها بأصواتها السعيدة . وذلك هو الطريق كما خطته أحلامها ، تحيطه
الزهور وتتواثب به العصافير .

فأين هي من واقعها ، الأليم المريض في رقدتها على النقالة .. وأصوات المرضى
الواردين .. على الاستقبال .. وسباب المرضين .. وحدة الأطباء !
أين من زهور أحلامها .. قطع القطن الملوثة بالدماء والميركروكروم التي

كومت في ركن الحجرة وعلاها الذباب ، المتواثب على أسفل الجدران السود .
وهي بقميصها الممزق الملوّث بطين الحديقة .. وهباب الحريق .. ووجهها
الذى غطاه المرهم وحجته الضمادات .
والطنين الذى يملأ رأسها ، والصراخ الذى يدرى فى مسامعها . أتلك هى
صورة أحلامها !!

أذلك هو طريقها .. الذى طالما سلكته إليه فى أوهامها !
ماذا يمكن أن يرى منها ، أكثر من كتلة ضمادات وأتربة وهباب وثياب
ممزقة ؟

وعندما يرفع تلك الضمادات ماذا يمكن أن يواجهه منها .
ابتسامة عذبة تكشف عن أسنانها الحلوة المتضدة البيض وعينين ضاحكتين
تبرقان فى بشرتها الصافية .

وأحست برجفة تسرى فى جسدها .. وهى تسائل نفسها فى جزع :
ماذا يمكن أن يجد فى وجهها ؟

كيف أصبح وجهها بعد الحريق ؟
إنها لم تشعر بأكثر من التهاب شد جلده .. بعد أن لسعه وهج الحريق .
ولكن أيمكن أن تكون اللسعة قد تركته على حاله ؟
لماذا إذن يطلبون عونهُ .. إذا لم يكن أصابها شيء !!
ومرة ثانية أحست بالرجفة تشتد . وأطبقت على أسنانها حتى تمنع صرخة
كادت تنطلق من شفتيها .

أيمكن أن يكون الحريق قد شوّه وجهها .. وأن يكون القدر قد فتح لها الطريق
إلى مدحت لكى تواجهه لأول مرة بوجه مشوّه !

أبعد طول التمنى .. يلقى لها القدر بأمنيته .. فتجزع من مواجهتها ؟
إنها تجزع من أن يقبل عليها مدحت . وهى فى رقدتها تلك ، لينزع
الضمادات .. ويصير وجهها المشوّه المحترق . ليتهم لا يستدعونه .

ليتهم يعيدونها إلى البيت .. لتختبئ في حجرتها .
وأحست « نادية » بعربة النقالة تدفع بها .. وتوالت على ناظرها أسقف
الممرات الضيقة .. وسمعت وقع الأقدام تهرول وراءها . ثم أحست بالعربة ندفع
في المصعد . وبدأ لها المصعد بمجدرانه الحديدية ونافذته ذات القضبان المتقاطعة
أشبه بسجن . وتمنت لو استطاعت أن تصبح بهم متوسلة أن يطلقوا سراحها ..
ويعيدوها إلى البيت .

وسمعت صوت الطبيب يقول للممرض الذى يدفع العربة :
— حجرة ٧٥ .

وعادت العربة تسير بهامرة أخرى في ممرات المستشفى ، حتى توقفت أمام
الحجرة . وفتح الباب ودفع بالعربة إلى داخل الحجرة حتى حاذت الفراش الذى
توسطها ، وأحست « نادية » سليمان ينحنى عليها ثم يرفعها بين ذراعيه ليضعها
على الفراش .

ثم سمعت صوت نشيج أمها .. وأبصرت وجه « منى » ينظر إليها في إشفاق
وجزع وقد ملأت الدموع عينيه .

ولم يروها ذلك الجزع بقدر ما روعها صوت الطبيب وهو يقول لسليمان :
— سأذهب لكى أرى الدكتور مدحت لعله يكون قد انتهى من عملياته .

وسمعت سليمان يرد عليه وهو يتبعه قائلاً :
— آسفين لما سببناه لك من إزعاج .

— لا إزعاج هناك .. كل ما أرجوه أن أعثر لكم على الدكتور مدحت ..
حتى لا يترك الحريق أثراً في وجهها .

وسار الطبيب الصغير في الطرقة متجهاً إلى غرفة العمليات وعاد سليمان إلى
الحجرة وهو يحاول أن يكسو وجهه ابتسامة يمنح بها من حوله بعض الطمأنينة .
ونفضت الأم تواجهه باكية متلهفة :

— ماذا قال ؟!

— لا شيء .. لا داعى لكل هذا الانزعاج . إن المسألة بسيطة جداً .

ونظرت إليه « منى » نظرة متسائلة فى تحد :

— و لماذا يريدون إحضار الدكتور مدحت ؟ إنه جراح .

وهز سليمان كتفيه محاولاً التخفيف من أمر الإصابة قائلاً :

— من المستحسن أن يكشف على جلد الوجه .. من باب الطمأنينة .. إنها

مسألة فى غاية البساطة

ولم يستطع أن يقنع أحداً بكلامه حتى هو نفسه . كان الجزع يملأ القلوب

الأربعة .. الثلاثة المتحركون فى قلق ، والرابعة الراقدة فى استسلام ظاهر ..

وجوفها يغلى بشتى الانفعالات .

لقد كانت أمنيته الدائمة .. أن ترى مدحت .

فباتت أمنيته الوحيدة .. هى ألا تراه .

وكان الدكتور « حلمى » قد بلغ باب حجرة العلميات . وأبصرت الباب

يفتح على مصراعيه .. ومدحت يخرج منه بقامته الطويلة و « مريته » البيضاء ..

وقد بدا وجهه متجهماً . والعرق يتصبب من جبينه وسار بخطوات مشاقلة تنبىء

عما به من كلال وإرهاق .

واقترب منه حلمى محيئاً وهو يقول :

— دكتور مدحت .

— نعم !

وتردد « حلمى » برهة قبل أن يعاود النطق .. كان يحس بحالة « مدحت »

المرهقة وكان يعرف استهتار مدحت بمثل هذه العمليات وضيقه بها . وكان

يعرف ردوده القاسية ، ولكن خوفه على الفتاة الرقيقة الشقراء .. وإشفاقه من أن

يشوّه الحريق وجهها جعله يصبر على الاستنجد به . فقال فى شبه استعطاف :

— هناك حالة عاجلة .

ونظر إليه « مدحت » فى غيظ قائلاً :

— ١١٨ —

— لقد مضت على ثلاث ساعات في غرفة العمليات .. إلى لا أكاد أقف على قدمي .

— إنها حالة مهمة .

— ما هي ؟

— فتاة قد احترق وجهها .. ويخشى أن يشوّه .

ونظر إليه مدحت في غيظ قائلاً :

— ليشوّه يا أخي .. وأنا مالي .

— لا يوجد جراح غيرك في المستشفى .

— لقد عملت أربع عمليات. اذهب إلى أحد العاطلين ، الذين يلعبون

الشطرنج . ليس لدى وقت لمثل هذه العمليات التافهة .

— ولكنك ستنقذ بها حياة إنسانة مسكينة .. يوشك أن يشوّه وجهها .

— أنا لست طبيب تجميل .

— ولكنك تستطيع أن تنقذها .. إنها فتاة صغيرة جميلة وحرام أن يقضى على

مستقبلها .

وتوقف مدحت ونظر إليه وأصداغه تلعب .. وقال في نوع من الاستسلام :

— أين هي ؟

— في حجرة ٧٥ .. سأدلك عليها .

— مالك مهتما بها كل هذا الاهتمام .. أنعرفها ؟

— أبداً .. رأيتها فقط الآن في الاستقبال وأجريت لها الإسعافات الأولية .

وتقدم « حلمي » يسبق « مدحت » إلى الحجرة التي استقرت بها نادية ..

ودفع الباب يفسح له الطريق .

واقترب مدحت من الفراش بملاحه الصارمة التي بدا عليها الإرهاق .. ومد

كفه الضخم فأمسك برسخ نادية يحس نبضها وهو ينظر في ساعة استقرت في

معصمه .

وخيل لنادية أن قلبها قد تعالت دقانه حتى أوشك أن يقفز من بين أضلعها ..
وتلاحقت أنفاسها وأحست أن المرثيات أمامها قد بدأت تطول وتتشابك .
وترك مدحت كفها بغير اكتراث . ولم تصدر من شفثيه لفظة أكثر من
حرفين لم يعرف أحد ماذا يعنى بهما وهما « ها » .
ونظر فى امتعاض إلى كل ما حوله .. وقال حلمى :

— فك الرباط .

وأمسكت « نادية » بحديد الفراش وهى تحس بشيء يثقل جوفها ويسد
حلقها .. وكادت تصبح به :

— لا أريد شيئاً من أحد .. اذهبوا إلى البيت لا تكشفوا وجهى .

وتقدم حلمى ومد يده إلى الضمادات التى غطت وجه نادية .. وهمّ
بفكها .. عندما فتح باب الحجرة فجأة وأطل منه أحد المرضين ثم قال لشخص
يقف خارج الباب :

— أجل .. إنه هنا .

واختفى وجه المريض . واندفع بدله وجه آخر يهتف بمدحت :

— دكتور مدحت .. المريض المصاب بمعدته قد حدث له نزيف .

وبدا الضيق على وجه مدحت . ونفخ نفخة انزعاج من أنفه وقال كأنه
يحدث نفسه :

— « حاجة تقرف » .

وكان حلمى قد توقف عن فك الأربطة .. وانتقلت عينا مدحت بين حلمى
وبين الطارق الجديد وأخيراً قال له :

— سأتى حالا .

وبدا الامتعاض على وجه « حلمى » وبقية الواقفين حول الطبيب .

وقبل أن ينسحب الطارق قال له مدحت :

— اسمع يا عبد الوهاب ابق هنا .. وسأذهب أنا إلى هناك .

— ١٢٠ —

وأشار إلى « نادية » في غير اكتراث قائلا :
— افحص وجهها . وإذا وجدت المسألة تحتاج لعملية قص الجلد .. فقم بعملها .
وتحرك مدحت إلى الخارج بوجهه المتجههم وملاحمه الممتعضة ، وأقبل الدكتور عبد الوهاب على نادية ، وهو يهز رأسه متسائلا :
— أربنى وجهك .. لا تخشى شيئا .
وبدأ حلمي يفك الضمادات .. وأحست نادية .. وهي ترى كنفى مدحت العريضتين تحتفیان وراء الباب .. وشبحه يغيب عن عينها .. كأن حملا ثقيلا قد انزاح عن كاهلها .

— ١٢١ —

(١٢)

يوم أغبر ...

فك الدكتور حلمى الضمادات التى أحاطت بوجه « نادية » وأخذ الدكتور عبد الوهاب يفحصه .. وكان الجلد قد بدا مشدوداً منتفخاً ، والشفتان متورمتان .. وفقايق بيض مليئة بالمياه قد تناثرت فى الخدين والجبين جعلت الجلد يبدو أشبه بورقة السيجارة أو البالون ، وكان لون الوجه محتقناً عدا جزء من جانب العنق أسفل الأذن اليمنى يمتد حتى الذقن ، قد بدا أسود كأنما لفحته هبة دخان .

ولم يطل فحص الدكتور عبد الوهاب حتى هز رأسه قائلاً :
— بسيطة .. أحضروها إلى حجرة العمليات .

وانهارت الأم متهاوية على أحد المقاعد وأجهشت بالبكاء .. ولم تستطع « منى » أن تطيل النظر إلى وجه « نادية » المحتقن المنتفخ ، بل أدارت عنقها ودفنت رأسها بين كفيها تحاول أن تكتم صيحات الجزع وأنات الألم .
وحاول سليمان أن يتناسك بأطراف الشجاعة والجلد فنظر إلى الأم وابنتها وقال ناهراً :

— وبعدين !؟ قلنا لكم إن المسألة بسيطة .. هذا لا يصح .. عيب .
ثم هروا وراء الدكتور عبد الوهاب إلى الممر يسأله فى لهفة :
— ماذا بها دكتور ؟

وتوقف الدكتور عبد الوهاب وأجابه فى لهجة مطمئنة :

— الوجه ليس به ما يبعث على القلق .

— ولكنه يبدو منتفخاً مبقعاً .

— لا يهم .. إن ما به حرق من الدرجة الأولى ، وسأُنزع عنه هذه الجلدة الرقيقة البيضاء التي كَوّنتها الفقائيع حتى تظهر له جلدة جديدة ، وحتى لا تبدو في وجهها رقع مشوهة .

— هل سيؤولها هذا ؟ هل ستبنيها ؟
— أبداً .. لا ضرورة ألّبتة .. لن تتألم كثيراً .

— وهل سيعود وجهها كما كان ؟

— وجهها .. أجل .. أما عنقها فأعتقد أن الحريق لا بد أن يترك به أثراً .. لقد مسته النار مساً مباشراً .. فأصابته بحرق من الدرجة الثانية .. على أية حال .. يجب أن نحمد الله أن النار لم تصبها بحرق من الدرجة الثالثة .. كان يمكن أن يقضى على حياتها .

ولم يستطع سليمان أن يقاوم تجلده وتماسكه ، فعض على شفته السفلى محاولاً كبت دمعة في مقلتيه ، واختلجت طاقتا أنفه وطرفا شفته .. وأحس الطبيب بانفعاله .. فربت على ذراعه وقال مطمئناً :

— لا داعي للجزع .. إن المسألة خفيفة بسيطة .. وسأبذل كل جهدي لكيلا تترك أثراً في وجهها .

— متشكراً دكتور .. متشكراً جداً .

وبعد لحظة كانت النقالة تسير « بنادية » مرة أخرى متجهة إلى حجرة العمليات وقد غطي وجهها بالضمادات .. وبدت عيناها تحمقان في سقف الطرقة .. في استسلام ، وقد ملأ قلبها شعور بالخوف والجزع واليأس ، وهي تحس من حولها نذر الخطر .

واجتازت العربية غرفة العمليات ، وشعور الخوف يزداد بنادية .. وسليمان بجوارها محاولاً أن يتسم في وجهها وهو يقول :

— بسيطة يا نادية .. الدكتور يقول إنها عملية أشبه بقص الأظافر .. إنه يقول إنها عملية تجميلية .. ستخرجين منها بوجه رائع .. سيزول التمش الذي به .

ولم تستطع « نادية » أن تلتقط شيئاً من كلماته المطمئنة .. كانت في حالة من الذهول جعلتها لا تكاد تحس إلا بالمنظر المخيف المحيط بها ، منظر المناضد البيض والمشارط والمقصات والمصاييح المشعة المظلة عليها من السقف كأنها أفواه مكشورة .

ومرة أخرى أزيلت الضمادات عن وجهها ، وداخلها إحساس جديد بالإضافة إلى أحاسيس الجزع والخوف واليأس .. وهو الإحساس بيشاعة منظرها وهى لا تستطيع أن تحرك شفيتها المتورمتين المطبقتين .. وتمنت لو انتهى الطبيب بسرعة من عمله حتى يعيد ستر وجهها وإخفاءه عن العيون المتطلعة .. وكانت تحس برجفة كلما سمعت وقع أقدام مقبلة خشية أن يكون « مدحت » قد انتهى من مريضه وعاد ليجرى لها العملية .

وبدأ الدكتور عبد الوهاب العملية ، ولم تكن بالعملية السهلة .. فقد كانت أشبه بعملية السلخ ، أزال بها طبقة الجلد التى أحرقها الوهج والتى انفصلت عن الجلد فى بعض المواضع فى صورة فقائيع امتلأت المياه .. وانزلت عنها فى مواضع آخر كما ينزلق طبع الأطفال عن ورقته .

واستسلمت « نادية » لمبضع الجراح .. يسرى فى وجهها ، بلا مخدر ، إلا تخدير الصدمة المفاجئة التى تركتها ذاهلة .. مأخوذة مرّوعة .

وانتهت العملية بعد أن أزيل جلد الوجه كله .. وغطى الطبيب الوجه بالمرهم ، وامتد به حتى جزء العنق الذى أصابه اللهب والذى قال عنه إنه يخشى أن يظل به أثر الحريق .. ثم أحاط الوجه والعنق بالضمادات وأصقها بالبلاستيك .

وتنفس الطبيب الصعداء وارتسمت على شفثيه ابتسامة رقيقة وهو ينظر إلى نادية قائلاً :

— انتهينا يا قمورة .

وحاولت « نادية » أن تحرك شفثها لترد شاكرة ، ولكن النطق

— ١٢٤ —

تعذر عليها فربت الطبيب يدها قائلاً :
 — لا داعى للكلام .. ستتناولين الطعام سائلاً بالإبريق لمدة بضعة أيام حتى
 يخف الورم .. ويعود وجهك كما كان.
 وابتسم الطبيب وهو يردف قائلاً :
 — وأجمل مما كان .
 ومرة أخرى عادت النقالة تشق طريقها « بنادية » إلى الحجرة وقد أخذت
 الأم و « منى » تهرولان وراءها فى لهفة وجزع .
 وقال الطبيب لسليمان وهو يغادر غرفة العمليات :
 — اطمئن جداً .. لا شيء سيصيب الوجه كما قلت لك .
 — والعنق ؟!
 — لا أستطيع أن أجزم .. قد تبقى به بعض الآثار .. ولكنها على أية حال
 بعيدة عن الوجه .. الحمد لله أن الوجه لم يصبه الحريق مباشرة .
 — الحمد لله .. وماذا ستفعل لها بعد ذلك ؟
 — لا شيء .. غيار بعد أربعة أيام .. وغيار آخر ، ثم نزيل الضمادات ،
 ويعود الوجه إلى حالته .. على ألا يعرض للشمس والهواء إلا بعد بضعة أسابيع .
 — هل ستبقى هنا هذه المدة ؟
 — أبداً لا ضرورة ألته ، يمكنها أن تعود الآن للبيت إذا أردتم ، وفى موعد
 الغيار أحضرها لى .. أو أذهب إليها أنا .
 — متشكراً دكتور .. لا ضرورة لأن تتعب نفسك . سأحضرها إليك ..
 فى الموعد الذى تحدده .. إنى عاجز عن شكرك .. لست أدري ماذا كنا فعلنا لولا
 وجودك ومروءتك ؟
 وودّع سليمان الطبيب وعاد إلى الغرفة .. فوجد « منى » والأم قد أحاطتا
 « بنادية » وقد خيم عليهما صمت الكآبة ووجوم الحزن والفجعة .. وقد بدت
 « نادية » مغمضة عينيها وكأنها فى سبات أو غيبوبة .

ولم يجد سليمان صعوبة هذه المرة في تكلف الشجاعة والجلد .. فقد كان يحس في نفسه نوعاً من الطمأنينة على « نادية » .. أدخلها في نفسه حديث الطبيب وطمأنته .

وربت سليمان كتف الأم مستضحكاً وهو يقول :
— لا داعي أبداً للحزن .. إنها سليمة .. ليس بها شيء ، وسيعود وجهها كما كان .. بل لقد قال الطبيب وأجمل مما كان .

ثم نظر إلى « منى » التي بدت في عينيها آثار الدموع .. وأردف قائلاً :
— وأنت يا منى .. كفى عن هذا الوجوم .. إنها عملية تجميل لا أكثر ولا أقل .. وعندما تصحو نادية .. وتعجبك العملية فلا بأس من أن تجربى لك مثلها .. لإزالة هذا التمش الذى يبدو في أنفك .
ونظر سليمان إلى الساعة وكانت قد قاربت الخامسة وتلفت حوله في قلق قائلاً :

— ألم يأت فاضل ١؟
وأجاب « الأم » وكأنما تذكرت زوجها وأقلقها عدم مجيئه حتى هذا الوقت :

— لا .. لم يأت .
— عجيبة !! ولا سأل في التليفون ١؟
وهزت الأم رأسها بالنفى .
وعاد سليمان يتساءل :
— وما الذى أخره ١؟ لعله لم يعرف ..
وأجاب منى :
— غير معقول .. إذا كان قد عاد إلى البيت فلا بد أن يعرف . أتظن كل هذا الحريق والضجيج الذى حدث يخفى عليه .
وأردفت « الأم » قائلة وقد بدا عليها الشرود والجزع :

— والمفروض أنه قد عاد ليتناول الغداء كعادته .
وحاول سليمان رغم قلقه أن يبعث الطمأنينة كعادته في نفوسهم فقال في ثقة :

— لا بد أن شيئاً ما قد شغله .. إن هناك بعض أوراق للسفر لم يتم استخراجها بعد .. فلا بد أنها أخرته .
ولم يستطع حديثه المطمئن أن يزيل القلق من نفس الأم التي عاودت التساؤل :

— إنه لم يعتد التأخر أبداً .. ترى ماذا حدث ؟
وعاد سليمان يرد محاولاً إسكات قلقها .. الذى بدأ يثير في نفسه القلق :
— لا شيء .. لا شيء مطلقاً .. قد يكون مشغولاً بما حدث في البيت .
— غير معقول أن ينشغل بالبيت عنا . غير معقول أبداً .
ووجد سليمان أن عذره غير معقول فعلاً وصمت برهة ثم قال :
— على أية حال سأعود الآن إلى البيت .
وتساءلت منى :
— ونحن ؟

— لقد قال الدكتور إن « نادية » تستطيع العودة الآن إلى البيت ، ولكنى أعتقد أن الأفضل أن تبقى في المستشفى بضعة أيام حتى تتحسن قليلاً ، وحتى يعمل لها الغيار الأول .

وفتحت « نادية » عينها لأول مرة خلال المناقشة وهزت رأسها في ضيق وبدأت كأنها لا تود البقاء في المستشفى .
وتساءل سليمان قائلاً :

— لماذا يا نادية لا تريد البقاء في المستشفى !! إنه أفضل كثيراً من البيت !
وعادت « نادية » تهز رأسها في إصرار .. لقد كانت تريد الفرار خشية أن يعود « مدحت » ليراها .. إن الصدفة وحدها أنقذتها عندما أقبل الممرض يخبره

أن مريضه قد نرف .

فماذا ينقذها إذا عاد مرة أخرى ليراها ؟

لا .. لا .. يجب أن تغادر المستشفى في أقرب فرصة .. وما دام الطبيب قد قال إنها تستطيع أن تغادره الآن فماذا يبقيا !

وقالت الأم وهي ترى رفض نادية البقاء :

— إذا كان الطبيب لا يرى ضرورة لبقائها .. فلماذا لا نعود كلنا الآن ؟

وأجاب سليمان في ضيق ودعشة :

— كيف نعود بها الآن ؟ هل نعرف ماذا حدث بالبيت ؟

وفغرت « الأم » فاهها وصاحت في جزع :

— ماذا حدث ؟! هل احترق ؟! وفاضل ؟!

— لا أقصد هذا .. لقد تركنا به رجال المطافئ .. وقد أوشكوا على إخماد

الحريق .

— ومن يدريك ؟!

— لأنه لم يتعد الحجرة الصغيرة .. وأنا لم أقصد أننا لا نستطيع أن نعود إلى البيت لأنه احترق .. بل لأننا لا بد أن نجد هناك ضجيجاً وزحاماً .. ثم إنه ليس من المستحب أن نعود بها الآن إلى نفس المكان الذى حدثت فيه الحادثة . إن ذلك يؤثر على نفسيته تأثيراً سيئاً .

وعادت « نادية » تهز رأسها في ضيق .

وقالت الأم :

— ولكنها تريد العودة .

— وأنا أنصح بعدم العودة .. إن من رأى أن تبقى هنا ولو هذه الليلة حتى يستقر الحال في البيت .. لا داعى أبداً لإعادتها ، ومنظر الحادث وآثار الحريق لم تمنح بعد .

— إذا سأبقى أنا معها ؟!

وأردفت « منى » قائلة :

— وأنا أيضاً ؟!

وأجاب سليمان :

— كما تشاءان . سأعود أنا الآن إلى البيت لأرى فاضل . وأرى ماذا تم في

البيت ثم أعود إلى هنا .

وقالت الأم :

— حدثني في التليفون بمجرد وصولك وطمئنني على « فاضل » .. أخشى أن

يكون قد أصابه مكروه .

وأحس سليمان برجفة ولكنه عاد يقاوم قلقه قائلاً :

— يا شيخه .. لا بد أنه تناول الغداء مع أحد أصدقائه .. وعندما يعود سألقاه

وأطمئنه وأعود به إليكم .

ونظر سليمان إلى « نادية » وربت على يدها في حنان قائلاً :

— سأذهب الآن .. هل تريدن شيئاً من البيت ؟

وأجابت الأم :

— غيار لنادية .. دع فاطمة تحضره لك .. وإذا أمكن تحضر لي ثوباً وآخر

لمنى .

— حاضر .. لن أتأخر عليكم .

وهبط سليمان إلى الطريق ليعود بعربته إلى البيت . وفي العربة أحس كأنه قد

ترك كل شجاعته وجلده بجوار الأم وابنتها في حجرة المستشفى ، وحل به التعب

الذى حاول جهده أن يشد أعصابه ويحشد قواه لمقاومته .

— وبدأت الوسواس تنفذ إلى رأسه .

لماذا لم يأت فاضل ؟!

لماذا لم يسأل عن ابنته ولو في التليفون ؟

أترى قد أصابته الصدمة بنوبة جديدة من نوبات الذبحة ؟ ربنا يستر .

ليته يكون قد دعى حقاً إلى الغداء مع أحد أصحابه .. وليته لا يعود قبل أن يعود هو إلى البيت ليلقاه .. ويخفف عليه وقع الحادث .

إن هذا يوم أغبر مشنوم .. ترى بمن اصطبَح ؟ .. بأى وجه منحوس !
وتذكر « نادية » الطيبة الجميلة .. جالسة في ارتياح أسفل الشرفة ، وقد أحاطت بها أمها وأختها .. وتذكرها راقدة في استسلام ويأس على فراشها ، وقد غطت وجهها الضمادات فلم يبد منها سوى عينيها ، وشفتيها .

وتذكر وجهها المحتقن .. السلوخ .

وسأل نفسه : « أحقاً .. سيعود كما كان !! »

وبدأ الشك يداخل نفسه .. وعادته الرغبة في البكاء من أجل الصبية المسكينة .

كيف تعيش بوجه مشوه .. محروق !

ولكن الطبيب قد طمأنه .. لقد قال إنه سيعود كما كان .. وإلا .. فلماذا

أجرى عملية القص التي أجراها !!

لا .. لا .. إنها ستشفى ، وتعود كما كانت .. إنها مخلوقة طيبة رقيقة .. والله

لا يمكن أن ينزل بها هذا العقاب .

وأدار عجلة القيادة فجأة بعد أن كاد يصطدم بعربة واقفة على جانب

الطريق .

ومرة أخرى أحس برجفة .

هذا اليوم يأبى أن يمر على خير .

ليته فقط يجد فاضل سليما .

وانحرف بالعربة من الطريق الرئيسى في شارع الخليفة المأمون .. إلى الشارع

الفرعى الذى يؤدى إلى البيت .

وبدا له الطريق خالياً .. لقد انفض الحشد الذى ازدحم فيه في الظهيرة ، ولم

يعد هناك أثر لعربة المطافئ ، ولا بدت من البيت ألسنة لهب ولا أعمدة دخان .

(نادية — ج ١)

— ١٣٠ —

كان كل شيء يوحى بالهدوء والسكينة .. كأن لم يكن هناك حريق منذ بضع ساعات .

وبدأ له باب البيت عندما بلغ منتصف الطريق .. لم يكن هناك شيء يوحى بشر أو ينذر بخطر ، لا شيء أبداً .. إلا عربة « فيات » صغيرة سوداء تقف أمام البيت .

ترى عربة من ؟

لعله صاحب فاضل الذى دعاه للغداء قد عاد به إلى البيت ؟

ووقف سليمان بجوار العربة .

وفجأة تذكر !

وأحس بشيء ثقيل يطبق على أنفاسه ويفرى معدته .

إنها عربة الدكتور شافعى .

الدكتور الذى أشرف على علاج فاضل عندما أصابته نوبة الذبحة الأولى .

واندفع سليمان يقفز السلم ، وهو يلهث .

يارب رحمتك .

يارب .. رفقاً بهم جميعاً .

ولم يكن الباب مغلقاً فدفعه سليمان ليجد « فاطمة الدادة » تقف على باب

القاعة ، وقد بدا عليها الوجوم .

ولم تكذ تراه حتى اندفعت إليه باكية كالأطفال ، وهى تصيح :

— شيدى سليمان .. أين ست نادية !! كيف حالها !؟

ولم يجب سليمان ، ووقف فى منتصف القاعة يدور بعينه فى الأبواب وتساءل

فى لهفة :

— أين فاضل !؟

وعادت فاطمة تبكى .. وأشارت له إلى باب حجرة المكتب قائلة :

— إنه يرقد هنا .. إن عنده الدكتور والست زكية .

ودلف سليمان من باب الحجرة .. ليجد أخاه راقداً على الأريكة التي تعود النوم عليها ، وقد بدا شاحب الوجه .. مغمض العينين وقد أخذ يحرك رأسه يمنة ويسرة في ضيق وملل .

وهتف سليمان بأخته قائلاً :

— ماذا به ؟ ماذا أصابه ؟

وأجابت زكية بصوت مختنق ، وهي تقاوم انفجار البكاء :

لم يكذب يعلم بالحادث الذي أصاب نادية .. حتى أصابته النوبة .. وتلاحقت أنفاسه .. وصرخ ، وهو يحس أن شيئاً يتمزق في صدره .. وأرقدناه على الأريكة ، وأسرعنا في طلب الدكتور .. ومنذ ذاك الوقت ، وهو على حاله تلك .

ونظر سليمان إلى الدكتور متسائلاً في جزع :

— كيف حاله يا دكتور !؟

— ربنا يسلم .. لقد أعطيته إبرة منذ أن حضرت .. وأرجو أن تمر بنا الأربع والعشرون ساعة القادمة على خير .

— هل هناك خطورة !؟

— إن الضغط منخفض قليلاً .. ولكن الله يسلم .

وفتح فاضل عينيه ، ولم يكذب بصره يقع على سليمان حتى هم بالنهوض .. لكن الدكتور أمسك به قائلاً :

— وبعدين .. لقد قلنا .. إنك يجب أن تستريح .. إن حياتك متوقفة على عدم الحركة والانفعال .

وتكلم فاضل قائلاً في صوت خافت :

— كيف حالهم !؟ كيف حال نادية ؟

— الحمد لله .. بخير .

— أين هم !؟

— ١٣٢ —

— في مستشفى الدمرداش .

— لماذا ؟!

وتدخل الدكتور قائلاً :

— قلنا إنه لا داعي هناك للكلام .

وأجاب سليمان :

— صدقني إنهم بخير .: إن نادية قد لسع الوجه وجعلها وقد وضع لها الدكتور مرهم .. وكان المفروض أن أحضرهم الآن معي .. ولكن كرهت أن أواجهها بمنظر الحريق ثانية وفضلت أن تبقى هناك هذه الليلة .. وقد

وقبل أن يتم حديثه دق جرس التليفون في القاعة .. وأحس سليمان بمن المتحدث .. فاسرع إلى القاعة وخطف السماعة من يد « فاطمة » قبل أن تجيب :

ووصل إليه صوت الأم يتساءل :

— سليمان .. أين فاضل ؟!

— فاضل .. إنه .. إنه .. لقد أصابه تعب بسيط .

وقبل أن يتم حديثه سمع صرخة في السماعة ثم أقفل الخط .

ووضع سليمان السماعة ووقف حائراً ، وقد بدت عليه أمارات الضيق والجزع .

إن خير ما يفعله هو أن يسرع إلى المستشفى ليحضرهم جميعاً .

فلعل وجودهم في البيت بجوار بعضهم يكون على ما فيه من إزعاج .. أقدر على منحهم نوعاً نسيماً من الطمأنينة .

وجه غريب

مرت بضعة أيام بعد ذلك اليوم الأغبر المشثوم والبيت بمريضيه كأنه المستشفى .. الأب راقد على الأريكة في حجرة مكتبه يتملغل في ضيق وبجواره الأسطوانة الحديدية الطويلة التي امتد منها الخرطوم ذو القنّاع يمد المريض بالأكسجين كلما ضاق نفسه .

وفوق المكتب اختلطت زجاجات الأدوية بالكتب و« بالروشتات » . وأمام الأريكة جلست الأم على مقعد صغير ترقب المريض في جزع وقد علق بصرها برأسه القلق وأنفاسه المضطربة .

وفي حجرة أخرى رقدت « نادية » على فراشها . وقد غطت الضمادات وجهها وبدأ من خلالها طرف أنفها وقد أصابه احمرار الجلد المقشور وذهب الورم من شفيتها فلم تعد عاجزة عن النطق وتناول الطعام . ولم يكن هناك ما يؤلمها سوى الجزء الملتهب في رقبته وأسفل أذنها .

وكان يبدو في عيني « نادية » استسلام اليأس .. كانت تتصاعد من شفيتها بين آونة وأخرى زفرة ألم ، تحاول جهدها كتمانها .. ولكنها تفلت منها برغمها . كانت تتمم بشفيتها دعوات ، لا من أجل نفسها .. فقد سلمت بأمر بلواها روضت نفسها على قبول مصابها .. ولم تعد تملك من أجل نفسها إلا دموعاً سامية تذرفها كلما خلت الحجرة من روادها .. ولكن الدعوات كانت من أجل بيها الراقد في الحجرة المجاورة .. الثائه في غيبوبة دائمة .. لا تفيقه منها إلا صرخة حادة ، تمزق سكون البيت .. وتشق صيحته .. وتصيب أهله المتحركين كالأشباح برجفة تهر أبدانهم ، وتشيع العجلة والاضطراب في حركتهم الوئيدة

— ١٣٤ —

وخطواتهم المتسللة وأصواتهم الهامسة .
وكانت « نادية » .. ترقد مشدودة الأعصاب ، تنصت إلى كل همسة ..
وتصغى إلى كل حركة .. وتحاول أن تستتج ما يحدث .. وكانت صرخات
الأب التي تتعالى عندما تصيبه النوبة .. تصل إليها ، كقطعناات المدى ، أو
ضربات السياط .

وعندما كانت تبدأ الصيحات .. ويسود الصمت ، كانت « نادية »
تشرئب بعينها محاولة أن تعرف ، طبيعة هذا الصمت .
وعندما يطول بها الإنتظار دون أن يطمئنها أحد من أهل الدار كانت تهتف
صائحة في جزع ..

— « منى » ماذا حدث ؟

وتقبل عليها « منى » وقد علا وجهها الشحوب وأصابها الهزال ، وتقول لها
مطمئنة :

— لا شيء يا نادية .. لقد أعطاه الطبيب حقنة ، وقد نام .
وتجلس « منى » بجوارها منهار وقد دفنت وجهها في كفها ، وتتمتم
« نادية » وهى تحدد بعينها فى سقف الحجرة كأنما تحاول أن تحترقه لتوصل
دعواتها إلى الله :

— يارب .. يارب رحمتك .

وكان سليمان يبدو حائراً فى البيت فى جيئته وذهابه .. وهمساته مع
الأطباء .. وكان يحاول أن يبدو مطمئناً .. وإن كانت أعصابه تخونه فى كل نوبة
فتضطرب حركته ويخذ صوته .. ويخرج همه فى أخته زكية أمراً إليها بأن تكف
عن جزعها وتوقف نهبتها

— وبين أونة وأخرى كان سليمان يدخل حجرة « نادية » ، ليجلس بجوارها
ويربت يدها فى رفق ، محاولاً إدخال السكينة على نفسها ، وقد حدثها فى آخر
جلسة معها قائلاً فى ثقة وطمأنينة :

— كل شيء سينتهى على خير بإذن الله .. لقد أكد لي الدكتور عبد الوهاب ،

— ١٣٥ —

بعد أن أجرى لك الغيار بالأمس أن وجهك سيعود كما كان .. بل خيراً مما كان .
وهزت « نادية » كتفها في استخفاف وأجابت :

— لا يهمنى وجهى .. ليحدث به ما يحدث المهم هو أن ينجو بابا .
— سينجو إن شاء الله .. إن حالته مطمئنة .. وقد قال الدكتور إنه خلال أيام
يستطيع أن يجلس في الفراش ويتحرك في الحجرة .

— أحقاً قال هذا ؟!

— إى والله .. وكلها بضعة أيام أخر .. ويستطيع الخروج .
— ربنا يسمع منك .

— ربنا كريم يا نادية .. وأنا واثق أنه لن يضر أحداً منكما .. لا أنت ولا
فاضل .

وفى اليوم التالى أقبل الدكتور عبد الوهاب ليقوم بالغيار لنادية . واجتاز
الرجل القاعة فى خطى متسللة حتى لا يزعج المريض الراقد . واستقبلته « منى »
على باب الحجرة بحية وهى تقول :

— بونجور دكتور .

— بونجور منى . كيف حال نادية ؟

وهزت « منى » كتفها قائلة :

— أنت أدرى .. كيف نعرف حالها وهى محتجة وراء هذا الكوم من
الضمادات !

وضحك عبد الوهاب وأجاب :

— صدقت .. إنها بخير .. اليوم سنأزيل هذا الكوم الذى يزعجك .. لترى
نفسك أنها بخير ، ولتصدق أى قمت بعملية تجميل .

— إذا كان امر كذلك .. فسأشعل فى البيت حريقاً آخر .. من أجل هذه
المرّة .

— إياك .. ليست كل الحرائق بمجملّة .

— ١٣٦ —

وجذب الطبيب مقعداً وجلس بجوار « نادية » .. وقد أمسك يدها في رفق
قائلاً :

— كيف الحال ؟

وبسكينتها المعتادة واستسلامها الطبيعي أجابت نادية :

— الحمد لله .

وضحك الطبيب قائلاً :

— إنك تقولينها من تحت الضرس .. كأنها الحمد لله الذى لا يحمد على
مكروه سواه .

ورفعت إليه « نادية » عينها وتساءلت وهى تطلق زفرة حارة :

— أليس الأمر كذلك ؟

— لا أعتقد .. إنك بخير .. وسأريك الآن .

— أنا لا أقصد نفسى .

— وأبوك سيشفى بإذن الله . إن سليمان أخبرنى أن حالته لم تسو .. وإنه إذا
لم تحدث مضاعفات .. فسيشفى بإذن الله .

وبدأ عبد الوهاب فى رفع الضمادات عن وجهها .. وبدت على وجهه
علامات الرضا ، وهو يقول :

— عال .. عال .. ليس هناك أى أثر فى الوجه ، إنه سليم أربعة وعشرين
قيراطاً .

ثم أخذ فى فك ضمادات العنق . وأحست « نادية » بالألم وهو ينزع عنها
الضمادات .

ولم تبد على وجه الطبيب نفس علامات الارتياح التى بدت عليه عندما فك
ضمادات الوجه ، وقال وهو يفحص الجلد الذى ما زالت به قروح الحريق :

— هذا الجزء سيحتاج إلى بعض الوقت .. إن إصابته كما قلت ، من الدرجة
الثانية .. وقد تترك بعض الآثار .. على أية حال الحمد لله أنها لم تمتد إلى الوجه ..

— ١٣٧ —

سأضع عليه هذا المسحوق .. ومن الخير أن نستمر في رباطه .
ومدت « نادية » أصابعها لتحسس وجهها .. وأحست ببشرتها ملساء
مشدودة .. ثم مدت يدها لتحسس جروح عنقها من أسفل الأذن حتى أسفل
الذقن .

وقال الطبيب متضاحكاً :

— ها ١٩؟ ما رأيك ، أظنها قد أضحت أنعم مما كانت ؟
والنفت الطبيب إلى « منى » التي وقفت تحدق في أختها في صمت وكأنيما
تحاول أن تتمالك وتتجلد وقال مازحاً :

— ما رأيك يا « منى » ١٩؟ هل لك غرض !

ورفعت « نادية » عينها إلى « منى » وقالت في غير اكتراث :
— أريني المرأة يا منى .

— لا تجهدى نفسك الآن يا نادية .. إن وجهك لم يحدث به شيء .
وقالت نادية في إصرار :

— هاتي المرأة .. إني لا أخشى شيئاً .

ورد الطبيب قائلاً :

— ولكن ليس هناك ما تخشينه .. هاتي لها المرأة يا منى ، إن هذا أفضل نتيجة
يمكن انتظارها من إصابة كهذه ، لن يكون هناك أثر للحريق إلا في العنق كما قلت
لك .

وقبل أن تتحرك « منى » لتحضر المرأة الصغيرة ، نهضت « نادية » من
فراشها واتجهت إلى امرأة التسيريحة .. ووقفت تفحص وجهها .

وبدا لها وجهها أحمر .. بلون الجرح الملثم الذى أذيلت عنه قشرته ..
وأحست في أول الأمر أنها تنظر إلى مخلوقة أخرى .. وأن هذا الوجه الذى يبدو
أمامها ، ليس وجهها .

ورفعت ذقنها ولوت عنقها لتفحص القروح التى به .. وأحست بالغثيان ،

— ١٣٨ —

وهى ترقب الجلد اللين المقروح .. وعادت مرة أخرى ترقب وجهها .. ثم أغمضت عينها وعضت على نواجذها كأنما تكتم آهة .. ثم استدارت لتبعد عن ناظرها .. ذلك الوجه الغريب الذى بدا لها فى المرأة .

ونظرت إلى الطبيب الذى وقف يرقبها فى ألم ، وهو يقول مطمئناً :
— هذه الحمرة ستزول بالطبع .. والجروح التى فى العنق ستخف .. على أية حال يمكن تغطيتها بإيشارب أو بياقة عالية .. إن هذا خير ما يمكن الوصول إليه .. الحمد لله أن لم تتعد الجروح إلى الوجه .
وتهاوت « نادية » على فراشها ، وهى تقول
— الحمد لله .

ونفض الطبيب ، وقد بدا عليه الأسى وقال مؤكداً :
— أؤكد لك أن البشرة ستحسن مع الأيام... وأنها ستعود تماماً إلى حالتها الطبيعية .. فقط لا تعرضها الآن للشمس ، أو الهواء . واجتهدى أن تغطى وجهك دائماً .. بقطعة من « الشاش » أو « القوال »
وأجابت نادية :

— حاضر يا دكتور .
وأحست « نادية » أنها خذلت الرجل الذى فعل من أجلها ماوسعه .. وأنها رغم ادعائها عدم الاكتراث بوجهها .. قد تركت ليأسها العنان .. فرفعت رأسها وهتفت بالطبيب :
— أنا متأسفة يا دكتور .. أنا .. أنا ...

وربت الطبيب على رأسها فى حنان قائلاً :
— إني أقدر شعورك .. لا داعى للأسف .. لم يكن يجب أن ترى وجهك فى المرأة .. إنه لا شك قد أزعجك .. ولكن أؤكد لك أن البشرة ستعود إلى حالتها .

— وحتى إذا لم تعد إلى حالتها .. أؤكد لك أنى لن أنزعج . كل ما أريده أن

— ١٣٩ —

يشفى الله أبى ، هذا كل ما أرجوه .

— سيشفيه بإذن الله .. لا تنسى أن تضعى غطاء على وجهك .

— إلى متى ؟

— أسبوع على الأكثر حتى يشتد الجلد .. وضعى هذا المرهم والمسحوق على

جروح العنق .. وسأحاول أن أراك بعد بضعة أيام .

— متشكرة يا دكتور .. مع السلامة .

وقبل أن يغادر باب الغرفة التفت قائلاً :

— على فكرة .. لقد سألت عنك الدكتور مدحت .

وانتفضت « نادية » وهتفت مذهولة :

— الدكتور مدحت ؟

— أجل .. الذى كان يوشك أن يجرى لك العملية .

— سألت عنى أنا ؟

— أجل .. لقد سألت عنك عندما علم أنى ذاهب للغيار لك .. وطلب منى أن

أعتذر إليكم .. حتى لا تهموه كما يهتمه الناس بالفظاظة .. لقد قال إنه لولا

النزيف الذى حدث لأحد مرضاه .. لما تأخر عن القيام بالعملية .

وبدت « نادية » كالشاردة ، وهى تقول كأنما تحدث نفسها :

— هل قال هذا حقاً ؟

ودهش الطبيب وأجاب :

— طبعاً قاله .. إنه ليس قاسياً كما يبدو .

واستمرت « نادية » فى سؤالها الشارد :

— وهل يعرف من أنا ؟

وهز الطبيب كتفيه قائلاً :

— لا أظن .. إنه لا يهتم بمعرفة الناس ، ولا بما يقولونه عنه ، وإنما فقط كره أن

يبدو خاذلاً للغير هارباً من غوثه ونجده .

وأحسست « نادية » بشيء من الخيبة .. لقد سرّها أن يسأل عنها .. ولكنها كرهت أن يسأل عنها كمجهولة .. لا يعرف عنها إلا أنها مريضة بين آلاف المرضى .. لا يعرف لها سمة ولا يذكر شكلا .

ولكن .. ماذا يحزن في ذلك !! ألم تهرب منه ؟
ألم تخش أن تقع عيناه على وجهها المحترق وملاحظها المشوّهة !! أمن الخير أن يعرفها كمجهولة !! أم يذكرها .. كوجه مشوّه .. وملاح منقرة !
ثم ماذا تأمل هي منه .. لكى تفرح لذكره لها وسؤاله عنها .. وتخزن .. لعدم تمييزه لها ومعرفة إياها .

ماذا يفرحها منه أو يخذلها فيه ، بعد أن أبصرت وجهها المسلوخ .. وعنقها المقروح .. أليس من الخير .. أن تطرده من أوهامها .. وتعفى خيالها من تصوّره والتفكير فيه ؟

أجل .. يجب أن تكون أكثر من هذا سيطرة على أحلامها .
ونظرت إليها « منى » وقد استغرقت في شرودها الحزين وهتفت بها :
— نادية .. ماذا بك ؟

وهزت « نادية » رأسها وأجابت في يأس :
— لا شيء .

— لا يجب أن تيسى أبداً يا نادية .. ليس هناك شيء مستحيل في هذه الدنيا .. لا تحرمى خيالك من بقية أوهامه ، فقد تتحقق في يوم من الأيام .

وردت « نادية » في سخرية ومرارة :

— تتحقق ؟! بعد كل ما حدث ؟

— أجل .. إن وجهك سيعود كما كان .. وحتى إذا لم يعد .. فالحب لا يتقيد أبداً بسمات معينة .. نحن لا نحب نماذج مرسومة .. وإنما نحب سمات موجودة كما هي .. نحبها لذاتها .. لا أنها تشابه شكلا معينا .. وأنت يا « نادية » .. لا يمكن أن يشوّهك شيء .. ستظلين دائماً محبوبة .. لأن الناس يحبونك أنت .. لا

ملاحك .. ولو كانوا يحبون ملاحك .. لما فضلك عنى أحد .. لأن ملاحى لا تختلف عن ملاحك .. ومع كل ذلك .. فإن ملاحك كما هى .. لم يصيبها شيء .. فلماذا تثقلين على نفسك بهذا اليأس المخيف !! لماذا تسليين نفسك فرصة الأمل ؟!

— أى أمل يا منى ١٩

— أمل فى أشياء كثيرة .. ألم تذكرى قول الكاتب « إن فى بقية الزهر عزاء عن النرجس » فلماذا تحاولين أن تتمسكى بالنرجس . وهزت « نادية » رأسها فى ضيق ويأس وأجابت :
— أنا لا أحاول أن أتمسك بشيء .. إن كل ما أرجوه الآن هو أن يشفى أبى .
— سيشفى بإذن الله .. ولكن يجب أن تشفى تماماً من يأسك .. أم تراك قد اعتدت العجز والاستسلام !

ودخل سليمان وهو يقول متضحكا :

— أجل .. معك حق يا « منى » .. لقد تعودت العجز والاستسلام .. مع أن كل شيء يدعو إلى التفاؤل .. لقد أفاق أبو كما .. وهو يريد أن يرا كما .
وقفرت « نادية » من فراشها هاتفة :
— حقاً !! أهو يتجدث ١٩
— أجل .

واندفعت « منى » إلى القاعة وهى تهتف :
— بابا ..

— لا تصيحى هكذا أيتها المجنونة .. ادخلى على مهلك . يجب علينا ألا نعرضه لأى حركة ، أو انفعال .

وأجابت « منى » وهى تسير على أطراف أصابعها :
— حاضر .. لن أزعجه أبداً .

وقبل أن تغادر « نادية » الحجرة .. اتجهت إلى التسيجة وأخذت ترتب وجهها فى المرأة .

وأخذ سليمان يرقبها وهو يحاول أن يخفى تأثيره قائلاً :
— الحمد لله لم يصبك مكروه .. إن أباك يلع في رؤيتك أنت بالذات ..
ولست أدري ماذا كنا فاعلين لو لم يرفع الطبيب الضمادات عن وجهك .. إن
وجهك يبدو طبيعياً تقريباً .. وأعتقد أن من الخير لو لففت وجهك بإشارب
يغطي شعرك وعنقك .

ومرة أخرى أدارت « نادية » عنقها المقروح عن الوجه الغريب الأحمر الذي
يبدو لها في المرأة .. وقالت وهي تحاول أن تكبت دمعها :

— هل تظن أن وجهي لن يفزعه ؟

وأجاب سليمان وهو يغالب ألمه ويحاول التضاحك :

— يفزعه !! ما تظنين نفسك ؟ غولة ، أم عفرية !! إن وجهك مازال

جميلاً كما هو !

واقتربت منه « نادية » فأبصر عن قرب عنقها المقروح

وأحس بشيء يعتصر جوفه ، وأردف يقول وهو يحاول التماسك :

— أجل .. لن يلحظ أى تغيير بك .. ولا سيما إذا لبست الإشارب كما قلت

لك .

ونظر إلى بشرتها التي تبدو حمراء مشدودة .. كالجلد المسلوخ وأردف

قائلاً :

— وضوء الحجرة الضعيف سيبدى لون وجهك على حقيقته .. أجل ..

أجل .. لن يلحظ شيئاً .

وأحست « نادية » بالمرارة تسرى في نفسها وهي تحس أنها قد باتت تحتاج إلى

الظلمة حتى تبدو مخلوقة غير مزعجة ، وأنها تحتاج إلى « إشارب » يلف

وجهاها .. حتى تخفى ما به من تشويه .

ومدت يدها في سكون إلى درج التسيجة وأخرجت « إشارب » أزرق

— ١٤٣ —

لفت به رأسها وأحاطت به عنقها وضمت ياقة القميص حول عنقها حتى لم يعد
يبدو من وجهها إلا صفيحته المواجهة .
وبخطى وثيدة متسللة .. سارت تسترق الخطى خلف عمها .. الذى دفع
الباب ببطء وسكون .. ودلف إلى حجرة الأب المريض .

— ١٤٤ —

(١٤)

صرخات في الليل

اقتربت «نادية» في سكون من أبيها الراقدة على الأريكة .. وكان شباك الغرفة قد أغلق فلم يسمح إلا لخيوط رفيعة من أشعة الشمس الغاربة بالتسلل إلى الحجرة ، محددة طريقها بذرات بيض ترتجف على امتداد الأشعة .
وعلت شفتي الأب ابتسامة حنون وانطلقت من صدره تنهيدة راحة وهو يرى « نادية » مقبلة عليه وهمّ في لفته عليها بأن ينهض بنصفه العلوى فهتف به سليمان :

— وبعدين .. قلنا لا حركة .

ومالت « نادية » تقبل وجهه الهزيل الشاحب وتضمه في حنان .. ومد ذراعه يضمها إليه ويتحسس رأسها ويتمتم في شبه همس :

— ماذا حدث لك يا حبيبتي ؟!

— لا شيء يا أبتي .. لا شيء أبداً .. إني بخير .. المهم هو أنت .

وأسندت « الأم » رأسها بكفها وهي تقبع على مقعد في ركن الحجرة وقد أحست أن الدمع يوشك أن يطفر من مقلتيها وهي ترى « نادية » وقد أحاطت وجهها بالإشارب لتخفى قروح عنقها .. وحاولت أن تمنح صوتها لهجة الطمأنينة .

وتحدث سليمان محاولاً أن يذهب عن الموقف رهته ويمنحه بعض المرح فتضاحك قائلاً :

— كفى سلبطة .. أنتما الاثنان بخير ، وبعد بضعة أيام ستصبحون جميعاً

كالجن وترحلون عنا .. وتريحوننا من حوادثكم .
وهز الأب رأسه وهو مازال يطبق بيده على كف « نادية » وقال فى صوت
مستضعف :

— لا أظن أنى سأستطيع الرحيل .
وأجابت الأم فى لهجة داعية :
— لا داعى للرحيل . ليمحك الله الصحة . ويحفظك لنا .
وربت سليمان على كتف نادية وقال مطمئناً :
— هذه نادية أمامك .. كالحصان .. لم يكن هناك ما يدعو أبداً .. لهذه
الحفظة التى صرعتك .

وتهد الأب وأجاب فى صوت خافت :
— لو أبصرتم ما رأيت .. لعذرتمونى .. ذلك الزحام حول البيت والدخان
المتصاعد وعربة الحريق .. والبواب يهتف بى أن نادية احترقت وحملتها عربة
الإسعاف .
وبدا الأم على وجه الأب .. وخشى سليمان عليه انفعال الذكرى فصاح
به :

— انتهينا .. لا داعى لإثارة الآلام .. إنها أمامك .. سليمة أربعة وعشرين
قيراطاً .. أنت تعرف تهويل الناس .
واطلق الأب تهيدة عميقة وقال :
— الحمد لله .. الحمد لله ..
ثم نظر إلى وجه « نادية » فاحصاً وأردف يتساءل :
— هل ترك الحريق أثراً بوجهك ؟
وأسرعت « نادية » تنفى قائلة :
— أبداً .. أبداً لقد كانت لفحة الوهج .. أزال أثرها المرهم .
— مالك إذن تتشجين بالإشارب ؟!

— ١٤٦ —

وضحكت « منى » وقالت تحاول أن تجيب عن « نادية » التى بدا عليها
الاضطراب :

— عياقة يا بابا .. فرحانة بالإشارب .
وقيل أن يعاود الأب تساؤله قال سليمان :
— كفى هذا الآن . لقد أقلقناك . ويجب أن تستريح .. هيا بنا يا بنات . أظن
أن موعد الأقراص قد حل يا « لورا » ؟
ونفضت « لورا » وهى تتند مجيبة :
— أجل .

ومدت يدها إلى أنبوبة على المكتب فأخرجت منها قرصين وضغط الأب على
كف نادية قائلاً :

— خذى بالك من نفسك يا حبيبتى .
— أنا بخير يا بابا .. إننا نريدك أنت سليما بيننا .. ليس هنا قط ما يساويك ،
ويساوى سلامتك .

ونظرت « نادية » إلى أبيها نظرة ملؤها الحنان ، وأحست بفراط حبه لها ..
وتمنت لو انحنى عليه لتضمه ضمة أخرى .

ولكن سليمان جذبها قائلاً :

— هيا بنا .. يجب أن ندعه يستريح .

وأجاب الأب :

— إني أستريح أكثر لوجودكم . لماذا تتركوننى وحدى ؟

— أنت لست وحدك .. إننا معك دائماً ، ولكن يجب ألا تكثر الأنفاس فى

الحجرة ، وأن تريح نفسك من الكلام .

وأجاب الأب فى عصبية :

— إلى متى كل هذا ؟! لقد ضقت بحياى ذرعاً !

— هانت .. لا داعى للانفعال .. كلها يوم أو يومان وتستطيع أن تجلس فى

الحجرة .. يجب عليك أن تصبر يا فاضل .. إن مرضك علاجه الراحة ..
والهدوء .. هكذا قال الأطباء جميعاً .

ورد الأب في ضيق شديد :

— الراحة والهدوء !! إلى أكرههما .. إن هذه الرقدة ستقتلني .

وحرك ساقيه في عصبية وضيق ، فصاح سليمان :

— وبعدين .. إنك تؤخر شفاءك بنفسك .. أنت لست صغيراً يا فاضل .

وعضت « نادية » على شفتيها وهي تحس بمدى ضيق أبيها وألمه وقالت له في
حنان ورقة :

— تحمل يا بابا يوماً أو يومين .. أو بضعة أيام في سبيل شفائك .. ليتنى
أستطيع أن أرقد بدلا منك .

وجذبها سليمان من ذراعها وهو يضحك قائلاً :

— هيا .. ستهضون جميعاً .. ترحلون عنا ونكسر وراءكم مائة قلة .

وتساءلت منى ضاحكة :

— إلى هذا الحد زهقت منا ؟

— زهقت من حوادثكم .. لقد مضى عليّ أكثر من أسبوع .. لم أذق النوم
الذي أغمض فيه عيني من العاشرة فلا أفتحها إلا السادسة .

— عندما نرحل .. ستشبع نوماً .

وغادرت منى الحجرة تتبعها نادية ونظر سليمان إليها قائلاً :

— ها . استرحت ؟ اطمأنت عليه ؟ أعرفت أن المسألة لم تكن تستدعي كل

هذا الانزعاج الذي أصابك !

وكان الأب قد أغمض عينيه .. وكانت خيوط أشعة المغرب التي تسللت من

شق « الشيش » قد انسحبت تاركة الغرفة في شبه ظلمة ، ومدت الأم يدها

إلى مفتاح « الأباجورة » الموضوعة على المكتب وهي تتساءل :

— هل أوقد النور ، أم يضابق عينيك ؟

وهز الأب رأسه في ملل قائلاً في صوت خافت :

— ١٤٨ —

— افعل ما تشائين .. لم يعد يضايقنى شئ أكثر من الضيق الذى أنا فيه .

وأجاب سليمان فى نوع من الزجر :

— قلت لك هانت .. إن الدكتور سيأمر بالحركة داخل الحجرة قريباً .

ولم يجب الأب .. وبدأت أصابعه تشد على حافة الفراش فى عصبية وفتح فاه وازدادت هزة رأسه المتعلملة ، وتوترت عضلات وجهه ، فأسرت الأم إلى أسطوانه الأكسجين وجذبت الخرطوم ووضعت القناع على وجهه ، ومد سليمان يده إلى مفتاح الأسطوانة فأداره .. وبعد برهة استرخت عضلات الأب المشدودة وبدأ على ملامحه هدوء نسبي .

وأقبلت « زكية » من الباب ، فلم تكذب ترى القناع على وجهه حتى صاحت فى جزع :

— ماذا حدث ثانية ؟

وهتف سليمان بها :

— كفى عن هذا الصياح .

— لماذا وضعت هذا الخرطوم على وجهه ؟

— لأن نفسه قد ضاق .

— ولكنك لم ترفعه عنه إلا منذ وقت قريب .. فلماذا وضعته ثانية ؟

وأجاب سليمان فى ضيق :

— لأن نفسه ضاق ثانية .

— ولكن

— زكية ... كفى عن هذه الأسئلة وتفضلى اجلسى فى القاعة .. لأننا لا نريد

ازدحاماً فى الحجرة .

وأدارت « زكية » عنقها وهتفت فى غضب :

— ألا أجلس مع أخى !! أتركه وهو فى هذه الحالة !! ألسنت أخته ؟! كل ما

أقبلت عليه تطردونى !!

- وضغط سليمان على ضروسه وهو يكظم غيظه .. وقال فى حدة :
- زكية .. اجلسى فى القاعة وكفى عن هذه السخافات .
- كلكم على .. ألتست أولى من هذه الأجنبية برعايته ؟
- إنها ليست أجنبية .. إنها زوجته .
- إنها أجنبية مهما فعلت .. إنها هى تثير كم على .
- إنها لم تتحدث عنك أبداً .. إن لديها من متاعها ما يجعلها لا تحس بك .
- طبعاً لا تحس بى .. من يوم أن رقد .. وهى لا تنظر لى إلا شزرا كأفى عدوتها .
- ودفعها سليمان من الباب إلى القاعة قائلاً :
- ليس هذا وقته يا زكية .. اعقلى .. دعها فى مصائبها .
- إنها هى السبب فى كل هذه المصائب .. ماذا دعاها إلى غسل البدلة ؟
- هذا قضاء الله .
- لو لم تغسل البدلة لما حدث الحريق .. ولو لم يحدث الحريق لما أصيب
- فاضل بهذه النوبة .
- قلت لك إن هذا قضاء الله .. ولو لم تصبه النوبة لهذا السبب لأصابته
- لغيره .. يا شيخه .. ليكن عندك إيمان بالله .. ادعى الله أن يشفيه .. واتركى
- هذا الصباح الذى لا مبرر له .
- وهبطت العمة على أحد كراسى القاعة وأخذت تتمم قائلة :
- كانت جوازة نحس .. لو أنه تزوج رشيدة .. أو ثريا لما أصابه هذا .
- سمعت « منى » حديثها وهى تجلس فى حجرتها على حرف الفراش أمام
- « نادية » فوثبت من مكانها قائلة فى ضيق :
- أسمعين يا نادية ما تقول ! إنى لن أسكت لها هذه المرة .
- وأجابت « نادية » بصوت خفيض وهى تجذب « منى » من يدها محاولة
- إعادتها إلى مكانها :
- إباك أن تقولى لها شيئاً .

— ١٥٠ —

- أيعجبك ما تقول ؟ إنها تكرهنا !
 — إن أعصابها متوترة ، مثلنا جميعاً ؛ وهي لا تعي ما تقول .
 — بل تعيه . إنها نكره أمانا ، وتود لو لم يتزوجها أبى .
 — يا منى يا حبيبتي .. دعها تود ما تشاء .. إنه تزوجها وانتهى ، ولن تغير
 أمانها من الأمر الواقع شيئاً .
 — ولكنها تهيننا !
 — يجب أن نتحملها .. إنها عممتنا أخت أينا .. وهي لا يمكن أن تضمر لنا
 شراً .. حتى إذا فلت لسانها .
 — إنه يفلت دائماً .. إن لها لساناً كالمررد ..
 — اعذريها .. إنها في غير وعيها .. إنها في حالة جزع على أخيها .
 — إنها مدعية .
 — حرام يا منى .. إنه أخوها .
 — إنها تدعى أنها لم تذق الأكل منذ يومين . وبالأمس وجدتها تشتم الدادة ..
 لأن اللحمية كانت مشوية ، ولم تكن محمرة .. وفي عز النهنه ، والتأثر .. ترفع
 رأسها وتسأل عن علبة « المارون » تخشى أن يكون قد أكل منها أحد .
 — يا منى لا تعلقى على هذه الأشياء . كل ذلك لا يمنع جزعها .
 — أنا لا أحبها .
 — لا ضرورة لأن تحبها .. دعها وشأنها .. وإياك أن تتصلدى لها .. فليس
 هذا وقت مشاكل . يجب أن نخترمها ونكرمها على الأقل من أجل أبى .
 — احترامها أنت كما تشائين .. أنا لن أكلمها مطلقاً .
 — هذا أفضل ، ولست أظنها هي الأخرى تحب كلامك .
 وقبل أن تحب « منى » سمعت في القاعة حركة مفاجئة .. وخطوات تتحرك
 في عجلة ... وألفاظ تتبادل بسرعة .. وسماعة التليفون ترفع وأرقام تدار .
 وفجأة وقبل أن تنهض « منى » لتستطلع الأمر دوت في أرجاء البيت هبرخة

حادة .. تلنها صرخات مختلطة مستمرة واندفعت « منى » من الباب صائحة :
— بابا .

ولم تنطق « نادية » بل تشبثت بكفها تشد في أغشية الفراش ، وأحست كأن شيئاً يشدها إلى هاوية عميقة .. ولم تستطع الحركة أو النطق .. لقد التصق زورها ، وتصلبت أعضاؤها .. وفقدت كل مقدرة على الحس والإدراك .. ولم تع من حولها شيئاً إلا هزة الأصوات الحادة التي تتقاذفها كأنها أكف تتبادل لطمها في قسوة وعنف .

وزاد الضجيج في البيت وكثرت الأصوات ، واستمرت الصرخات الحادة تشق الفضاء ، و « نادية » عاجزة عن التفكير ، مشلولة عن الحركة .
وقبل أن يبدأ وعيها بإدراك الكارثة .. وقبل أن يتبين أحساسها حقيقة المصاب .. توقف الصراخ وخفت الضجة ، وسرت بدوها همسات وزفرات .. واندفعت « منى » عائدة إلى الحجرة ، وهي تقول في لهجة هستيرية :
— بابا بخير يا نادية .. لم يحدث له شيء .

واسترخت « نادية » وتلاحقت أنفاسها لاهثة كأنها سقطت بعد طول عدو ، وأحست كأن أعصابها المشدودة قد فككت .. وصوتها الحبيس قد انطلق ، ودموعها المتحجرة قد انصهرت .. فاندفعت في نوبة حادة من البكاء .
وأخذت « منى » تربت جسدها المهتر وتضمها إليها قائلة في حنان :
— كفى يا نادية .. إن بابا بخير .. لقد كان ما به مجرد إغماء .. إن الدكتور عنده الآن .. وقد أكد لنا أنه بخير .. لا تبكى يا نادية .

ولكن نادية استمرت في البكاء .. فقد أحست أنها في حاجة إليه ليعيدها إلى وعيها وإدراكها من الصدمة التي كادت تتركها عاجزة مشلولة .
ومرة أخرى عاد السكون إلى البيت .. إلا من خطوات تسير متسللة .. أو أصوات ترتفع مبحوحة هامسة .

وأخذ الأقرباء يتوافدون على البيت ، واكتظت بهم القاعة والبهو ، ولم نحس

« نادية » رغبة في الخروج للقائهم .. كان بنفسها ميل إلى الوحدة والانتواء .. كانت تكره تحياتهم وثرثرتهم ... وكانت تعتقد أن وجهها سيصدّمهم ، ويثير شفقتهم ورتاءهم .. وكانت تكره الرثاء وتحشى الشفقة .

وظلت « نادية » رافدة في فراشها .. تتلقى الأقرباء مستعينة بظلمة الحجرة على حجب وجهها ، وإخفاء ما تنوّه من تشويه يثير الشفقة ويبعث على الرثاء ، ولفت عنقها جيداً بالإيشارب ورفعت الغطاء حتى أسفل ذقنها .

ورويداً رويداً .. بدأت أقدام الزوار تحف .. وخفتت الهمسات ، وساد البيت سكون شامل .. لا يكاد يقطعه إلا زفرات حارة تتصاعد من صدر الأم .

ولم تستطع نادية النوم .. كانت ترقد في فراشها .. مفتحة العينين تحملى من خلال النافذة المواجهة لفراشها .. وقد أخذت النجوم المتناثرة في صفحة السماء الداكنة التي بدت من النافذة تهتز مرتجفة ، وهبت نسيمات خفيفة تحرك فروع الياسمين المتسلقة على حافة النافذة ، ومن الحديقة علا صفير متقطع لدنيبة استقرت أسفل الشرفة .

كانت الدهشة تجثم على الدار ، وإحساس بالخوف يرسب في أعماق « نادية » .. كانت ترتجف لكل صوت .. وتجزع من كل حركة .. كانت تتوقع أن يعود الصراخ الحاد ليشق أجواء الفضاء مرة أخرى ، وكما تجسد العين أشباحاً للمذعور . كانت أذنا « نادية » تجسدان لها الصراخ في كل صوت ، بل وفي كل سكون .. كانت تنتفض بين آونة وأخرى .. من الأصوات الموهومة التي تنطلق من داخل البيت .

وأخيراً غلبها النعاس ، وهى تحديق في الفراغ ، وتنصت إلى الصرخات الموهومة ، وحملت أحلام الغفوة ، إلى أحضان أبيها .. تضاحكه وتدله ، ويضاحكها ويدلها .. مبدياً لها إعجابه بوجهها ونضارتها بعد عملية التجميل التي سببها لها الحريق .

— ١٥٣ —

وفجأة .. انطلق الصراخ .. مرة أخرى .
 بدأ هذه المرة .. بصرخة حادة .. من أعماق جريحة .. وانتفضت « نادية »
 من أحلامها جالسة في الفراش وهي تحس بقشعريرة تهزها من قمة راسها إلى
 أخمص قدميها .
 وبدأت لها الصرخة في أول الأمر .. بقايا حلم .. أو أثراً من آثار الوهم ،
 ولكن الصرخة تلتها أخرى .. استطاعت « نادية » أن تميز فيها صوت أمها .. في
 نجيب يشق صدرها .
 وفي هذه المرة قفزت « نادية » ، وفي أعقابها « منى » تهول صائحة ، وهي
 نصف نائمة :

— إيه يا نادية ! ماذا حدث لبابا ؟

وانطلقت الصرخات مرة أخرى ، حادة ملحة متوالية . وبدأ البيت في
 حركة مجنونة صاخبة .. كل يتحرك صائحاً بلا هدف ولا قصد ، وبدأ كل
 إنسان في البيت لا يستطيع أن يحدد ما يجب أن يفعل .. حتى سليمان جثا على
 ركبتيه أمام الجسد المسجى باكياً كالطفل ، وهو يصيح في نشيج مرتفع :
 — آه .. يا خويا .. آه يا فاضل .

وبدت « نادية » مشدوهة تائهة ، واندفعت إلى باب الحجرة صارخة ، وفي
 أعقابها « منى » .

وتلقتهما إحدى القريبات في صدرها ، وضمتها إليها باكية ، وحاولت أن تبعد
 بها عن الحجرة ، ولكن « نادية » صاحت متشنجة :
 — بابا .. أريد أن أراه .. بابا .

واندفعت « نادية » إلى الحجرة واجتازت بابها لتجد أباه في رقدته كما رأيته
 آخر مرة .. لا يكاد يبدو للموت به أثر .

ووقفت برهة مشدوهة ، ثم خرّت على الأرض ، وهي تحس بقدميها لا
 تكادان تحملانها ، وأحست بصوت يصيح :

— ١٥٤ —

— يا جماعة .. أخرجوا البنت .. حرام .

وأحست بذراعين تحملانها ، واجتازت القاعة ، وهي تحس بالضجيج والصخب ، ورقدت. على فراشها ، وهي في شبه غيبوبة ، ووسط الصخب والضجيج بلغ مسامعها .. صوت يبدو كأنه يتحدث في التليفون يقول في نبرات هادئة :

— بمزيد الأسف ننعي فقيد العلم الأستاذ محمد فاضل أستاذ اللغة الفرنسية بالجامعة والد نادية ومنى فاضل بالليسيه و ...
ولم تسمع « نادية » بقية الحديث فقد أطبقت بأسنانها على الوسادة تمزقها ، وهي تحس أن أباهما قد أضحى مجرد نعى .

مشكلة تحل .. !

انتهت الجنازة .. ومَرَّ اليوم الصاخب « بنادية » وهى مأخوذة ذاهلة ..
وانصرف المعزون الواحد بعد الآخر .. حتى خلا البيت إلا من بعض
الأقارب .. يقطعون سكون البيت بأصواتهم المبحوحة ، وتنهاتهم المجهدة .
وآوت « نادية » إلى حجرتها .. وصرخات الليل الحادة ما زالت تدوى فى
أذنيها .. وأحداث اليوم تتكأ كأغصان متشابكة فى مخيلتها . وكلها صور بغیضة
مقننة مروعة . الرجال ذوو العمام الذين أقبلوا يتهايمسون . ويتفاوضون ..
والنعش المستطيل الأجرد .. والكباش الذبيح أمام الباب ، وأمها الصارخة فى
ارتباج كأنها كلب يعوى ، وعمتها المنهنة المثيرة . وعمها السائر فى انهيار
المتحرك كالشبح .

والعربة السوداء تتحرك بالنعش .. والعربات الأخرى تلاحقها وهى قد
قبعت فى إحدهما تحلق فى دھول من وراء الأيشارب الأزرق الذى لقت به رأسها
وغطت وجهها .

وزحام المعزين حول الجامع المقام فى العباسية والذى كانت تسميه « جامع
الأموات » لفرط ما شاهدت حوله من جنازات .. والنعش محمول
الأعناق .. وصراخ أمها ينطلق من داخل العربة التى وقفت ترقبه عند تقا
الطرق . وعربات تنطلق .. تثير وراءها سحابة من الغبار فى طرق المقابر
ووقفة أخيرة عند المقابر .. وهى قابعة فى العربة .. ترقب وترقب .. وترقب
وفم فاغر ، وأعصاب مشدودة .. وأحاسيس أرهفت كحد السيف .. وز
يهبط من العربة ، والأم تندفع وراءه صارخة .. تريد أن تحتضنه .. و
يشدها بعيدا .. يحاول مواساتها وهو أجدر بالمواساة .

— ١٥٦ —

ورجال يغدون ويروحون ، وصبية يتزاحمون ويتصايحون وقرب ترش المياه على الأرض .. وآيات تتلى .. والنعش يخرج خالياً ، والأصوات تهدأ والأيدى تشد على بعضها ، والناس يحشدون في العربات مرة أخرى ، والقافلة تعود .. في سحابة من الغبار جديدة .. و .. ويتنهي الامر .

وزادت السكينة في البيت ، وخفتت الأصوات المبحوحة والتهنيدات المجعدة .. ولم يعد هناك من صوت .. إلا صفير « الدنية » التى كانت تقبع أسفل الشرفة منذ ليلة أمس .

وتناقلت أجفان « نادية » وما لبثت أن استسلمت لنوم مضطرب لم يستطع أن ينزعها من آلام يقظتها ، بل أغرقها في نفس الخليط المشوش من صور الفاجعة التى هدت قواها وحطمت أعصابها .. وقضت « نادية » نومها .. بين نعوش تحمل . وكباش تذبح .. ومقابر تفتح .. وصياح يشق أجواز الفضاء .

ومضت الأيام الأولى من الوفاة في صورة قائمة .. خليط من الأنين والنواح .. والقرآن يتلى في أنحاء الدار .. ليلاً الجو .. مهابة ورهبة .

ورويداً رويداً .. بدأت أقدام المعزين تخف .. ويخف معها النواح .. وقلت الثثرة ، ولم يعد في البيت سوى قلة من الأقارب ما لبثت أن اقتصررت في النهاية على العمة « زكية » ، والعم « سليمان » وقرية فقيرة .. جاءت تساعد في خدمة البيت وضيافة المعزين .

بدأ موضوع الحديث يتطور .. لم يعد يدور كله حول المرحوم .. ومرضه ، وأيامه الأخيرة .. بل أخذ يتعداه إلى موضوعات آخر .. عن معاش ، ونقود صرفت ، وديون ، ومجلس حسبي .. وأشياء آخر .. كانت كلها تطرق طرقات عابراً خفيفاً .. أخذ يزداد مع الأيام تمهلاً .. ولحاحاً .. حتى اتخذ مكانه كموضوع رئيسي .. لا يشغل بال الأسرة سواه .

وكان على « الأم » أن تواجه الأمر ، إذ لم يكن مفروضاً على العم سليمان أن يستمر في الإنفاق على كل مشكلات الوفاة .

وفي جلسة غداء .. وقد ضمت المائدة الجميع .. مع بعض الأقارب

— ١٥٧ —

الآخرين .. بدأ الحديث بصورة واضحة .

قالت العمة « زكية » وهى تلوك لقمة بين شديقتها :

— وصل اليوم إعلان من القسم .. يطلب من « لورا » الذهاب إلى المحكمة ومعها بعض الأقارب القريبين لإثبات صحة الوراثة .. من أجل تقسيم التركة .
وهز سليمان كتفيه قائلاً فى استخفاف :

— أى تركة ؟

— البيت .. والأرض .. و

— إني لا أجد هناك ما يستحق التقسيم . يجب أن يبقى كل شئ على ما هو ..
وبمجرد أن تنتهى الضرائب من خصم ضريبة التركات .. نكتب كل شئ باسم البنات .. وتتولى « لورا » الوصاية عليهن أمام المجلس الحسى . ما رأيك يا لورا ؟

وأشارت الأم برأسها موافقة فى إطراق وهى تقول فى لهجة مقتضبة :
— كما تشاءون .

— وإني على استعداد أن أتنازل للبنات عن نصيبى فى الأرض . إنها ما زالت بيننا على المشاع . وأعتقد أن « زكية » لن تمنع فى التنازل أيضاً عن نصيبها ، حتى نتركها كلها للبنات . إنها كلها لا تتجاوز عشرة الأفدنة ، ولا أظن تجزئها ستغنيا كثيراً .

وكانت « زكية » قد توقفت عن المضغ .. وأبخذت تنقل بصرها بين « لورا » وسليمان « فى دهشة مغيظة .. وبدأ لها الاثنان كأنهما قد اتفقا على الأمر عليها ، ولم يكذب سليمان ينتهى من تساؤله حتى هبت فيه صائحة :

— ما هذا الهذيان ؟! إن الأرض كلها ملكى عدا فدانين يخصانك .. سأدفع لك ثمنهما فى أى وقت تريد .

ورفع سليمان عينيه فى دهشة ، وحملت « لورا » فى وجهها متسائلة :

— ونصيب فاضل ؟!

— لقد باعه لى .

— متى ؟!

— بعد أن فصل من الجامعة مباشرة ، كان محتاجاً إلى نقود ، فأعطيته مبلغاً وراء الآخر . كيف كنت تظنينه يصرف عليك وعلى بناتك .. بمعاشه الذى لا يتجاوز البضعة عشر جنيهاً ؟

— ودروسه فى اللبسية ؟

— عشرة أخرى ؟ خمسة عشر ؟ كم تصرفين أنت على البيت ؟ هل تصرفين أقل من سبعين جنيهاً ؟ من أين له كل هذا ؟

— منك أنت ؟

— طبعاً .. أعطيته مائة فى مائة .. حتى ازداد الدين . ولم يجد أمامه أى وسيلة لسداده ، فاقترحت عليه أن أشتري منه نصيبه فى الأرض فقبل .

واندفعت « منى » بين الحاضرين تصيح :

— كذابة .

وهبت فيها العمة صائحة فى حلق :

— اخرسى .. بنت قليلة الأدب .. لم تعرف أملك كيف تربيك ..

— أنت كذابة .. إن أبى لم يقترض منك شيئاً .

وصاحت « لورا » فى « منى » ناهرة :

— منى .. ليس هذا شأنك .. اذهبي إلى حجرتك .. ابقى هناك مع نادية ،

وتناولى معها الطعام .

وكانت « نادية » قابعة فى حجرتها وقد أحاطت رأسها بالإيشارب الأزرق ، وكفت عن الطعام الذى كانت تتناوله فى حجرتها وحدها .. وأنصتت مرهفة سمعها إلى المعركة الدائرة فى حجرة المائدة .

وقفزت « منى » من مقعدها تصيح باكية وهى تجيب على نهر أمها التى أمرتها

بمغادرة الحجرة :

— بل سأغادر البيت كله .. لن أبقى فيه .. ما دامت هي فيه .. إنها تكرهني .. وتكذب على أبنى .. إن أبى لم يكن محتاجاً إلى أحد .

وصاحت « العمة » وهى تنظر إليها فى حنق :

— طبعاً .. كان يأتى إليكم بالنقود .. ليملاً بطونكم .. لماذا تحسون أنه محتاج !! لماذا تحسون أنه يريق ماء وجهه للاقتراض ، مادمت متنعمين هاتين .

ووجهت القول إلى « لورا » وصاحت فى لهجة أشد :

— ماذا كنت تظنين سبب إصراره على الرحيل والتغرب ؟!

تمتم سليمان قائلاً :

— لأنه كان يرى أن كرامته قد مست فى بلده .

— كلام فارغ ، وكذب .. إنه أصرّ على الرحيل لأن موارده لا تكفى

مصاريفكم .. ولم يجد معنى من النقود ما يمكننى من إقراضه ، ولو وجد لما أقرضته .. ليستمر فى دفعه فى بالوعة .. لا تشبع .

وصمت لحظة ثم أردفت تقول لنفسها :

— والآن ، وبعد هذا كله .. مطلوب منى أن أتنازل عن نصيبى فى

الأرض .. من أجل امرأة غريبة حمقاء ، وبتتين لم تتربيا .. ماذا تظنوننى ؟ مجنونة !! إنى لن أتنازل عن قرش واحد من نصيبى فى التركة .

ونظر إليها سليمان فى حنق وأجاب وهو يحاول ألا يفقد أعصابه :

— ما هذا الذى تقولين يا زكية ؟

— إنى أقول ما أعنى .. قرش واحد ، لن أتنازل عنه سأخذ حتى نصيبى فى

هذا البيت .. وفى المعاش .. مفهوم !!

وأحس سليمان أنه يجب أن يبذل جهداً لكى يمنع نفسه من صفعها ، وقال

وهو يضغط على ضروسه :

— على أية حال .. ليس هذا وقته الآن .. سنبحث هذا الموضوع مرة

أخرى .. فى هدوء .

— لن أبحث شيئاً .. إن لى نصيباً شرعياً فى التركة ، وسأخذه .. والأرض

كلها أرضى .

— والبنات ؟!

— عندهما المعاش .

— هل تظنين المعاش يكفيهما للمعيشة والدراسة ؟!

— لقد تعلمتا ما فيه الكفاية .

— هل تظنين أنه يمكنهما من مجرد العيش العادى ؟!

— ليعيشا على قدره .

— هل تعتقدين أن بضعة الجنيهات المتبقية من المعاش بعد أن تأخذ الحكومة

نصيبها منه ، وبعد أن تأخذى نصيبك . يكفيهما .. لمجرد أكل ؟!

— لماذا لا تشتغلان .. هل هما صغيرتان .. يمكنهما أن تشتغلا فى أى عمل ،

وإلا فما فائدة المدارس والتعليم .. إن أصغر منهما يعملن .

وكانت « نادية » قد أسدلت الإيشارب على وجهها وأسرعت تجذب

« منى » التى اتجهت إلى باب البيت تحاول الخروج .

وأحس سليمان أن المناقشة مع زكية قد باتت غير مجدية ، فhez رأسه وهو ييذل

جهده حتى لا ينفجر فيها وتساءل فى هدوء :

— أتريدين حقاً أن تشتغل بنات أخينا ، ونحن على قيد الحياة ؟!

— ولم لا ؟! إن أمهما كانت تشتغل .. أسألهما .. ماذا كانت تعمل عندما

اقتنته !

واحمر وجه « لورا » وبدت طاقتا أنفها ترتجفان وهى تحاول كظم غيظها

وأجابت وهى تنهض عن المائدة :

— إنى حقاً كنت أشتغل .. ولكنى لم أقتنصه ، وأظننى أستطيع أن أعود

للعمل من جديد لأعول ابنتى دون حاجة إلى إحسان من أحد .. حتى ولو كان

عمتهما ، وأظننا نستطيع أن نجد فى بلدى قوتاً ، إذا عزّ القوت هنا .. إنه ما زال

لدينا بيت نأوى إليه هناك .

وهزت زكية كتفها تقول ساخرة :
 — بلدها !! لو كان لديك شيء في بلدك .. مارضيت أن تتزوجى غريباً ..
 أن التي ترضى بالاغتراب لا يمكن أن يكون لديها ما تثسب به .
 ولم تسمع « لورا » بقية الجملة . وهى تتجه إلى حجرتها وكل عضلة في
 جسدها تنتفض ، وغشاوة من الدمع قد حجبت عينها .
 وصاح سليمان بزكية :
 — أنت مجرمة .
 — أنت قليل الأدب .
 — أنت سافلة .. سأتكفل أنا بهن .
 — تتكفل بهن بمرتبك الذى لا يكاد يكفيك .. المفروض أن تتزوج وتكفل
 بنفسك .

— أنت جاحدة .. أنانية .. طول عمرك بلا قلب ..
 — وأنت مغفل .. وستبقى طول عمرك حماراً .
 ونهضت زكية تاركة المائدة وهى تتجه مندفعة إلى الخارج قائلة فى لهجتها
 الحانقة :

— لن أدخل هذا البيت بعد الآن .. أنا لم أحضر إلى هنا لكى أهان .. ليس
 لأجد عندى شيء ، وعندما أمرض أو أحتاج ، لن يتكفلنى أحد .. كل واحد
 يقول: يا لله نفسى .

وغادرت البيت ، وساد بعدها سكون مطبق ، وانفض الباقون حول المائدة
 متسللين واحداً بعد واحد .. حتى لم يبق عليها سوى سليمان وقد جلس متكأً
 على المائدة بمرفقيه سائداً رأسه على كفيه .. مستغرقاً فى تفكير عميق .
 إنه مسئول عن بنات أخيه وزوجته .. والمعاش الذى يستحقونه لا يكاد
 يتجاوز بضعة عشر جنيهاً ، والأرض التى اعتقد أنها تعين بإيرادها فى معيشتهم قد
 استولت عليها زكية ، وهو يعرف عنادها وأنانيتها .. ويعرف أنها لن تقبل أن
 تعينهن بلميم واحد بعد كل ما قالت .

وهو يستطيع أن يعينهن بجزء من مرتبه .. ولكن إلى متى ؟ لقد كان يفكر تفكيراً جدياً في الزواج قبل أن يموت أخوه .. بل لقد أقدم على مشروع خطبة .. من أخت زوجة زميل له في السلاح .
على أية حال .. ليس أمامه سوى تأجيل المشروع .. وأظنهم سيقدرّون السبب .. ولكن هل يمكن أن تنتظره الخطيبة ؟!

وتنتظر إلى متى ؟

إلى أجل غير محدد !

وهل يستطيع بمرتبته أن يفتح بيتاً .. يعول زوجة ، ويتوقع أولاداً .. وهو في الوقت نفسه يعين أسرة أخيه !! هل يستطيع أن يهوى لها ولنفسه .. الحياة اللائقة !!

لا يظن .. إنه قطعاً يجب أن يصرف النظر الآن عن الزواج .. حتى .. حتى ..

حتى يحلها ربنا ؟

كيف ؟ كيف يحلها ؟

بزواج البنتين ! .. أجل هذا هو خير حل .. وتستطيع « لورا » بعد ذلك أن تدبر أمر نفسها بما يبقى من معاش بعد قطع معاش البنتين ، وإن لم تستطع أن تدبره .. فهي تستطيع العيش مع إحدى بناتها .. وإذا استعصى عليها ذلك .. فيمكنها أن ترحل إلى بلدها .. إن لها بيتاً كما قالت .. وأظنها ستفضل العيش في بلدها .. بعد أن تتزوج ابنتها .

أجل هذا هو الحل المعقول ، وزواج البنتين ليس بالأمر المستبعد .. بل إن « منى » تكاد تكون مخطوبة .. ألم تقل ذلك منذ بضعة أشهر ؟ ألم تطلب إليه السعى في إلحاق خطيبها بسلاح الفرسان .. إنه سيحاول ذلك جهده .. وسيسعى إلى إبقائه في القاهرة .. حتى يسر له فرصة الزواج .

هذا نصف المشكلة قد انفرجت .. بقي النصف الآخر .. وهو لا يظن أن

حله يمكن أن يكون بنفس السهولة .

إن « نادية » مخلوقة منطوية .. وقد ازدادت انطواء بعد حادث الحريق .. وباتت لا تكاد تغادر حجرتها .. وازداد نفورها من الناس .. كأنها الحيوان النافر .. ولم تعد تقدر على لقاء أحد إلا وقد لفت وجهها بخمارها الأزرق .. كأنما تخشى أن ينفر الناس منها أو يرثون لها .
وهو قد حاول مراراً أن يرفع عنها النقاب .. حتى يزيل عن نفسها ذلك الوهم المسيطر عليها ، والذي يدخل في روعها أنها قد باتت مخلوقة مشوهة منفرة قاتلاً لها :

— يا نادية يا حبيبتي .. كفى عن هذا البله .. إن وجهك بخير ، وليس به أى أثر للحريق .. هذه الحمرة سرعان ما تزول كما يزول أثر الخدش .. ارفعى عن وجهك هذا الحجاب .

— إن الطبيب قد أمرنى بوضعه .

— لقد أمرك بوضعه لبضعة أيام .. وقد انتهت هذه الأيام .

— إنه لا يضايقنى .

— ولكنه يضايقنا نحن .

— لماذا ؟

— لأننا نريد أن نرى وجهك .

— ولماذا تريدون أن تروه ؟!

— لأنه جميل ، ونحب أن نراه دائماً .

— لم يعد جميلاً .. لقد أضحى شيئاً منفرأ .

— أنت موهومة .. إنه لم يتغير به شئ .. لقد أصبحت بشرته أجمل مما كانت .. صارت أشد ضوئاً .. وأنعم ملمساً .

— والحبوب التى ظهرت به ؟!

— سرعان ما ستزول .

— والقروح التى حول العنق ؟!

— ما لها !!

— أيعجبك منظرها المنكمش المبقع ؟

— ولماذا لا يعجبني ؟

— لا تقاوح يا عمى !!

— ليكن ! لماذا لا تغطين عنقك فقط ! لماذا تخفين كل وجهك ؟ بل لماذا تسجنين نفسك داخل حجرتك ؟ يجب أن تكفى عن هذا الانطواء .. يجب أن تستعيدى ثقتك بالناس وبنفسك .

— وهزت « منى » كتفها ، معلنة فى يأس :

— منذ متى كان عندها ثقة بنفسها .. أو بالناس .. إنك تطلب منها المستحيل .

أجل .. لقد كان يطلب منها المستحيل ، وهى تجلس قابعة فى حجرتها .. عاصبة وجهها .. لا تكاد تكشف عنه إلا وقت الأكل أو الاستحمام .. وبعد أن تأكد أن أحداً لا يراها .

أيمكنها بهذا الانطواء والاحتجاب .. أن تتزوج ؟

أيمكن لنصف المشكلة الآخر أن يحل .. وهو معقد كل هذا التعقيد ؟ لا يظن .

إنها تحتاج لوقت طويل ؛ وهو فى حاجة إلى هذا الوقت . لأن مشكلته لا تحتمل التأجيل . اللهم إلا إذا عدل عنها نهائياً .

وأحس بشيء من الخذلان .. فالمرء لا يستطيع بسهولة أن يجد فرصته الملائمة للزواج ، وهو لم يعد صغيراً .. لقد جاوز الخامسة والثلاثين ، وليس عليه أن ينتظر طويلاً .

وأطلق زفرة حارة .. ورفع رأسه عن كفيه ، ووجد « فاطمة » ترفع بقايا الطعام عن المائدة ، وهى ترمقه بنظرة عطف ، وتتمتم قائلة :

— ربنا لا ينسى أحداً .. لاتحمل لهن هما يا سيدى .. إن لهن رباً كريماً .

— ١٦٥ —

أجاب سليمان ، وهو يغادر المائدة :

— أجل يا فاطمة .. ربنا موجود .

واتجه في خطوات متثاقلة إلى القاعة .. فسمع صوت نشيج خافت يأتي من حجرة الأم .

وطرق الباب .. فهدأ النشيج ، ومضت برهة قبل أن تجيب الأم بصوت خافت :

— ادخل .

ودخل سليمان فوجد الأم تقبع في أحد المقاعد الجلدية وقد احمرت عيناها . وانحنى عليها وربت كفها قائلاً في رفق :

— لا تحملي هماً .. إني سأتكفل بكل شيء .

ونظرت إليه الأم وهزت رأسها في يأس وأجابت :

— أنت طيب القلب .. ولن أنسى جمالك أبداً .. ولكني لا أريد أن أحملك مبثاً لا طاقة لك به .. إن لك حياتك ، ولك مستقبلك .

— ولكني ..

— أرجوك يا سليمان .. دعني أتم حديثي .. أنا لا أريد أن أفقد عطفك علينا وحبك لنا ، وعندما ما تمر الأيام وتحس أننا أضعنا حياتك ، وألقينا بأعبائنا عليك .. ستكرهنا .

— أنت واهمة .. إني لن أضيق بكم قط .

— هذا كلام يقال الآن ، والعاطفة مرهفة .. والعبء لم يثقل كاهلك بعد . ن لي رجاء عندك ، هو كل ما أطلبه منك .

— ما هو ؟

— أن تساعدني على الرحيل بابتني .

— غير معقول .

— أرجوك يا سليمان .. إني لست على استعداد للدخول في مشكلات

— ١٦٦ —

وراثه ، ومعاش ، وتركات ، ولست على استعداد لأن أتحمّل مزيداً من إهانات أختك .

— لن تريها بعد الآن .

— ولست على استعداد لأن أحمل نفسى وابنتى جمائل غريب .

— أنا لست غريباً .

— إنك كأخي تماماً ، ولكنى مع ذلك .. لن أقبل أن أثقل عليك .. إن كل ما أرجوه منك هو أن تساعدنا على السفر .. أنا لا أعرف شيئاً من إجراءاته ، ولا أظنك تتركنى أستعين بالغرباء .

— إني على استعداد لأن أفعل كل شيء ، ولكن لا أوافقك أبداً على السفر .

— دعنى أسافر على الأقل الآن ، لكى أغير هذه المناظر التى تحيط بى . إننى لم أتم ليلة واحدة .. بعد موته .

— إذن سافرى أنت ، ودعى البنتين .

— أهذا معقول ؟

— ومعقول أن تبعديهما عن بلدهما ، وعن أهلها .

— ستعودان فى ظروف أفضل .. دعنا نهرب الآن من هذا الجو الذى رأيته اليوم .. جو البغضاء والضغينة .. إني لست فى حالة تعاوننى على الاحتمال ، ولست أريد أن أفقد أعصابى أبداً .. ساعدنى أرجوك .

— والبنتان راضيتان ؟

— أعتقد ذلك .. إنهما سيغيران ذلك الجو القاتم الذى أحاط بالكارثة التى حلت بنا .

وأطرف سليمان ، وأحس أن المشكلة المستعصية قد حلها الله بأسرع مما كان يظن .

ورفع بصره إلى « لورا » وتساءل :

— وهل ستجدين هناك ما يعينك على عيشة لائقة ؟

— ١٦٧ —

— أجل إن لنا بيتاً في « جاب » وأمى ما زالت تعيش فيه .. وتحيط به مزرعة
طيبة ، وأنا أستطيع أن أعمل في المدرسة هناك .. لا تقلق علينا .. إني واثقة أنى
أستطيع أن أدبر أمرى .. كل ما أريده منك أن تعاوننى على السفر .
— حاضر .. سأفعل لك ما تريد .. بشرط .

— ما هو ؟

— أن تعدينى أن سفرك ليس إلا رحلة لتغيير الجو حولك ، وحول البنتين ،
وأن تعودى ثانية في أقرب فرصة .
— سأحاول .

(١٦)

حنين إلى وداع

مضت بضعة أسابيع وسليمان يحاول أن يحل أن يحل مشكلات الأسرة التي فقدت عائلها .. ولكن المشكلات ازدادت تعقيداً .. وتكشفت مع الأيام ديون جديدة كان فاضل قد استدانها ولم يسدد سوى جزء ضئيل .

ولم يستطع سليمان أن يلين من حدة « زكية » .. ويغير من موقفها العدائى الأنانى .. ولم يجد بداً فى النهاية من التسليم بسفر الأم وابنتها ، كحل مؤقت للمشكلات .. وراحة لمن من جو مليء بالمتاعب ، مشحون بالنكد والهموم . ولم تستغرق إجراءات السفر وقتاً طويلاً . كانت جوازات السفر معدة .. ولم يكن أمام سليمان إلا السؤال عن مواعيد السفن وحجز التذاكر .

ومرة أخرى بدأت فى البيت حركة التجهيز للسفر .. وفى هذه المرة كانت الأحوال أثقل والحقائب أكثر عدداً ، وكان البيت يسوده الاكتئاب ، وتخيم عليه الوحشة .

كانت الأم تعد العدة لسفر بلا عودة .. كانت تحس بعد ما لاقت من عنت أنه لم يعد لها مقام فى مصر .. ولم تجد فى الرحيل مشقة بالنسبة لنفسها .. فقد تملكها بعد وفاة فاضل إحساس باليأس جعلها تسلم بكل شيء ، وكانت تجد فى العودة لبلدها خاتمة طبيعية لحياتها .

أما بالنسبة لابنتها . فقد كان الأمر يختلف كل الاختلاف .. كانت تحس أن تلك البلدة الكائنة فى جنوب فرنسا على قمم الألب العليا .. والتي لم هناك مفر من أن تكون بالنسبة إليها خاتمة المطاف .. ونهاية المستقر .. هذه البلدة النائية لا يمكن أن تكون بالنسبة للصبيتين .. مقراً أخيراً .. وموطناً نهائياً ..

— ١٦٩ —

كانت تحس بمصريتهما تسرى في دمائهما .. كان كل ما بهما مصرى أصيل ..
طباعهما .. وحديثهما .. ومشاعرهما . كان ثمة شيء أعمق منها ومن أمومتها ..
يسيطر على البنتين ويشدهما لهذه الأرض بأهلها .. وأبنيتها .. وشوارعها .
ولم تستطع الأم أن تقنع نفسها .. أن هذا الرحيل يمكن أن يكون بالنسبة
لابنتيها رحيلاً أخيراً .. كانت تعرف أن إحداها ، قد ربطت نفسها فعلاً
بمخلوق .. من هذه الأرض ، ومن بين هؤلاء الناس .. وأنها قد وطلدت عزمها
على العودة إليها .. ومشاركتة حياته .

والثانية .. من يدرى ؟ .. لعلها قد شددت قلبها هي الأخرى بمخلوق آخر ..
لاتفصح عنه .

ومع ذلك فهي لا تجد بداً من الرحيل .. فأعصابها لم تعد تطيق البقاء ثانية .
وهي إن لم تسرع بالرحيل .. فقد تصاب بالجنون ، والإقامة كذلك من الناحية
المادية تكاد تكون منعذرة بطريقة لائقة إلا على أكتاف سليمان .. وهي تكره أن
تكون بابتيتها عبئاً على أحد .. أو أن تقيم حياتها على شقاء الآخرين .
فالرحيل إذن لابد منه الآن ، أما العودة فعلمها عند الله ، هو وحده الذى
يقرر مصير البنتين .

ومن يدرى ! ألا يحتمل .. أن يكون ارتباطهما بهذه الأرض .. مجرد وهم !!
ألا يحتمل .. أن يتعودا الإقامة هناك .. ويستسيغا العيش .. وتصبح هذه الأرض
وهؤلاء الناس .. بالنسبة لهما مجرد ذكرى ؟
من يدرى !؟

واستمرت الأم تطوى الملابس وتضعها في الحقائب .. وكانت « منى و
نادية » تقومان بنفس المهمة في حجرتهما .. ووقفت « منى » بقدميها على
حقيبتها وأخذت تقفز محاولة دك الحقيبة المنبعجة .
ونظرت إليها « نادية » وتساءلت في دهشة :

— ١٧٠ —

- ما هذا !! أجننت ؟
- إنها لا تريد أن تغلق .
- طبعاً .. ما دمت قد حشرت بها كل هذه الملابس .
- وعادت « منى » تقفز فوق الحقيبة فصاحت بها « نادية » :
- كفى عن هذا .. وإلا حطمت الحقيبة .
- كيف أغلقها إذن ؟!
- خففى ما بها .
- هل تأخذينه أنت في حقبتك ؟!
- بعد كل ما أخذت .. غير معقول .. لقد أضحت حقيتى شراً من حقبتك .
- إذن ماذا أفعل ؟! إلى لم أضع بها شيئاً لا ضرورة له .
- إذن أعيدى ترتيب الملابس ثانية .
- يا نهار اسود .. لقد أمضيت ساعتين في رصها !
- أمضى ساعتين آخرين . ماذا وراءك !
- ماذا ورائى ؟! سأذهب إلى النادي .
- لماذا ؟!
- لأرى عصام .
- ألم تريه بالأمس .
- أجل .. رأيته .. وسأراه اليوم . هل لديك مانع ؟!
- المانع لديك أنت .. وهو أنه يجب أن تنتهى الليلة من تجهيز كل لوازم السفر
- لأننا سنرحل في الفجر إلى الإسكندرية لأننا يجب أن
- وقاطعتها « منى » في ملل قائلة :
- أعرف كل هذا .. أعرفه .. ومع ذلك .. لا بد أن أذهب لأرى عصام .
- اتفلقى .. افعلى ما تشائين .. ولكن تأكدى أنى لن أمد يدي إلى

حقيبتك .

واقتربت « منى » من « نادية » وأحاطتها بذراعيها محاولة أن تلين من إصرارها ، ودفعتها نادية قائلة :

— ابتعدى عنى .. لم أعد آكل من هذه الحركات .

— يا نادية يا حبيبتى .. لم تعاملينى بهذه القسوة ؟!

— اذهبى أولا وأعدى حقيبتك .

— وأترك عصام دون أن أودعه ؟!

— لقد ودعته بالأمس .

— ولكنه اليوم شيء آخر غير الأمس .

— ماذا به !! على رأسه ريشة ؟!

— بل على كتفه نجمة .. وأنت الصادقة .

ورفعت « نادية » حاجبها متسائلة فى دهشة :

— متى وضعها ؟

— اليوم .. الآن فى هذه الساعة .

وصمتت « منى » برهة .. ثم وثبت إلى الراديو قائلة :

— يا نهار أبيض .. لقد كدت أنسى .. إن حفلة تخرجه تذايع من الراديو !!

— حفلة تخرجه تذايع ؟!

وأمسكت « منى » بمفتاح الجهاز تديره يمنة ويسرة محاولة تغيير الموجة وهى

تقول فى غيظ :

— لقد قال لى إنها سنذايع .. لست أدري أين .

وردت نادية قائلة :

— ربما فى ركن الأطفال .

ونظرت إليها « منى » فى غيظ قائلة :

— دمك خفيف يا شاطرة .

— ١٧٢ —

وهزت نادبة رأسها متسائلة :

— لست أدري لماذا يذيعون حفلة تخرج مى عصام .. ماذا يمكن أن يذاع منها ؟

— خطبة الرئيس جمال عبد الناصر .

— الرئيس جمال عبد الناصر سيخطب في حفلة تخرج عصام ؟

— أجل ..

— لماذا ؟

— لأجل خاطر عصام . إنه صديقه الروح بالروح .. لقد ذهب إلى الحفلة خصيصاً لأجله .

— يا دمك .. أتظنين الرئيس جمال عبد الناصر فاضى ، لكى يحضر حفلة تخرج مى عصام ؟

وكان الحديث يدور وأصابع « منى » لا تكف عن إدارة مفتاح الراديو .. حتى علا صوته فجأة يقول :

« وقف الرئيس جمال عبد الناصر على المنصة وعلى يمينه القائد العام اللواء عبد الحكيم عامر .. وعلى يساره قائد الكلية الحربية ، وقد أخذ حماة الوطن يمرون رافعى الرؤوس » .

وسمعت صوت الخطوات العسكرية تدق الأرض في قوة .. على دقات الموسيقى .

والتفتت « منى » إلى نادبة في شماتة :

— سمعت .. أصدقت أن الرئيس جمال عبد الناصر . ذهب للحضور حفلة تخرجه ؟

وضحكت نادبة قائلة :

— لقد ذهب حقاً .. ولكن ليس من أجله .

وردت « منى » في عناد :

— ١٧٣ —

— بل من أجله وحده .. ليس هناك من يستحق أن يذهب إليه الرئيس جمال عبد الناصر سواه .

وتعالت النداءات العسكرية .. وسمع صوت يهتف ..
« السرية الثالثة لليمين انظر .. »

وقفت « منى » صائحة :

— هل تسمعين .. السرية الثالثة .. إنها سريته .. إن هذا صوته .. إلى أميزه من آلاف الأصوات . هل سمعته ؟!

وضحكت نادية قائلة :

— اهدئي يا منى .. وكفى عن هذا الصراخ .

— قولى .. هل سمعته ؟!

— أجل سمعته .

— إياك أن تكذبينى مرة ثانية .. عندما أقول لك إن الرئيس « جمال عبد الناصر » سيحضر الحفل .. يعنى سيحضره .

— وعندما تقولين إنه ذهب من أجل سى عصام .. يعنى من أجله .

— أتتهئين .. لماذا ذهب إذن ؟

وكانت الموسيقى العسكرية قد خفتت .. وعلا صوت المذيع يقول فى

حماس :

« أيها المواطنون الرئيس جمال عبد الناصر يقف أمام الميكروفون ليلقى خطبته فى جنود الوطن وحماة المستقبل . »

ومضت فترة قصيرة .. علا بعدها صوت الرئيس جمال عبد الناصر يقول فى

هدوء :

« أيها الجنود .

« أشعر اليوم وأنا أقف بينكم فى هذا المعهد أن مصر تمر بنقطة تحوّل فى تاريخها

الحديث .

« لقد كنا حين نقف بين أرجاء هذا المعهد .. فى أيام خلت .. نشعر أن مصر غنية بالرجال ، وأن رجالها لا تنقصهم الشجاعة .. ولا تعوزهم القدرة على التضحية .. ولا الإيمان بأوطانهم والثقة فى أنفسهم .. ومع ذلك .. ورغم شعور الثقة الذى كان يملؤنا بأنفسنا وبأوطاننا .. كان ثمة إحساس بالمرارة .. يرسب فى أعماقنا .. وشعور بالحسرة يفعم قلوبنا .. لأننا كنا نعلم أن كل ما نملك من رجال وتضحية وشجاعة وإيمان .. ينقصه الدعامة التى يمكن أن تجعل لكل ما نملك قوة ومضاء .. كان ينقصه السلاح .

« ولم تكن حاجتنا إليها الإخوان إلى السلاح .. عن فقر ، لا .. ولا كانت عن تهاون .. وإنما كانت نتيجة التحكم الأجنبي فىنا .. وسيطرة المستعمر علينا .
« وعندما أقف اليوم بينكم .. »

ومدت « منى » يدها إلى الراديو تحوّل المؤشر إلى محطة أخرى وقفزت نادبة إلى الراديو هاتفة :

— أيتها الغيبة .. إن هذا هو ما أتى من أجله .. اتركى الراديو .

وضحكت « منى » قائلة :

— ما شاء الله .. منذ متى أصبحت سياسية !؟

— هذه ليست سياسة .. هذا هو مصيرنا .. إنه سيتحدث عن صفقة الأسلحة .

ومرة أخرى علا صوت الرئيس « جمال » فى الراديو يقول :

« .. مصر التى كانت تملؤها المرارة .. وتفعمها الحسرة ، تستطيع اليوم أن تتنفس فى حرية .. تستطيع أن تحس بالطمأنينة والأمن .. لأنه لم يعد .. يعوزها السلاح .. لقد كنا فيما مضى أغنياء بالرجال والشجاعة والتضحية والإيمان .. واليوم نشعر أننا أغنياء بكل هذا .. وبالسلاح أيضاً ! هذه يا إخوانى .. هى نقطة التحول التى نمر بها .. »

ونظرت « منى » إلى علام الاهتمام والإصغاء البادية على وجه نادبة وتساءلت ضاحكة :

— ١٧٥ —

— هل اطمأنت إلى السلاح ؟
وأشارت « نادية » برأسها بالإيجاب ، واستمرت في إصغائها .. وعادت
« منى » تتسائل ساخرة :

— هل ستأخذينه معك إلى « جاب » للدفاع عنا ؟
وجثمت سحابة تجهم على وجه « نادية » وعادت « منى » تقول :
— لماذا لا تخبين ؟

وصمتت « نادية » برهة ثم أجابت في صوت خافت :
— إن وصولنا إلى « جاب » لا يعنى انقطاع إحساسنا بمصر . لا شيء يا
« منى » يستطيع أن يقطع صلتنا بها .. هل تكرهين أن تكون مصر حرة ..
آمنة ؟

— كيف أكره هذا .
— أن هذا السلاح سيحقق لها الحرية والأمن .

وصمتت « منى » .. وارتفع صوت الرئيس « جمال » في الراديو يردد :
« لقد كانت يا إخوانى حادثة ٢٨ فبراير الماضى ، حادثة الاعتداء اليهودى
المدير الذى وصفه مجلس الأمن بأنه اعتداء مدبر وحشى على جنود آمنين
مطمئنين ، لقد كان هذا الاعتداء الذى دبره بن جوريون والذى شكر من أجل
تنفيذه رجالا من الجيش الإسرائيلى . كان هذا الاعتداء هو ناقوس الخطر ، ونحن
نحمد الله عليه .. فقد استطاع .. أن ينبهنا إلى مواطن الشر .. وكان مصاب ٢٨
فبراير رغم فداحته .. نعمة علينا لأنه كان لنا بمثابة نذير استطعنا به أن نتلافى
مصائب أكبر وندفع أخطاراً أشد » .

ونظرت « منى » إلى نادية .. فى إصغائها إلى الراديو وهزت كتفها .. ثم
أمسكت بحقيبتها .. وقلبتها رأساً على عقب قائلة :
— اسمعى .. سأعيد ترتيبها .. كما طلبت .. ولكن عندما يحل الموعد .. لن
يستطيع شيء منى من الذهاب إلى النادى .

— إنه لن يذهب إلى النادى قبل أن تنتهى الخطبة وينفض الاحتفال ..
وستكونين خلال ذلك قد استطعت أن ترتبى الحقيية .
— استطعت أو لم أستطع .. سأذهب إلى النادى فى موعدى .. ولو أدى
الأمر إلى السفر بالحقيية مفتوحة وملابسى فى يدى .
وضحكت « نادية » .. قائلة :
— سأتم أنا ترتيبها .. فقط أرجوك أن تدعيني أسمع .
— خلاص .. أصبحت وطنية .. إن شاء الله سيدخلونك فى مجلس قيادة
الثورة ..

ولم تجب « نادية » وعادت تنصت إلى صوت الرئيس « جمال » يقول :
« منذ ذلك اليوم بدأنا ندقق فى معنى السلام ، وفى معنى توازن القوى فى هذه
المنطقة .. فماذا وجدنا أيها الإخوان ! وجدنا التوازن يعنى تسليح إسرائيل ،
ومنع السلاح عنا . إننا استطعنا أن نحصل على معلومات أكيدة تثبت أنهم فى
الوقت الذى يمنعون عنا السلاح .. يعملون على تموين إسرائيل به .
« إنهم يريدون أن يرونا عزلا مستضعفين .. يريدون أن نبقى دائما تحت
رحمتهم .. لكى نطلب نجاتهم إذا ما اعتدى علينا .
« تلك هى الخدعة الكبرى التى ينادون بها فى أنحاء العالم . تلك هى أسطورة
السلام فى الشرق الأوسط ومهزلة التوازن » .
وعلا صوت الأم من حجرتها منادية :
— نادية ..

وتركت « نادية » الراديو واتجهت إلى أمها تجيب :
— نعم يا ماما .

— هل أخذت اللعبة المستديرة التى بها العقد والأسورة ؟

— لا .. لم آخذها .. لقد كانت فى درج « الشفونية » .

— إنها غير موجودة .

— قد تكون موجودة في درج آخر .. سأبحث عنها .

وتركت نادية الحجره .. وأخذت « منى » ترص الملابس في حقيبتها .. وقد بدأ عليها القلق ، وهى تسمع صوت الرئيس « جمال » ينهى خطبته قائلاً :
« بهذا — أيها الإخوان — ستسير مصر في خطها قدما إلى الأمام .. لا ضعف ولا استسلام بل تصميم وعزم .. إننا سنسلح جيش مصر حتى تتمكن جميعاً من أن ندافع عن حدود مصر ونرد العدوان بالعدوان .. »

ودوت بعد ذلك عاصفة من التصفيق والهتاف .. ولم تحاول « منى » أن تسمع تعليق المذيع .. بل قذفت بقية الملابس التي امتلأت بها أرض الغرفة .. وخرجت من القاعة إلى خارج البيت دون أن يراها أحد .. وسارت تحت الخنطى في طريقها إلى النادى .

وبقيت « نادية » في حجره أمها تبحث عن اللعبة المنشودة حتى وجدت ، ثم أخذت تعاونها في حزم الأمعة ورص الملابس حتى انتهت من كل ما بحجره أمها . وعادت إلى حجرتها مرة أخرى ، فوجدت ملابس « منى » مازالت مكذسة في الحقيبة .. فأنهمكت في ترتيبها حتى انتهت منها ، وأحست بالتعب يملكها ، فخرجت إلى الشرفة تستنشق نسمات الليل ، المشبعة بعير الياشمينة التي تسلفت الشرفة .

ودقت الساعة الثامنة والنصف وأحست أن غيبة « منى » قد طالت .. وتملكتها رغبة في أن تلحق بها لتحضرها من النادى .. ورفعت أصابعها لتحس وجهها وعنقها ، وتملكتها الرهبة .

إنها لا تجسر على مواجهة الناس ، بوجهها هذا .. لقد باتت تخشى لقاءهم جميعاً ، فكيف تغامر بالذهاب إلى النادى لعرض نفسها .. للقاءه .. هو .

كيف تجسر أن تواجهه .. بوجهها المسلوخ .. وعنقها المقروح ؟!
لا .. لا .. يجب أن تأوى إلى فراشها .. يجب أن تدع الليلة الأخيرة تمر بها على خير .. ومع ذلك أحست بالحنين يزداد بها إلى وداع أخير .. ولم تستطع مقاومة

— ١٧٨ —

الرغبة الجارفة التي تدفعها إلى أن تطوف بالنادى .. طوفة أخيرة .
ومدت يدها إلى القناع الأزرق فلفت به رأسها وأحكمته على عنقها ثم رفعت
« ياقة البلوزة » وضمتها إلى رقبتها . وبخطاً وثيدة تسللت من الباب ، واندفعت
في الطريق تتلفت حولها ، في خشية وذعر .

(١٧)

دعها للقدر ..!

وصلت نادية إلى النادي ، ودلفت إلى الحديقة المتسعة من الباب الخلفي ، وكانت الظلمة قد خيمت في أرجاء الحديقة ، فترامت أطرافها وبدأت ملاعبها بلا حدود إلا من أطراف الجازورينا الشاحبة المهترئة أمام هبات النسيم .

وتطلعت « نادية » إلى الشرفة المستديرة التي تضم النافورة والكافورة الضخمة وقد تناثرت فيها المناضد واحتشد الأعضاء يتبادلون الأحاديث والضحكات ، وتملكها خوف من الضوء وخشية من نظرات الناس ، وتمهلّت في سيرها مستترة بالظلمة وراء أسوار التنس العالية ، وأخذت تتطلع في رهبة ووجل إلى ملعب « الكزوكيه » الذي بدت رقعته المستطيلة الخضراء مضيئة وسط الحديقة المظلمة وقد علتها مصابيح النيون المعلقة في الأسلاك المشدودة من أطراف الملعب .

وفجأة ارتعدت أطرافها وتلاحقت أنفاسها ، وتعالّت دقات قلبها متتابعة في عنف .. عندما أبصرت الشبح الطويل .. يسير الهوينى في الرقعة الخضراء ، ثم ينحنى بمنكبيه العريضتين ليضرب الكرة الملونة في الضوء الأبيض .

وقفت في مكانها برهة ، وقد علقت به عينها تتبعه في خروجه الوريدة وراء الكرة بجوار زملائه في الملعب ، وتمنت لو استطاعت أن تعدو إليه لتودعه وتنبه أنها ستسافر غداً .. وأنها قد لا تعود .. وتمنت لو استطاعت مجرد الاقتراب .. لتلقى عليه نظرة وداع قبل الرحيل ، ولتختزن من مرآة ما يملأ ذكرياتها .

ولكن يدها امتدت بلا وعى لتجس عنقها وتتحسس صفحة وجهها .
وارتجفت أصابعها ، وضغطت بأسنانها على شفتها السفلى وهي تحس بصرخة

— ١٨٠ —

نجيب توشك أن تنطلق من أعماقها .

كيف تجرؤ على هذا التفكير !!

كيف يخطر ببالها أن تقدم على هذه المغامرة !!

بل كيف جرؤت على مجرد الاقتراب من النادي !!

أى رغبة حمقاء دفعتها إلى المجيء هنا ؟!

وأى وداع هذا الذى ترجوه ؟!

وأحست برغبة فى أن تطلق ساقها للريح ، وتنجو بنفسها قبل أن يبصرها أحد .

ولكنها لم تكذب تستدير لتعود من حيث أتت حتى أحست بوقع أقدام تقترب ورائها من المرثم سمعت صوتاً يهتف بها :
— نادية .

وتلفتت فى خوف لتجد « منى » وقد وضعت ذراعها فى ذراع عصام ، وسار بجوارهما .. شبح نحيل طويل .. استطاعت « نادية » أن تميز فيه صبرى برأسه الصغير ومنظاره السميكة الذى أخذ يلمع فى الظلمة .
وبحركة لا إرادية ارتفعت يدها لتضم الإشارب حول رأسها وتحكم ياقة البلوزة حول عنقها .

وهتف صبرى فى لهفة :

— نادية !! كنت هنا فى النادي ؟

وترددت « نادية » برهة قبل أن تجيب ، ثم هزت رأسها وقالت :
— أجل .

— لماذا لم نرك إذن ؟

— لقد .. كنت أتمشى فى الحديقة .

— تتمشين فى الحديقة ..! ولماذا لم تأتى لتجلسى معنا ! هيا بنا نعد .

وبدا القلق على « نادية » ونظرت إلى الشرفة المزدهمة وإلى أنوارها المتألعة ،

وأجابت وهي تحاول الاتجاه بهم إلى الباب الخلفى للحديقة :

— لم يعد هناك وقت .. لا بد أن نعود الآن إلى البيت .

وقال عصام :

— لا فائدة من نادية .. إنها لم تعد تحبنا .. ألا تجلسين معنا بضع دقائق .. على

سبيل الوداع ؟

وقال صبرى راجياً :

— أجل بضع دقائق فقط .. أأين يوحشك فراقنا !! أأين يوحشك البعد عن

نادينا ؟!

وأحست نادية بالحناء يضيق عليها ، ولم تجد ما تستطيع الاعتذار به عن

الجلوس معهم بضع الدقائق التى يطلبونها ، وتملكها الذعر عندما وجدت أنها

توشك أن تظهر بوجهها وعنقها فى الضوء أمام الناس ، وبطريقتها اللاإرادية

مدت يدها إلى عنقها ونظرت إلى « منى » متوسلة .. قائلة فى ارتباك :

— طبعاً سيوحشنى الفراق .. إني أود أن أجلس معكم ، ولكن ...

وقاطعها صبرى قائلاً :

— ولكن ماذا ؟! لا يمكن أن تبخل علينا ببضع دقائق ، نودعك بها .

وقالت « منى » وهي تنظر إلى يد « نادية » التى أخذت تتحسس عنقها فى

الظلمة ، وقد بدا الخوف على ملامحها :

— دعونا نتمشى .. إن جلسة النادى أصبحت مزعجة .

ثم جذبت عصام من يده وسارت تجاه الباب وهي تردف قائلة :

— هيا بنا إن الطريق هادىء ويمكنكما أن توصلانا إلى البيت فنستطيع

التحدث دون أن نضيق وقتاً .

وهز صبرى رأسه قائلاً وهو يضحك :

— موافق بشرط ألا نسير بسرعة .

وسار الأربعة فى الشارع الخلفى للنادى متجهين إلى شارع الخليفة المأمون ،

وكانت « منى » ما زالت تتأبط ذراع عصام ، وسار صبرى مجاوراً لنادية وهو ينظر إليها بطرف عينيه وهى تحس بخوف من نظراته وتضم الياقة حول عنقها كلما اقتربوا من أحد مصايح الطريق .

ومضت برهة صمت كان صبرى يحاول خلالها كعادته أن ينتقى شيئاً يحدث به نادية ، وكانت نادية شاردة فى مدحت التى لم تستطع فى وداعها له إلا أن تطوف به طواف الأشباح ، وكانت « منى » تفكر فى « نادية » وخوفها من الناس وإحساسها بالتشويه ، وكانت تحس أن فى سفرهم خير علاج لتلك العقد التى أصابها بعد الحريق ، وكان عصام يفكر فى يومه الحافل وفى غده المجهول .. يفكر فى « منى » ، وفى بذلة الضابط التى ستنتهى غداً من عند « الترزى » ، وفى سلاح المشاة الذى ألقى به ، وفى خطبة « جمال عبد الناصر » عن صفقة الأسلحة ، وفى أشياء كثيرة مختلطة مضطربة .

وكانت « منى » أول من أحس بطول الصمت ، فقالت ضاحكة :

— ما شاء الله ، أتوون أن تقضوا المسافة هكذا صامتين ؟

ثم وجهت الحديث إلى صبرى ساخرة :

— إيه يا صبرى !! لقد كدنا نصل ، وأنت لم تنطق بحرف .. أهذا هو الوداع

الحار الذى تنوى أن تودعنا به ؟

ونظر صبرى إلى نادية وأجاب قائلاً :

— لقد كنت أود أن أقول لنادية أشياء كثيرة ، ولكنى أجد الوقت لا يكاد

يسمح إلا بالصمت .. لقد حاولت أن أراها من قبل ، وانتظرتها فى النادي

كثيراً ، وسألت عنها « منى » فى كل مرة أراها .. فكانت تقول لى : إنها لا تخرج

من البيت ، ولا تلقى أحداً .. حتى الحديث فى التليفون لم أفلح فيه ، واليوم لا

أكاد ألتقى بها .. حتى أجدها تبخل علينا بوضع دقائق وداع .. فماذا أقول لها ؟!

وأجاب عصام قائلاً :

— قل أى شيء .. حدثها عن صفقة الأسلحة التى قلبت رأسنا بها .

— ١٨٣ —

وضحك صبرى قائلاً :

— تقصد الأسلحة التى جعلت منك ضابطاً بحق ؟

— أنا لا تهمنى الأسلحة .. أنا نائب أحكام .

— ليكن .. لقد جعلت منك نائب أحكام ، فى جيش به أسلحة .. هل تعلم

نه لولا صفقة الأسلحة هذه ...

وقاطعته « منى » وهى تضحك قائلة :

— عجيبة !! إن صبرى متحمس للأسلحة ، أكثر منك ؟

وأجاب عصام قائلاً :

— لأنها أسلحة روسية ، لو كانت أسلحة أمريكية ، لما ..

— كلام فارغ .. إني متحمس .. لأننا لم نعد بعد عزلاً ، لقد أضحي عندنا

السلاح الذى نستطيع أن ندافع به عن أنفسنا .. إني أتصور نفسى على إحدى

طائرات الميج .. أو داخل دبابة ستالين ...

وقاطعته نادبة ضاحكة :

— لماذا إذا لم تدخل الحرية ١٩ ؟

ورفع صبرى سبابته وأشار إلى منظاره السميك قائلاً :

— أدخل الحرية بهذه ؟

وقال عصام ضاحكاً :

— ولم لا ؟! تستطيع أن تحبس على التخت .

— على أية حال إني على استعداد للتطوع فى أية معركة .. إذا أحسست أنى

سأكون ذا فائدة .. أقل فائدة .

وتساءل عصام :

— حتى ولو كانت معركة مع روسيا .

— ولماذا نتعارك مع روسيا .. إن عدونا هو إسرائيل ، وإنجلترا .

— لماذا تتهرب من السؤال أيها الشيوعى ؟ إني أسألك . هل أنت على استعداد

للتطوع فى أى معركة ، حتى ولو كانت ضد روسيا ؟
وتوقف صبرى وتساءل غاضباً :
— هل لديك شك فى هذا ؟! هل تظننى خائفاً ؟! إني أحب روسيا .. لأنها
تعاوننا ، وليس هناك عاقل يقول لك اكروه من يعاونك .
وضحكت نادبة وقالت وهى تجذب صبرى من ذراعه قائلة :
— لا تغضب يا صبرى .. إنه يضحك معك .
— لا .. إنه لا يضحك .. إنه دائماً يتهمنى بأنى شيوعى .
وقال عصام :
— ألم تقل لى أنت إنك تحب الشيوعية ؟
وقالت « منى » وهى تضحك :
— انتهينا .. فضوها سيرة .. بلا شيوعى بلا أمريكانى . لقد آتيتما لتودعانا ..
لا لتتعاركا .
وعبر الأربعة شارع الخليفة المأمون إلى منشية البكرى ، وساروا فى الطريق
المؤدى إلى البيت وقد أطرق كل منهم وانطلق فى سرحانه .
وكان صبرى أول من أفاق من شروده وهو يحس أن البيت يقرب دون أن
يقول شيئاً .. لقد كان يود لو استطاع أن يخلو « بنادية » ليحدثها عن أشياء
كثيرة .. ليقول لها إنه يضعها فى خطط مستقبله كنواة لهذه الخطط ، وإنه يعتبرها
دعامة أحلامه ، ومبعث آماله ومنبع أمانيه .
كان يود أن يقول لها ما عجز طوال السنين الماضية عن قوله ، ولكنه كان يحس
أن الفرصة قد فاتت ، وأن بضع الدقائق الباقية ، لن تسمح له بأكثر من أن يقول
لها وداعاً .
وكان يعلم أيضاً .. أنه — حتى لو وافته الفرصة — فلن يقول شيئاً ، بل
سيضيعها كما أضاع غيرها .. لشد ما يحس بالعجز أمامها .
وأحس أنه يجب أن يقول شيئاً ، فمن غير المعقول أن يتركها تسافر .. دون أن

معر أن ثمة خيطاً يربط بينهما .
وأخيراً قال فيما يشبه الهمس :
— هل أستطيع أن أكتب إليك ؟
وأفاقت « نادية » من شرودها ، في الشبح الطويل القامة ، العريض
نكبين ، الذى مازال يسير الهوينى وينحنى على الكرة فى الرقعة الخضراء تحت
ضوء الأبيض .

أفاقت « نادية » من شرودها قائلة :
— طبعاً .. طبعاً .. يسعدنى أن تكتب لى .
— هل أستطيع أن أعرف العنوان ؟
وأجاب عصام :
— إنه معى سأعطيه لك عندما نعود إلى النادى .
وكانوا قد اقتربوا من البيت فتمهلوا فى السير .. حتى توقفوا على بعد خطوات
ن باب الحديقة .

ومدت « منى » يدها إلى عصام فأبقاها فى كفه برهة وقال وهو يشد عليها :
— لن تتأخرى .
— سأعود بمجرد أن تطلب عودتى .

— أنا أطلب عودتك من الآن .. إنى لا أريد أن تسافرى .. إنى على أتم
ستعداد لأن نتزوج الآن إذا قررت البقاء .
وخيمت على وجه « منى » الضاحك .. سحابة حزن .. لم تستطع طبيعتها
لمرحة أن تبددها ، وحاولت جهداً أن تكسو وجهها ابتسامة ، وقالت ، وهى
شد على يد عصام :

— يجب أن نسافر الآن يا عصام . إن أمى فى حالة معنوية سيئة جداً ، وهى فى
شد الحاجة لأن تغير المكان والجو ، وأنا لا أستطيع أن أنخل عنها فى هذه
ظروف .. يجب أن نسافر سوياً ، وسنعود كلنا عندما تنصلح الأحوال .

— ١٨٦ —

- أى أحوال ؟
- أحوالنا جميعاً .. أنت لا تدري الظروف القاسية التي مررنا بها خلال المدة التي أعقبت موت أبى .
- إذن دعى ماما تسافر وحدها لتستجم .
- وضحكت « منى » فى مرارة قائلة :
- إن المسألة ليست مجرد استجمام يا عصام .. إن بقاءنا هنا الآن يكاد يكون مستحيلاً .. إن حياتنا أضحت سلسلة من المشكلات .
- وهز عصام رأسه كأنه لا يصدق وقال فى يأس :
- أعتقد أنك تستطيعين البقاء على الأقل أنت ونادية .
- إن نادية فى حاجة إلى السفر أكثر من أمى .
- ثم همست بصوت خفيض :
- إنها لا تجسر أن تلقى الناس منذ الحريق .
- وتساءل عصام فى دهشة :
- وله ؟
- لأنها تعتقد أن وجهها قد شوه .
- وهل شوه حقيقة ؟ هل ترك الحريق به أثراً ؟
- ألم تلحظه ؟
- لم أحقق فيها .. لقد وقفت طوال المدة فى الظلام .
- لأنها تخشى أن يراها أحد .
- ولهذا رفضت الدخول فى النادي ؟
- طبعاً .
- ولكن هل أصابها التشويه حقاً ؟
- وهزت « منى » رأسها فى حيرة وحزن وأجابت هامسة :
- لا أظن .. أنا لا أستطيع أن أحكم بالضبط عما أصابها .. أنت تعرف أن

نسان لا يحس كثيراً بما يصيب القريين منه من تغير .. إلى أراها كما هي ..
 نيلة ، رقيقة ، حبيبة .. قد يكون لون وجهها أضحى أكثر احمراراً .. وأشد
 ماناً ، كالجرح حين يقشر .. ولكنى لا أرى في ذلك تشويهاً ، والطبيب قد أكد
 أن هذا سيزول مع الزمن .

— أهذا هو ما يجعلها تهرب من الناس ؟

وهزت « منى » رأسها وقالت في تردد حزين :

— و .. وعنقها .. لقد ترك فيه الحريق أثراً واضحاً .. ولكنى لا أحس أبداً
 نه شوهها .. إن « نادية » لا يمكن أن تشوه ..
 وأطرق عصام في حزن وتمتم قائلاً :

— مسكينة .. نادية .

— ولكنها تستطيع إخفاءه .. أؤكد أنك لو رأيتها في النور ، وهى تلف رأسها
 بالإشارة وتحكم الياقة حول عنقها . لما لاحظت بها أى تغير .

— إنها تحتاج إلى الكثير من الحب ، والحنان .. لكى تعاودها الثقة بنفسها ،
 ولكى تقتنع أن ما أصابها لا يمكن أن يترك أثراً في نفوس الغير .. ليتنى أستطيع أن
 أفعل لها شيئاً .

— لا فائدة .. إن الرحيل خير علاج لها .. يجب أن ترى أناساً جدداً .. لا

تخشى مواجهتهم .

— على العكس .. إنها ستستمر في انطوائها .. ليتها تبقى .

ثم نظر إلى صبرى ، وقد وقف مع نادية على مقربة من باب الحديقة ، وقد أخذ
 يرقبها في إعجاب ويتحدث إليها فى وله ، وهمس عصام فى ثقة :

— إنه يستطيع أن يفعل لها شيئاً كثيراً .. لا تتصورى كم يحبها ؟

وهزت « منى » رأسها هزة الشك وقالت فى مرارة :

— لا أظن .. ليس هو .. إن الذى يستطيع .. لا يكاد يحس بها ، ولا أظن

باتت تجرؤ على الاقتراب منه .

وهز عصام رأسه في يأس هامساً :

— مسكينة !

وحاولت « منى » أن تنفض عنهما سحابة الحزن التى لفتهما فقالت
ضاحكة :

— دعها للقدر .

وأجاب عصام فى مرارة :

— وماذا نملك غير ذلك !

وأجابت « منى » فى إيمان :

— إبنى واثقة أن الله لن يخذلها .. إنها طيبة .

وكانت « نادية » قد بدأت تقلق ، ولم يكن صبرى قد استطاع فى تلك
الفرصة التى انفرد بها أن يحدثها عن شىء . أكثر من صفقة الأسلحة وفائدتها ،
وعدم تقييدها مصر بأى قيد .. وعما يمكن أن تجنيه .. من الحياض الإيجابى ..
وعن موقف الغرب الموالى لإسرائيل ، وعن الفضيحة التى كشفها « جمال عبد
الناصر » عندما قرأ الوثيقة الرسمية التى حصلت عليها المخابرات المصرية ، والتى
تكشف الأسلحة التى سلمتها بريطانيا لإسرائيل.

واندفع صبرى يردد عن ظهر قلب :

— تصوّرى : ٢٠ متيور و ٥٠ يوسناخ و ٢٠ موسكيتو .. وتسعين

طائرة .. يعطونها لإسرائيل .. عدا ١٠٠ شيرمان والستاج هاون ١٢

وكان يمكن أن يستمر صبرى فى سرد أرقام الأسلحة .. لولا أن بدأت
« نادية » تتحرك فى قلق ، وأحس صبرى أن الهنئيات التى منحها الوداع .. قد
قضاها فى السياسة والحرب ، وكره من نفسه هذا العجز الذى يشل لسانه عن أن
يحدثها عما يفيض به صدره .

مدت « نادية » يدها مودعة .. وهى تهتف بمنى :

— هيا يا منى لقد تأخرنا .

— ١٨٩ —

وهمس صبرى فى لهجة ذائبة :
— ألن يضايقك أن أكتب إليك ؟
وأجابت نادىة مؤكدة ؟
— إننى أحب أن تكتب لى .
ثم أردفت ضاحكة :
— ولكن .. لا تكتب عن صفقة الأسلحة والحياد الإيجابى .. فقد قلت لى ما
الكفاية .
وقال صبرى معتذراً :
— هل ضايقتك ؟
وهزت « نادىة » رأسها مؤكدة :
— أبداً .. لى أمرح .
وكان عصام و « منى » قد اقتربا منها ، وقال عصام وهو ينظر لى نادىة فى
لف :
— سيوحشنا فراقك يا نادىة .
وأجابت نادىة :
— وأنتم أيضاً .. سيوحشنى فراق كل شىء فى مصر .
— عسى إذن .. ألا تطول غيبتكم ؟
— تقصد غيبة منى ؟
— بل غيبتكم جميعاً .. إننا نحبكم كلكم .
ومنّ الله على صبرى .. بأن ينطق شيئاً .. مما فى صدره فقال مؤكداً :
— وأنا أيضاً ؟
وتصافح الجميع ، واختفت الفتاتان داخل البيت ، ووقف صبرى يحملق فى
للما التى ضمت « نادىة » وقد فغرفاه فى ذهول .
وجذبه عصام من ذراعه قائلاً :

— ١٩٠ —

— هاى .. أنتوى أن تقف هكذا إلى الصباح ؟!

وأجاب صبرى فى وله :

— ليتنى أستطيع .

— ماذا قلت لها ؟

— قلت لها .. قلت لها .. لقد حدثتها عن صفقة الأسلحة .. عن العشرين

متبور ، والخمسين ..

— يخرب بيتك .. أهذا كل ما استطعت أن تقول ؟! أهذا حديث يقوله

المحبون ساعة الوداع ؟

وهز صبرى رأسه الصغير فى يأس وحيرة وقال :

— لست أدرى يا عصام كيف تنطقون أحاديث الحب ، لا أعرف .. إنى

أحس بالحنج يشل لسانى عندما أحاول أن أنطق بكلمة حب .

وجرّه عصام من ذراعه قائلاً فى سخرية :

— شاطر .

— على أية حال .. سأكتب لها .. سأكتب لها ما عجزت عن قوله .. إنها هى

نفسها حذرتنى من الكتابة عن صفقة الأسلحة .. سأقول لها .. إنها أعز

وأجمل .. ما فى حياتى ..

(١٨)

نحن لا نصنع السراب !

كانت الساعة الرابعة عندما وقفت عربة الأجرة التي تحمل الأسرة الراحلة أمام كشك تفتيش الجمرك في ميناء الإسكندرية وهبط منها سليمان متجهاً إلى داخل البناء المزدهم بالمسافرين يتبعه أحد الحمالين بالحقائب ، وما لبث أن خرج يستدعى الأم وابنتها ، ووقف الثلاثة أمام موظف الجمرك يسألهن الأسئلة التقليدية عما يحملن وهل معهن نقود أو ذهب .

ومضت فترة في إجراءات لم تدر « نادية » كنهها .. وقدم سليمان إحدى الأوراق للأم فوقعت عليها دون أن تعرف ما بها ، وبعد تفتيش شكلي على الحقائب ، تحرك الثلاثة بحقائبهن إلى الخارج متجهات مع سليمان إلى الباخرة . وكان اليوم أحد أيام أكتوبر الخائفة .. التي يحاول الحر أن يؤكد في عناد سمج أنه لم يذهب بعد ، وأنه يستطيع أن يعاود هجماته المحرقة رغم حلول الخريف . ورغم وجود البحر على قيد خطوات .. لم تحس « نادية » بنسمة تندي وجهها الذي كشفت عنه لأول مرة بعد أن أحاطته « بالإشارب » إحاطة محكمة فلم يبد منه سوى صفحته المواجهة ، وحجبت الأذنين والسافيتين والجزء الأكبر من جانب الخدين .. وربطت الإشارب أسفل الذقن فغطى العنق ومعظم الذقن وارتفعت ياقة البلوزة .. المستديرة المغلقة .. لتحكم الحصار حول الوجه .. وتحجب كل أثر مما ترك الحريق .

وبدت البواخر متراصة على الميناء .. بأحجامها المختلفة ، وأعلامها المتباينة .. وتوقف ركب الأسرة بحقائبها على أحد الأرصفة .. حيث وقفت الباخرة « محمد على » بعلمها الأخضر المتهدل الذي لم تقو الريح الراكدة على

نشره فاسترخى فى سكّون وكسل .

وتوقفت الأسرة مرة ثانية أمام حاجز خشبى .. وضع على الرصيف أمام سلم السفينة ، وأحسّت « نادية » بالضيق والقلق ، وهى ترى احتشاد الناس من حولها ، وخيل إليها أن العيون كلها ترمقها وتفحص وجهها .. وتمنت لو استطاعت أن تعدو إلى الباخرة لتخفى نفسها فى إحدى قمراتها هاربة من العيون المتطلعة ، والنظرات الفاحصة التى تلاحقها .

وأخيراً عبرن الحاجز متجهات إلى السلم الخشبى الممتد من الرصيف إلى باب السفينة ، وعندما انتهى سليمان من الإجابات والاستفسارات ، ومن إبراز الجوازات وتسليمها .. اتجهن إلى حجرتن يتبعهن الحمالون بالحقائب .

وتنفست « نادية » الصعداء .. وهى تحس بنفسها مرة أخرى بين جدران أربعة بعيدة عن زحمة الناس وضجيجهم وعيونهم المتطلعة .. وتمنت لو استطاعت أن ترمى على الفراش ، وتلتف بالأغطية وتظل راقدة طوال الرحلة . ولكنها كانت تعلم أنه مازال وراءها المزيد من المتاعب ، والمزيد من الاختلاط بالناس فى الباخرة .

ورفعت حقيبتها على أحد الأسرة الأربعة التى ضمنها القمرة .. والتى وضع كل اثنين منهما واحد فوق الآخر .

وقالت « منى » ، وهى تقذف بحقيبتها فوق أحد الفراشين العالين :

— سأسكن فى أحد أسرة الدور الثانى .

وأجابت نادية :

— اسكنيهما معاً فلن يشاركك فيهما أحد .

وضحك سليمان معلقاً :

— معك حق .. إنها الهلوانة الوحيدة فى سكان الغرفة . ولا أظن « ماما »

على استعداد لأن تتشعلق فى أحد هذه الأسرة .

وأجابت « لورا » باسمّة :

— إلى أفضل النوم على الأرض .. فهذا أسلم عاقبة .
وسادت برهة صمت .. أحس الجميع خلالها أن الوداع قد حان .. وداخل
الثلاثة شعور عميق بالأسى .. وهن ينظرن إلى سليمان وهو على وشك أن
يفارقهن .. وشعرن أى سند كان لهن .

وتمنى الثلاثة في وقت واحد .. لو بقى سليمان معهن .. فقد كن يشعرن
بالضيق من غيره .. إنه لم يتركهن في الأيام الأخيرة لحظة واحدة .. ويخيل إليهن
أنهن لولاه لما استطعن مجرد قطع تذاكر السفر إلى الإسكندرية .

وكانت « منى » أول من قطع حبل الصمت فقالت بطريقة العابثة :
— لقد خطر لي خاطر .

وتساءل سليمان :

— ما هو ؟

— أن نغلق عليك باب الحجرة حتى ترحل السفينة .. ونأخذك معنا .. إننا
نشعر أننا لا نستطيع الرحيل بدونك .

وأجاب سليمان في تأثر :

— أن أيضاً أحس أنى سأفقد أعز ما عندي .

وقالت نادية :

— إذا عدنا بأن تزورنا في أول فرصة .. في الصيف القادم إن استطعت .

— إلى أرجو أن تعدن أنتن قبل الصيف القادم .. كل شيء سيكون قد سوى

وأصبح على ما يرام .

ثم نظر إلى الأم متسائلاً :

— أليس كذلك يا لورا ؟ ألم نتفق على هذا ؟

وهزت الأم رأسها في يأس وأجابت :

— أرجو هذا .

وأردفت نادية تقول :

— وإذا لم نعد .. فلا بد أن تأتى إلينا أنت .. إياك أن تنسانا ؟
— أنا لا أنسى أحبائى أبداً .

ونظر فى ساعته ثم خطا إلى خارج الحجرة قائلاً :
— أظن من الخير أن أترككن الآن .. حتى لا يتحقق خاطر « منى » ..
فتخطفتنى معها إلى فرنسا .

وسار الثلاثة فى الممر الضيق ، ثم صعدن بضع درجات إلى القاعة التى تؤدى
إلى مدخل الباخرة .

وكانت الحركة قد اشتدت إذاناً ببدء الرحيل .. والمسافرون جميعاً قد
اصطفوا على سور السفينة المواجه للرصيف .. وفى الجانب الآخر .. تراحم
المودعون وراء الحاجز الخشبي الذى يفصلهم عن السفينة .

وصافح سليمان الأم .. وضم البنيتين وهو يحاول جهده ألا يدع التأثر
يغلبه .. وأن يتجلد على انفعال الوداع .. بمظاهر الضحك والمرح .. والمزاح ..
وهبط السلم ليتخذ موقفه وراء الحاجز الخشبي بين المودعين .

وارتفعت الأيادى ملوَّحة ، واختلطت الدموع بالضحكات .. وأطلقت
التحيات من السفينة وإليها ، وذابت فى الطريق مختلطة ببعضها البعض .. ولم
يصل منها إلى الطرفين سوى لفظ وهمهمة .. لا تميز فيه حروف ولا نبرات .

وبدأت السفينة سيرها البطيء عن الرصيف .. ونظرت « نادية » إلى
الرصيف المتباعد من خلال سحابة دمع خيمت على عينها .. وبدأت تخيلها
ترسم بين الوجوه المحتشدة .. وجهاً حبيباً .. وتخيلت صاحبه بقامته الطويلة ..
وكتفيه العريضتين .. وقد رفع يديه ملوَّحاً .. ثم أحست به يتباعد مع بقية
الوجوه .

وخرجت السفينة من الميناء .. وتفرَّق ركابها .. بين الحجرات والأبهاء
وحول حوض السباحة الصغير .. وبدأ البحر ساكن الأديم .. مشلول الموج ..
كأنه صفحة ملساء جرداء .. وبدأ الجو مختنقاً .. كأن يدا ثقيلة أطبقت على عنقه

وكنمت أنفاسه .. وذرات الضباب الرمادية الخفيفة معلقة في الهواء .. ما قال الشاعر :

« ممسكات بعضها من الذعر بعضاً » .. لا نجد من النسيم هبة تنفخ فيها الحياة .. وترفع ثقلها عن كاهل الهواء .

وعادت « نادية » إلى الحجرة الصغيرة ذات الأسرة المعلقة .. والطاقة المستديرة .. المطلة على صفحة الماء .. وأحست بنوع من الطمأنينة وهي تنطوى بين الجدران الضيقة ، التي تحجبها عن الناس ، وتحجب وجهها عن عيونهم . وفتحت « نادية » الحقيبة ، وبدأت تتشاغل في إخراج بعض ملابسها لتضعها في الدولاب الخشبي .

ونظرت إليها « منى » متسائلة :

— ألا تتوين الصعود لنشاهد أعلى السفينة ؟

وهزت « نادية » رأسها بالنفي .

وعادت « منى » تتساءل في إصرار :

— ستظلين جالسة هنا ؟

وأجابت « نادية » في لهجة مقتضبة :

— أجل .

— لِمَ !

— سأرتب الملابس في الدولاب .

— وما الداعي لترتيبها ؟ كلها خمسة أيام .. وننزل من السفينة .

— عندما ننزل نعيدها إلى الحقيبة .

— « تاني » !

— أتظنين أنك تستطيعين ارتداء فساتينك وهي مطوية في الحقيبة أم أنك لن

تبدلي الفستان الذي ترتدينه طوال الأيام الخمسة ؟

— معك حق .. لا بد من تعليقها على المشاجب .

وانحنت « منى » على « نادية » تربت ظهرها قائلة :

— طول عمرك ناصحة .. هل تسمحين أن تخرجى لى ملابسى من الحقيبة ؟

وقبل أن تجيب « نادية » انطلقت تعدو إلى ظهر السفينة .

وتشاغلت « نادية » بإخراج ما يلزم من الملابس خلال السفر من داخل الحقبائب وترتيبها فى الدولاب .. وكانت « الأم » قد التقت فى السفينة بصديقة فرنسية عائدة من بيروت إلى فرنسا .. فصعدت إليها فى البهو بعد أن اغتسلت واستراحت .

وبقيت « نادية » وحدها فى « الكابينة » الضيقة واستلقت على الفراش محدقة ببصرها فى السماء من خلال الطاقة المستديرة ، وقد تملكها خليط من مختلف المشاعر وشتى الانفعالات .

كان بها طمأنينة الهارب بعد أن أفلت من مطارديه .. كانت تشعر أنه لم يعد هناك خوف من أن تمسك بوجهها المشوّه وعنقها المحترق .. لقد نجت بجملدها .. جلدها الذى لم ينج من وهج النيران .. وأضحت فى مأمن من العيون التى لا تنال منها غير الشفقة والراء .

وكان بها يأس طويل عريض .. لا حدود له .. ولا بارقة لأمل فى أفقه .. يأس الهارب الذى لا يعرف ما بعد هربه .. الضائع فى صحراء جذباء قاحلة .

وطالت رقدتها وهى محدقة من الطاقة الزرقاء .. وأنبوبة الهواء فى سقف الحجر تدفع إليها بريح ساخنة .. وضربات آلات رتيبة تصل إلى أذنيها خافتة متواصلة .

ووصلت إلى مسامعها دقات ذات رنين .. كأنها دق مطرقة على آنية نحاسية وتذكرت أنها دقات الطعام ، وملأها إحساس بالضيق .. فقد كرهت أن تخرج لتجلس على المائدة بين الناس .. وعاودها النفور من التجمع والأضواء والعيون المسلطة .

وتباعدت الدقات فعاودها الاسترخاء ... وطمأنت نفسها بأنها .. تفضل

— ١٩٧ —

لا تتناول العشاء .. لأنها لا تشعر بالجوع .
ولكن لم تكد تمضى لحظة حتى فتح الباب بعنف واندفعت منه « منى »
صائحة :

— نادية !

ومدت يدها وأضاءت النور .
وضايق النور « نادية » .. فأغمضت عينيها وأجابت في ضيق :
— ماذا تريدين ؟!

— العشاء .. انهضى .

وهتفت بها « نادية » قائلة :

— أطفئى النور .. واذهبى .. لن أتناول العشاء .
— أنت مجنونة ؟ إن خير ما فى السفينة طعامها .. هل تذكرين آخر رحلة
لنا .. والطعام الذى تناولناه فى السفينة ؟
— أطفئى النور قلت لك .

ولم تطفئ « منى » النور ، بل أمسكت بحقيبتها وأخذت تفتش محتوياتها
بسرعة قائلة :

— أين فستانى الدانتلا ؟

وأجابت « نادية » وهى تضع رأسها تحت الوسادة :
— معلق عندك فى الدولاب .

وفتحت « منى » الدولاب واختطفت الفستان الدانتلا ثم قذفت بأحد
فساتين « نادية » على فراشها صائحة :

— خذى .. أبدي ملابسك بسرعة .

وأخرجت « نادية » رأسها من أسفل الوسادة ، نظرت إلى « منى » فى غيظ
وأجابت :

— ضعى الفستان مكانه ، وكفى سخفاً .

— ١٩٨ —

— لا بد أن ترتدى هذا .. إنهم هنا يحضرون العشاء بثياب السهرة .
— ولهذا لن أتعشى .

— لم يا نادية !! إنها ستكون جلسة لطيفة .. إن قاعة الطعام فى منتهى الأناقة ..
ستجلسين للعشاء والبحر يحيط بك ويتلاطم حولك .. و « الجرسونات »
الأنيقات ينحنين أمامك .. وستشاهدين حولك مختلف أنواع الناس .
— لا أريد أن أرى أحداً من هؤلاء الناس .. وليس لى قابلية للأكل .. وأفضل
الراحة هنا .

— وسيعرض فيلم جسر ووترلو .. بعد العشاء .. إنهم يعدون آلة العرض فى
البهو الكبير .. هيا بنا يا نادية .. لا تكونى كسولة !
وأجابت « نادية » فى ضيق وملل :
— قلت لك دعينى واذهبن أنت .. لى أحسن براحة أكثر وأنا هنا وحدى فى
الحجرة .

— هل تنوين أن تحزنى نفسك فى الحجرة طوال أيام السفر ؟
— أجل .

— ولن تتناولى الإفطار أو الغداء ؟
— سأطلب منهم أن يحضروه لى فى الحجرة .

— الأيام الخمسة ؟
— ولم لا ؟

— ولم نعم ؟ .. لماذا تحكين على نفسك بهذا السجن !! أمن أجل هذا الوهم
الكاذب عن وجهك !! لقد قلنا إنك ستغادرين مصر .. وتكفين عن هذا
الانطواء والخوف من الناس .. كنت تخشين أن يراك أحد من أصدقائك
ومعارفك فيشفق عليك ويرثى لك .. كنت تكرهين أن تلقى من ينكر عليك
شكلك .. فماذا تخشين الآن ؟ ! ليس هناك من يعرفك على هذه السفينة .. ولن
يكشف أحد ما تتوهمين من تشويه فى وجهك .. ومع ذلك أنت تستطيعين

باستعمال الإيشارب أن تخفى كل أثر حول وجهك .. فلماذا لا ترتدينه .. كما فعلت في طريقنا إلى السفينة ؟

ونظرت إليها « نادية » وتساءلت في مرارة :
— هل تريدني أن أذهب للعشاء بالإيشارب .. وأنت تقولين إنهم يحضرون
بثياب السهرة ؟

وترددت « منى » برهة ، ثم قالت ، وهي تحاول أن تتراجع فيما قالته :
— لم أقل إنه حتم على كل إنسان أن يرتدى ثياب السهرة ، ولكن البعض يفعل
كما قال لي السفرجى .. ولكن لن يمنعك أحد بالطبع من ارتداء الإيشارب .
— وهل من اللائق أن أظل أطوف بركاب السفينة وأدس نفسى بينهم وأنا
معصوبة الوجه .. كالمبلية .. ماذا تريدون بخلق مخلوقة .. تخنق نفسها
بالعصابات حول وجهها وعنقها في هذا الحر الخانق ؟
وقالت « منى » مكابرة :

— لا شيء .
— بل سيظنوني إما مجنونة .. أو جرباء .
— ليظنوا كما يشاءون .. أنت حرة في أن ترتدى ما تشائين .. ومن غير
المعقول أن تسجنى نفسك من أجل ما يمكن أن يظنه فيك بعض السخفاء .. ممن
لا يعنيتهم أمرهم ولا يعينهم أمرك .. ثم .. إنه لم يعد هناك .. من تخشين رؤيته
لك .

واقتربت « منى » من أختها ، وهي تشد الفستان حول جسدها وجلست
على حرف الفراش ومالت عليها تقبلها في حنو قائلة :
— قومى يا نادية .. من أجل خاطرى .. دعينا نسل أنفسنا .. ويكفى ما
لقيناه من شقاء .. دعينا نتمتع برحلتنا في البحر .. فيعلم الله ما يمكن أن نلقاه في
غدنا .. قومى .. وكفناك حملا للهموم .

وأحست « منى » برطوبة الدموع على خدي « نادية » ، فزادت من ضمتها

— ٢٠٠ —

لها واستمرت تقول :

— لا تبكى يا نادية .. وحديثنى .. إنى على استعداد لأن أخلع ملابسى وأمكث معك .. قولى .. ماذا يحزنك ؟!

وهزت « نادية » رأسها ، وهى تقول :

— أبداً .. ليس هناك من شىء .

وعادت تتساءل ، وهى تضمها :

— أحزنك رحيلنا عن مصر ؟

— ألم يحزنك أنت ؟

— طبعاً .. ولكن ليس إلى حد اليأس والنحيب .. قولى .. ماذا ييكيك حقاً ؟

ولم تجب « نادية » .. وأرادت « منى » أن تصوب سؤالاً إلى الهدف مباشرة فتساءلت :

— أحزنك .. أنه لم يعد هناك .. من نخشين رؤيته لك ؟! قولى .

وأطرقت « نادية » وساد صمت حزين رهيب .. وأحست « منى » بالندم على قولها فعادت تقول فى أسف :

— هل آلتك يا نادية ؟!

— أبداً .. ما لجرح يميت إيلام .

— ولكن يجب أن تكفى عن التفكير فيه .. والحزن على فقدته .. إنى أراه من أول يوم سراياً كاذباً .

— معك حق .. ولكن السراب .. خير من لا سراب ، إنه يعللنا بالأمل .. وفى فسحة الأمل .. فسحة للحياة .

— إذن اصنعى سراياً غيره .

— نحن لا نصنع السراب يا منى .. وإنما تصنعه السماء .

وأطرقت « منى » وبدأ عليها الحزن وتمتمت فى صوت خفيض :

— أجل .. معك حق .. حتى السراب الذى نخدع به أنفسنا .. لا نملك نحن صناعه ، وإنما يفرض علينا .

ونفضت « منى » من حرف الفراش وجذبت « نادية » من يدها قائلة :
— ومن أجل هذا يجب أن تقومى معى .. يجب أن نصنع ما نستطيع صناعه من
جل أنفسنا .. قومى يا حبيبتى وانفضى عنك كل أحزانك ، لا تقبعى تحتها ..
تستسيغ الرقاد فوقك . ولكن تلمصى منها .. هيا .. اغسلى وجهك وارتندي
نستانك .

وبعد لحظات كانت « نادية » تقف أمام المرأة تعصب الإيشارب حول
وجهها وتحكم ربطه أسفل ذقنها .. وترفع باقة البلوزة بحيث تتصل بالإيشارب
وتكون معه وحدة متصلة لا تظهر من وجهها إلا رقعة تبدو مستديرة عند
المواجهة .

ونظرت « منى » إلى « نادية » فى المرأة . وقالت بإعجاب :
— هايلة .. والله .. ولا « منى » فاضل .
ثم مدت سبابتها إلى شفتى « نادية » ودلكتها بشدة .. فصاحت نادية
متألّة :

— ما هذا ؟

— اسكتى .. هل تريدان أن تخرجى إلى الناس بشفتيك باهتين !
وجذبتها من يدها ، ثم اتجهت بها إلى الخارج قائلة :
— هيا نستدعى « ماما » من البهو .. إنه بهو مدهش . لقد عزفت على البيانو
الذى به .. ولم أعدم .. بضعة حمير .. صفقوا لى .. وكان من بينهم صحفى
مصرى هجم على فى حماس وشد على يدى مهتأ .. وعرفنى بنفسه قائلاً إنه
ذاهب إلى سويسرا .. ليتسلم عمله فى السفارة المصرية كملحق صحفى .. وقد
قلت له إننا فى طريقنا للاصطياف فى « جبال الألب » لأن أمى فى حاجة إلى
الاستشفاء فى فيشى وإفان .. وقد دعانا للنزول عنده فى سويسرا إذا فكرنا فى

— ٢٠٢ —

الذهاب إلى هناك .. فخذى بالك .. إياك أن تخطئى أمامه .. لقد حذرت
« ماما » قبل أن أنزل إلى هنا .. إنه « قنزوح » جداً .. ولكنى كنت أشد منه
« قنزحة » .

ونظرت « نادية » إلى « منى » من طرف عينيها وتساءلت :
— وماذا يهلك إذا كان « قنزوحاً » أو غير « قنزوح » .. هل تنوين أن
ننشئ معه علاقة ؟

وأشارت « منى » برأسها فى اقتضاب وأجابت :
— أجل .. مدة السفر فقط .. على سبيل « الونس » .
— وعصام ؟

وبنفس البساطة أجابت « منى » :
— إلى أحب عصام .. ولا يمكن أن يكون هذا منافساً لعصام .. لأن عصام لا
منافس له فى قلبى .. ولكن هذا مجرد زميل رحلة .. لقد قلت لك .. إنه أنيس .
— أنا لا أفهم هذا الأنيس الذى تدعيه .. أنا لا أعرف إلا الصرامة فى
الإخلاص .

— اسمعى .. هبى أنك تسيرين وحدك فى طريق موحش ، ورأيت على
الرصيف الآخر مخلوقاً يسير وحده مثلك .. هناك مانع من تبادل الحديث على
سبيل « الونس » وقطع وحشة الطريق ؟
— أبداً .. ولكنى شخصياً أفضل أن أمضى فى الطريق وحدى .. حتى لا
أضل هدفى فيه .

وأجابت « منى » ساخرة :
— أنت مالك .. إنك تفضلين السير وحدك .. حتى ولو لم يكن لك
هدف .

وكانت الأم قد بدأت الهبوط من البهو .. فصادفاها مع صديقتها « هنريت »
فى منتصف السلم فهتفت بمنى :

— ٢٠٣ —

— لماذا تأخرت كل هذا التأخير ؟

— لم تكن نادية تريد العشاء .. وكان على أن أقنعها .

وعرفت « الأم » صاحبها بابتيتها .. وهبط الأربع إلى حجرة الطعام ، وأخذت « نادية » .. بفخامة الحجرة .. ومن ربح الأناقة التى تسرى فى جوانبها .. واتجهت بها « هنريت » إلى منضدة خالية فى جانب القاعة بجوار النافذة الزجاجية العريضة .

وكانت المنضدة تتسع لسته أفراد ، وترددت السيدة أمامها برهة ثم جرت أحد المقاعد قائلة :

— اجلسوا .. فلا أظن أحداً ينوى أن يشاركنا فيها .

واتخذت « نادية » مكانها عند طرف المائدة ، وأقبل « الجرسون » ينحنى فى أدب شديد .. واتخذت « هنريت » موقف المضيفة بعد أن وجدت الخجل يلجم الأم وابتيتها .

وقبل أن يقبل « الجرسون » بالحساء .. لاح بباب القاعة شاب أنيق قد انعكس الضوء على لمعة شعره .. وأخذ يتلفت يمنة ويسرة بين مختلف المناضد .. ولحته « نادية » فزغدت « منى » هامة :

— أهذا هو صاحبك « القنزوح » الذى يقف بالباب ؟

وتلفت « منى » إلى الباب ، ولم يكده يلتقى بصرها ببصره حتى أشار بيده فى حماس ، ثم أقبل عليهن كأنه لقى صديقاً حميماً ، ثم وقف أمام المنضدة وانحنى محيياً وقال معرفاً الأسرة بنفسه « جمال عبد السلام الملحق الصحفى فى سويسرا » .. ثم أُرْدَفَ فى حماس :

— لقد كنت أبحث عنك يا منى .. أين كنت ؟

وبغير كلفة جذب أحد الكراسى الخالية ثم اتخذ مكانه بجوارهن على المائدة

قائلا :

— ٢٠٤ —

— لقد خشيت أن تكوني تناولت العشاء .

ثم نظر إلى نادية وقال ضاحكا :

— هذه لا شك أختك ؟

ثم أشار إلى الأم قائلا :

— وهذه ماما ؟!

ولم تملك « منى » إلا أن تسايره في عدم كلفته فأجابت ضاحكة :

— أهذا ذكاء طبيعي .. أم خبرة صحفية ؟!

— الاثنان .

ثم أشار إلى هنريت قائلا :

— وهذه خالتك ؟!

وأجابت « منى » ضاحكة :

— لا .. « هذه طلعت آوت » .

وأقبل الجرسون بالحساء .. وانهمك الجميع في الطعام وتبودلت بينهم أحاديث عامة .. ثم مالبت الحديث أن انقسم إلى جانبيين .. الأم وصاحبتهما في جانب .. والأختان والصحفي في جانب آخر .

وكان « جمال » — على قنزحته — ثرثاراً لطيفاً .. استطاع بسهولة أن يزيل حجاب الكلفة .. فلم يكذب يتهى العشاء حتى بدا وكأنه صديق قديم للعائلة .

ووقف ينحنى أمام « نادية » .. وهو يقول :

— أظننا نسرع الآن إلى البهو. قبل أن يبدأ عرض الفيلم .

ونظرت « منى » إلى أمها متسائلة :

— هل تشاهدين معنا الفيلم ياماما ؟!

وأجابت الأم .

— لا .. إني في حاجة إلى الراحة .

— ٢٠٥ —

وكان « جمال » قد سبقهما إلى أعلى ليحجز الأمكنة .
ونظرت « منى » إلى « نادية » وهى تتبع « جمال » بيصرها قائلة :
— ما رأيك .. فى هذا الأنيس ؟
وضحكت نادية .. وأجابت :
— إنه معقول .
ثم أردفت هامسة وهى تتأبط ذراع منى :
— إن هيافته .. لا تجعل فى ونسه خطراً .

(١٩)

إنسان كريم !

استيقظت « نادية » عقب سبات عميق من نوم ليلة السفر الأولى في السفينة وأحست بجسدها مستريحاً وذهنها صافياً ، وألقت ببصرها من الطاقة المستديرة ، فراعته زرقة البحر الفيروزية تتراعى على طول امتداد البصر ، وكانت الرياح قد أخذت تتحرك .. ومَرَّت بكفها القلقة على سطح الماء فجعدته وقلبت انبساطه قلقله وسكينته رجرجة ، ونفخت في ذرات الضباب الرمادية العالقة في الهواء ، فصيرتها هباء ، وصفا الجو وشفّت السماء ، ولم تعد تحس العين أن هناك ما يحيد مدى إبصارها ، وأنها تستطيع أن تنفذ إلى السماوات السبع .

وضغطت « نادية » بأنفها على زجاج النافذة .. فكَوْنَتْ حرارة أنفاسها طبقة رقيقة من البخار حجبت عنها البحر والسماء ، فمدت كفها تمسحه في اغتباط .. كما كانت تفعل ، وهي لم تزال بعد طفلة .

ونظرت إلى الساعة في رسغها ، فإذا بها لم تتجاوز السادسة وأحست برغبة جارفة في أن تقفز من فراشها وتعدو إلى سطح السفينة .. لتتمتع بهذا الصباح المشرق الصافي .

وكانت تحس أن تلك هي فرصتها للاستمتاع بالبحر ، وظهر السفينة خال ، والركاب ما زالوا يقبعون في حجراتهم يغطون في نومهم أو يتشاءبون في أسرهم ، ونظرت إلى « منى » فإذا بها مستغرقة في سباتها ، وقد انكفأت على وجهها في فراشها العلوي وتدلّت ذراعها في الهواء .

ومدّت « نادية » يدها فجذبت كفها المدلاة .. محاولة إيقاظها دون أن تقلق أمها ، ورفعت « منى » كفها وانقلبت على جنبها الآخر .

— ٢٠٧ —

ووقفت « نادية » بجوار الفراش تهزها من كتفها هامسة :

— منى .. منى .

وأجابت « منى » دون أن تفتح عينيها :

— ها .

— انهضى .

ولم تجب « منى » .. فقد كانت النعاس يثقل جفونها .. وعادت « نادية » تهزها قائلة :

— منى .. انهضى .. لكى نصعد إلى ظهر السفينة .

واستدارت « منى » وفتحت عينيها بصعوبة متسائلة :

— نصعد إلى ظهر السفينة ؟

— أجل .. إن البحر رائع ، ونسيم الصباح عجيب .

ونظرت إليها « منى » فى غيظ ، وهى تدعك عينيها وأجابت :

— البحر ، والنسيم .. نامى .. نامى .. بلا عبط ، سنظل خمسة أيام بلياليها .. لا نرى شيئاً غير البحر ، ولا نشم شيئاً غير النسيم .. إياك أن توقظينى من أجل هذه التفاهات .

وأغضمت عينيها ، وعادت إلى سباتها .

وبعد برهة .. كانت « نادية » تنطلق وحدها إلى أعلى السفينة ، وقد أحكمت الإيشارب حول وجهها .

وكانت السفينة قد خلت إلا من البحارة منتشرين على سطحها ، وفى ممراتها .. يغسلون الأرض وينظفون الجدران والأبواب ويلمعون المقابض النحاسية .

وكانت الشمس قد بدأت تتصاعد من الأفق باسطة أشعتها الصفراء على سطح السفينة متسللة من النوافذ الزجاجية إلى الحجرات .

ولمحت « نادية » عجوزين يتربضان بالسير فى نشاط على سطح السفينة ، وقد

كشفت « الشورت » عن سيقانها العجفاء . وصيباً قد تسلى من حجرة أبويه .. ليلهو بلعبة الطوق .

ولم تشعر « نادية » برهبة الأمس .. وملأها خلوا السفينة من ركابها بالطمانينة .. وسارت تطوف بأرجائها ومرافقها ، شاهدت الحمام ، وحجرة الآلات ، ومخزن البضائع . وصعدت إلى حجرة القيادة .. ثم انتهى المطاف بها أخيراً .. إلى مقدم السفينة ، ووقفت ترقب الماء الأزرق ومقدم السفينة يبحر عبابه .

واستقر بها المقام على سور السفينة تسبح ببصرها في الفراغ الأزرق العريض ، وترقب ارتطام الماء بمقدم السفينة واندياحه في خط من الزبد الأبيض . وأحست بوقع أقدام تقترب منها .. وظنت صاحبها أحد البحارة يباشر عملية النظافة .. ولكن الخطوات تمهلت حتى توقفت بجوارها .. ثم سمعت صوتاً يهتف بحماس :

— هالو منى .

والتفت « نادية » فإذا به « جمال عبد السلام » بأساريره المتهللة وابتسامته التي لا تبهت ، وقبل أن ترد « نادية » لتصحيح له ظنه بأنها ليست « منى » .. اندفع يقول :

— أما مفاجأة هائلة .. لم يخطر ببالى قط أنك استيقظت في هذه الساعة المبكرة .. وكنت أود أن أذهب لإيقاظك حتى ترى هذا المنظر الجميل .. ولكن خشيت أن أزعجك ، وخشيت أكثر أن اتهمنى أختك بالجنون .. إنها تبدو عاقلة جداً .. عاقلة أكثر مما يجب .. وعندما كنا نتعشى بالأمس ...

وكان على « نادية » أن تقاطعه لتبين له حقيقة الأمر حتى لا يتورط في أكثر من ذلك .. إن تهمة العقل محتملة .. أما أكثر من ذلك .. فيجب أن يحذر منه .

وقالت نادية :

— يا أستاذ جمال .

— قلنا جمال فقط .. يا منى .

— أنا لست « منى » يا أستاذ « جمال » أنا نادية .. نادية العاقلة أكثر مما يجب .

ورفع « جمال » حاجبيه فى دهشة وتساءل فى شك :

— غير معقول .. أنت تضحكين علىّ يا منى .

ولم تملك « نادية » إلا الضحك من إصراره على الخطأ وأجابت :

— أنت وشأنك .. إذا كنت تصر على اعتبار أنى « منى » فليكن ، ولكن أرجوك أن تكف عن شتيمة « نادية » .. لأن طاقة المرء فى سماء نقائصه محدودة .
وهز جمال رأسه فى دهشة قائلا :

— عجيبة !! الظاهر أنك « نادية » فعلا .. أنا متأسف .. كما يجب أن أعرف ذلك ، ولكن الشبه قريب جداً .. وأنا لم أجلس معكما الوقت الكافى للتمييز بينكما ، ولم أكن كذلك أتصور أنك أنت التى تستيقظين مبكرة ...
وتقفين هكذا لترقبى البحر والشمس .. كنت أظنك أعقل من هذا !

— وهل هذا جنون ؟!

وضحك جمال قائلا :

— ليس بالضبط .

— بالتقريب ؟!

— إنه عند بعض الناس تأمل وعند الآخرين جنون . فماذا تريه أنت ؟

— أنا أعتبره تأملاً .

— وأنا أراه مقدمات جنون .

— والجنون .. فنون ؟!

وقهقهه جمال .. ثم قال :

— زدت المسألة صعوبة .. كنت أظن أنى أستطيع أن أميز « منى » بروحها

المرحة .. ولكن يبدو لى أنه حتى هذا تتشارك فيه .

— ٢١٠ —

— ليس دائماً .. إن حالة المرح عندى حالة عارضة .

— تصييك من البحر والشروق والنسيم !؟

— ربما .

ونظر جمال إلى وجهها محققاً .. وأحست « نادية » لأول مرّة بالاضطراب .. وضياح الثقة ، وهى تجد وجهها قد أضحى موضع فحص ، ومدت يدها بالطريقة اللاشعورية لتحسسه ولتحكم الإشارب حوله ولتشدد الياقة حول عنقها .

وتساءل جمال ، وهو مستمر فى التحديق فيها :

— لست أدرى إذا كيف يستطيع المرء التمييز بينكما .

وساد الصمت برهة وأشاحت « نادية » بوجهها حتى تبعده عن زاوية الفحص ومجال المراقبة . وأجابت وهى تحاول التمالك :

— لن يصعب عليك الأمر بعد ذلك .. إن وجه « منى » جميل لا يمكن أن يخطئه المرء .

وأجاب جمال وهو يتكئ بذراعيه على سور السفينة :

— وجه « منى » فقط ؟ .. لو كان ذلك لكان الأمر .. إن المشكلة .. هى أن وجه كل منكما أجمل من الآخر .

— هذا من ذوقك .

وتحركت « نادية » مغادرة مقدم السفينة وهى تحس بالرغبة فى الهروب ، وسار جمال بجوارها وهو يتمتم قائلاً :

— على أية حال .. لا أظننى سأخطئ بعد الآن .. إن بك شيئاً مميزاً .

— بى أنا !؟

— أجل شيئاً فى وجهك .

— وأحست « نادية » بضربات قلبها تتلاحق ، وزادت من سرعة خطاها وهى تحس أنها قد باتت فى حاجة إلى أربعة جدران تقبها شر العين الفاحصة .. ولم

تحاول أن تسأله عن الشيء الذى رآه فى وجهها .. كانت تخشى أن تكون بعض آثار الحريق قد أفلتت من الإيشارب .

ولم يدعها جمال تسأل .. فقد أردف يقول مفسراً :
— شىء فى وجهك .. لا أعرفه .. شىء مريح .

ولم تستطع « نادية » أن تكتم تنهيدة راحة انطلقت من شفيتها ، وهتفت
تسأله فى دهشة :

— مريح ؟!

— أجل .. شىء يبعث على الثقة والطمأنينة .

وكانا قد وصلا إلى أولى درجات السلم المؤدى إلى الصالون ، وكانت حركة الركاب قد أخذت تزداد ، وديب أقدامهم يتشر .. وأحست « نادية » من قول جمال كأن التهديد الذى سلط عليها قد رفع ، والخطر الذى أحرق بها قد زال ، وأن مغامرتها التى أقدمت عليها بالظهور أمام الناس .. والخروج من الجحر .. لم تنته — كما كانت تتوقع — بكارثة .

إذا فوجهها مازال به شىء .. شىء مريح يبعث على الثقة والطمأنينة ، وليس شيئاً كريهاً يبعث على النفور والاشمئزاز ، وهذا الشىء — كما يجزم صاحبها — شىء مميز .. يميزها عن « منى » .

ولكن أترأه يقول هذا .. لو رفعت الإيشارب ، وأنزلت الياقة ؟!
وأفرعها الخاطر ، ومدت يدها بسرعة لتأكد من وجود الدرع الواقية ، ولتثبتته فى موضعه جيداً .. حتى لا يبدى من آثار التشويه .. ما يقضى قضاء مبرماً على ذلك الشىء المريح المطمئن .

وقبل أن تنزل يدها من الإيشارب .. تسأله جمال ببساطة :

— يبدو أنك معجبة جداً بهذا الإيشارب .. إنك لم تخلعه منذ أمس !
وأحست « نادية » بالاضطراب يعاودها ، وتمنت مرة أخرى لو أطلقت للريح ساقها ، وهبطت إلى الحجرة لتختفى بين جدرانها .. لقد كان الحديث عن

الإيشارب اقتراباً من منطقة الخطر ، وكانت تحس أنه عورة .. لا يجب التكلم عنه ، ولكنها لم تملك إلا أن تردد متسائلة .. وهى تسرع الخطأ :

— هل يعجبك ؟!

— لطيف .. أحب لونه الأزرق .. والزهور البيض التى به ، ولكن مع ذلك .. أحس أنك بدونه .. أجمل منك به .

ومرة أخرى مدت يدها لتطبق على ربطة الإيشارب .. لقد بدا لها .. أن ذلك الأحق قد سلط عليها ، وأنه سبكرها فى النهاية على خلع الإيشارب . وعاد جمال يقول :

— لقد دهشت من لف رأسك ووجهك به خلال العشاء .. ولكنى ظننت أنك قد استحممت ، وأنت تحشين على رأسك من لفحة الهواء .. رغم أنه لم تكن بالأمس نسمة هواء ، وقلت لنفسى إنك فتاة « موسوسة » .. وعزمت أن أعلمك فى هذه الرحلة كيف تخرجين إلى الهواء .. برأسك عارياً .. وصدرك مفتوحاً .. كما تفعل أختك « منى » .

وازداد الاضطراب بنادية .. وبدت لها خطورة هذا الأحق ، وأخذت تتمتم قائلة ، وهى تحاول أن تتجنب نظراته إلى وجهها :

— لقد تعوّدت ارتدائه .. لأنى أصبت بنزلة برد .. وأخشى إن خلعتنه أن تعاودنى النزلة مرة أخرى .

وقال جمال فى حماس :

— هذا بالضبط ما ظننت .. ولذلك يجب أن تخلعيه .. لا برد فى البحر أبداً .. أفعلى كما يفعل البحارة .

وقبل أن تجيب « نادية » .. لمحت « منى » مقبلة وأحست نادية فى رؤيتها منجاة لها من مطاردة « جمال » وإلحاحه ، والخلاص من مناقشته فى خلع الإيشارب .

ولم يكد « جمال » يلمح « منى » حتى هتف بها :

— ٢١٣ —

— هاى منى .. تصوّرى أنى ظننت أن نادية هى أنت !!

وأجابت منى :

— لست أول من يخطئ فينا .. لقد كانت المدرّسات يخلطن بيننا دائماً في المدرسة ، وكانت المسكينة تتحمل كل مساوئ ، وكنت أكافأ عن كل حسناتها .

وضحك جمال قائلاً :

— تماماً كما حدث هذا الصباح .. لقد تحمّلت مساوئك في شخصى .. لقد قطعت عليها خلوتها .

— تستاهل .. إنها أقلقت نومى .. إذ حاولت أن توقظنى لأتمتع بالبحر والنسيم ولكنى نهرتها .. ثم حاولت النوم فلم أفلح ، ولم أجد خيراً من أن أرتدى ملابسى ثم ألحق بكما .

— كنت أظن أنك أنشط منها ؟

— أنا أنشط منها عندما تكون هناك فائدة للنشاط .. أعنى فائدة أهم من مراقبة البحر وشم النسيم .

وكان الثلاثة قد وصلوا إلى البهو ، وهمت « نادية » بالانسحاب لتعود إلى حجرتها عندما استرسل جمال قائلاً :

— كنا نتناقش أنا ونادية حول موضوع الإيشارب .

وبهتت « منى » وفغرت فاهها من الدهشة ثم هتفت مستفسرة :
— موضوع إيه ؟

وأجاب جمال وكأنه يتحدث في موضوع مسلّ :

— الإيشارب الذى تلف به رأسها .. لقد أدهشنى أن ترتديه خلال العشاء أمس .. ثم علمت منها الآن أنها أصيبت بنزلة برد .. وأنها تخشى خلعه . ولكنى أكدت لها أنها يجب أن تطرد عن نفسها هذا الوهم .

ونظرت « منى » إلى « نادية » وأحست بالاضطراب والخوف اللذين

تعانيهما .. وتبينت الخطورة التي تحس بها ، فهزت رأسها بشدة قائلة :
— لا .. لا .. مستحيل . إنها لا تستطيع خلعه .. لقد حذّرها الأطباء من أى
هبة هواء . وإلا انتكست .. إياك أن تخلعيه يا نادية .. لا تكونى مجنونة .. إياك أن
تستمعى إلى أحد .. وإلا ..

وبدت الدهشة على وجه « جمال » من حماس « منى » وتمتم معتذراً :
— أنا متأسف .. أنا .. أنا لم أقصد أبداً .
وأجابت نادية :

— لا داعى للأسف .. إنك لم تكن تعرف بالطبع .
— كنت أظنها مسألة « وسوسة » .. لا تحذير طيب .. ومع ذلك فإنى ...
وقبل أن يسترسل فى حديثه قاطعته « نادية » قائلة وهى تحاول الاستئذان :
— أأسمحان لى .. سأعود إلى الحجرة وسألقى بكما على الإفطار .
وهتفت بها « منى » وهى تتجه إلى حجرتها :
— إياك أن تخلعى الإشارب .

وأحست « نادية » ببعض الطمأنينة .. بعد أن وجدت عذراً يقمها الفضول
طول مدة الرحلة .. بحيث لا تضطر مرة أخرى إلى الانطواء كالسجينة داخل
الحجرة .

ولم يعاود « جمال » بعد ذلك الحديث فى موضوع الإشارب ، وكانت
الآلفة تزداد بينه وبين الأختين يوماً بعد يوم .. كان مخلوقاً طيب القلب .. ودوداً
أليفاً ، وكان كما وصفته « نادية » ثرثاراً لطيفاً .. أو كما قالت عنه « منى » فى أول
لقاء لها به .. أنيس طريق ، وصديق رحلة .

وكانت « نادية » تحس فى جلساتهم .. أن عيني « جمال » كثيرة التسلل إلى
وجهها .. وكان يصيبها إحساس بالخوف والاضطراب ، وكأنما كانت تخشى
أن يكشف أمر وجهها المعصوب ويعرف ما وراء عصاية « الإشارب » من
تشويه .

— ٢١٥ —

ولكن « منى » كانت تعرف ما وراء النظرات .. كانت تدرك بحساسيتها ، أن جمال قد تعلق بنادية ، وأن إحساسه بها لم يعد مجرد إحساس صديق .. بل تعداه أكثر من هذا . وعندما كانت « نادية » تضيق بنظراته كانت « منى » تهمس بها :

— لا تخشى شيئاً ، ألم يقل لك إنه رأى في وجهك شيئاً مميزاً .. شيئاً مريحاً .

وتهز « نادية » رأسها موافقة فتقول « منى » ضاحكة :

— إذن دعيه .. ينظر إليه .. لعله يستريح .

ثم تصمت برهة وتردف قائلة :

— إنه يجبك يا غبية .

وتهز « نادية » رأسها وتقول في غير اكتراث :

— يحبني أنا ؟!

— أجل أنت .

— دعيه يحب .

— لماذا تستخفين به ؟! إنه إنسان ممتاز .. لطيف ، ووجيه ، وله مركز محترم

ومستقبل مرموق .

وتنظر إليها « نادية » في دهشة وتتساءل :

— ما هذا كله ؟! ماذا يهمني أنا من مركزه ومستقبله ؟!

— لكيلا تستخفي به .

— ومالي أنا به .. أستخف أو لا أستخف .

— لا تكوني بلهاء .. لو كنت منك لشجعتك .

— على ماذا ؟!

— على التقدم لخطبتى .

— ما هذه السخافة يا منى ؟!

— ٢١٦ —

— سخافتي أنا !! والله .. ما أسخف على الأرض منك .. رغم ما تبدين به من عقل ورزانة .. هل تظنين أنك ستبقين عانساً ؟ هل تنوين الترهيب من أجل هذا « الجزار » الذى لا يحس بوجودك على ظهر الأرض ، الذى رفض نجاتك يوم الحريق ؟

— رفض نجاتي ؟ من قال لك هذا ؟
— ألم يتركك دون أن يجرى لك العملية .
— أنت تعرفين أنه ذهب لإنقاذ مريض من الموت ، فلا تحاولي تشويه سمعته بالافتراء . ثم إنى لم أكن أعنى لديه شيئاً .
— ولن تعنى لديه شيئاً أبداً .
— لست أريد أن أعنى لديه .. أو لدى غيره شيئاً .
— ولكنك ستزوجين يوماً ما .. فلا تحاولي أن تجعلى من حبه عقبة تضيق منك الفرص ، وتبعد عنك الناس .
— أين هذه الفرص ؟ وأين هؤلاء الناس ؟ أكل هذا تقولينه لجرد نظرة تطلع من صاحبنا هذا ؟ هل تعتقدين أن نظراته ستستمر لو نزعنا عن وجهى الإيشارب ؟

— إذا كان يجبك فلن يضيره أى شئ .
— أنت بلهاء .. أوكد لك أن اليوم الذى سيصيرنى فيه بلا إيشارب .. لن يجد فى وجهى أثراً لذلك الشئ الذى يريجه ويجذبه .

وبعد بضعة أيام .. أقبل « جمال » على الأختين بعد الغداء وهما فى طريقهما إلى الحجرة وصاح بهما :

— لا .. لا .. لا نوم اليوم .. سنبقى مستيقظين .. حتى نشاهد البركان .. سنمر به فى الساعة الثالثة والرابع .. أى بعد ساعة ورابع .. فهيا بنا لنجلس هناك حتى نرقبه .

وأجابت نادية :

— بشرط أن تنتقى لنا ركناً هادئاً لا يزعجنا فيه أحد ؟!

— لكما على ذلك .

وذهب الثلاثة إلى مقدمة السفينة واضطجعوا على مقاعد القماش الطويلة .. وبدأ « جمال » ثرثرته عن رحلاته السابقة .. وعن أول مرة عبر فيها مضيق مسينا ، ورأى بركان فيزوف .

وهب الهواء رطباً .. كأنه الأصف الندية تربت الوجوه . وأسبلت « نادية » عينها وأرخت أطرافها ، وبعد لحظة أحست بالهواء .. كالخدر ، وثاقلت أجفانها .. وبدأت أفكارها تختلط اختلاط المقبل على النوم ، ولم تعد تلتقط سوى فقرات متقطعة من حديث جمال .. حتى خفت صوته تماماً .

ومضت برهة و « نادية » مستغرقة في سباتها على المقعد المريح الطويل .. وجمال مستمرسل في حديثه .. و « منى » تتأرجح بين الإنصات والسرхан . وقال جمال ضمن أحاديثه عن رحلاته :

— وأعجب ما رأيت في إيطاليا .. مقابر جنوا .. هل رأيتموها ؟ وكانت « منى » شاردة فلم تجب والتفت جمال إلى « نادية » يستحث ردّها فإذا بها نائمة .

وتشبثت عيناه بوجهها ، وظل ينظر إليه كالماخوذ . كان الإيشارب قد انزلق من رأسها وبدأ أسفل صدغها ، وقد ظهرت به آثار الحريق .. وبدأت به النقط البيض التي بدت بالجلد عقب شفائه من الحريق . وأصابته جمال رجفة ، وأحس بألم يثقل جوفه .. وهو يكشف سر إصراره على عصابة وجهها .. وبغير وعى وجد نفسه يميل في مقعده ويمد ذراعه .. يمسك طرف الإيشارب بإبهامه وسبابته ، ويشده على رأسها في سكون . وأحست « منى » بصمته ، وتلفتت إليه . لتجده يشد الإيشارب على وجا

« نادية » بعد أن اكتشف آثار الحريق .

وخيل إلى « منى » أن المقعد يغوص بها في خشب السفينة ومضت بها برهة ،
وهي تلهث كأنما تقف على شفاهاوية .. وأخذت ترقب عيني « نادية » ، وهي
تدعو الله أن يثقل أجفانها فلا يجعلها تحس بما حدث .
والثقت عينا « منى » بعيني جمال .. وأخذ كل منهما يحدق في الآخر دون أن
ينطق بكلمة .

وأخيراً قالت « منى » في رجاء حازم :
— لن تذكر لها شيئاً .

وهز جمال رأسه بالنفي دون أن ينطق .. فقد كان يخشى أن يخونه صوته
وتخلله عبراته .

وعادت « منى » تتساءل هامسة :

— ولن تغير معاملتك لها ؟

وعاد جمال يهز رأسه في تأكيد وهمس قائلاً :

— سأغيرها .. إلى أفضل .

ونظرت « منى » هامسة :

— متشكرة .. متشكرة جداً .. أنت إنسان كريم .

(٢٠)

وهم وحقيقة

اقتربت السفينة من مرسيليا .. وبدا الميناء الفرنسى من بعيد بأسقفه الحمر المنحدرة ، وبيوته المكدسة على الشاطئ ، كحائط ممتد .. وكان الجو قد تلبد بالغيوم ، والمطر قد أخذ يتساقط فى غزارة .. و « جمال » قد وقف بجوار الأختين يتكئون على حرف السور فى أحد الممرات يرقبون المرشد وهو يصعد من القارب البخارى إلى السفينة ليقودها إلى الميناء .

وأحست « منى » بشيء من الأسف على فراق « جمال » فقد وجدت فيه خير مؤنس لوحشة « نادية » ولا سيما بعد أن أدرك سر انطوائها وعرف ما وراء العصابة التى تشد بها وجهها .. فازداد إقبالا عليها .. وعناية بها .

ولم تشك « منى » أن ازدياد إقبال « جمال » على « نادية » قد سببه الإحساس بالرتاء والشفقة .. وكانت شديدة الحذر من أن يساور « نادية » أقل شك فى حقيقة مشاعر « جمال » ، فقد أحست أن هذه المشاعر ، رغم عدم نفاذها إلى نفسها .. إلا أنها منحتها بعض الثقة .. وأبعدت عنها الاعتقاد بأنها أضحت مخلوقة مشوهة ينفر منها الناس .

وكان « جمال » قد بدا عليه السرور وأخذ يسترق النظر بين آونة وأخرى إلى « نادية » وقد بدا جانب وجهها مشدوداً بالإشارب ، وأحس برغبة شديدة فى أن يتحسس رأسها ويضمها إليه فى رفق .

لقد أحس أن الفتاة الشقراء الهادئة المعصوبة الرأس .. لم تعد مجرد عابر سبيل .. عبرت طريقه . بل أضحت بعد بضعة أيام السفر .. وكأنها جزء من كيانه .

وحول بصره إلى « منى » .. وبدا في عينيه .. كمن نوى أمراً .. ومد يده ..
فمس كفها .. والتفتت إليه « منى » متسائلة بعينها عما يريد .
وبدا عليه الارتباك .. ثم أشار برأسه إلى داخل السفينة فهزت « منى » رأسها
تطلب مزيداً من الشرح .. ولكن « نادية » التفتت قائلة وهى تجد المطر يزداد
انهماراً :

— تصوّروا الفارق بين الجو الذى صعدنا فيه إلى السفينة والجو الذى
سنغادرها فيه ؟ من النقيض إلى النقيض !
وعلقت « منى » قائلة :

— أنا أفضل هذا الجو .. مهما هطلت السماء .. فهو خير . من الجو الراكد
الذى يحس فيه المرء بالاختناق .

ونظر « جمال » إلى « منى » وهو يقول :

— عن إذنكما .. سأذهب لأخرج حقائبى من الحجرة .

وقبل أن يستدير مغادراً قال « لمنى » :

— ألا تريدان المجلات التى طلبتها يا منى ؟

وأجابت منى :

— أجل .. سأتى معك لآخذها .

وسارت « منى » لاحقة به وهو يتجه إلى الداخل . وقبل أن يصل إلى

حجرتة هتفت منى :

— أحقاً تريدنى من أجل المجلات ؟

وتوقف « جمال » وقد بدا على سيمائه التفكير وأجاب فى شرود :

— بل أريدك لشيء أهم من هذا كثيراً .

— ما هو ؟

— هل تجلسين فى حجرتى ؟

— يتوقف على نوع حديثك .

ثم أردفت مازحة :

— فإذا كان غزلاً .. فمن الخير أن نجلس على الأريكة .. أو على حافة الحمام .

— بل هو حديث جاد .

— وهل الغزل حديث غير جاد ، طبعاً لسنا قدر المقام !

ولم يكن يبدو على « جمال » أى ميل للمزاح .. فقد مدّ يده وجذب « منى » إلى داخل الحجرة قائلاً :

— اسمعى يا منى .. ليس لدينا وقت للمزاح .. أريد أن أطلب منك شيئاً هاماً .

— ما هو ؟

— إنى أريد أن أخطب نادية .

وكانت « منى » تتوقع أن يحدثها عن « نادية » .. ولكن لم يطف بذهنها أن يصل حديثه إلى حد الخطبة .

كانت تتوقع أن يحدثها عن ألمه لإصابة « نادية » .. وعن استعداداته لأن يكتب إليها .

كانت تتوقع .. كل أنواع المساعدة التى يمكن أن يقدمها إنسان كريم أثرت شقيقته .. ولكنها لم تنتظر أبداً أن تصل المساعدة إلى حد الخطبة .

وعقدت الدهشة لسانها فلم تنبس بكلمة .. وطال الترقب « بجمال » .. وهو يحدق فى قسماتها المذهولة وتساءل مستحثاً :

— لماذا لا تحيين ؟

وأجابت « منى » مترددة :

— لأنى .. لأنى .. مندهشة .. هذه مفاجأة لم أكن أتوقعها .

— لماذا ؟

— لأنى لم أظن الشفقة تبلغ بك هذا الحد من الاندفاع .

— ٢٢٢ —

- شفقة .. واندفاع ؟! ما هذا الذى تقولين !
- أليس ما دفعك إلى خطبتها .. إحساسك بالشفقة عليها ؟
- طبعاً لا .
- هل قرأت قصة « حذار من الشفقة .. لزفيج » ؟!
- طبعاً .. لا .
- إذاً فاقرأها أولاً .
- ونظر إليها « جمال » وتساءل فى غيظ :
- أهذا كلام !! أقول إنى أود أن أخطب « نادية » .. فتقولين لى اقرأ قصة ؟!
- أجل .. إنك سترى نفسك فى هذه القصة .. ستجد البطل الذى دفعته الشفقة إلى خطبة مشلولة مقعدة .. ثم يندم بعدها .. ويهجرها .. فتتحرر .
- ونظر إليها « جمال » وهتف قائلاً :
- ما هذا الذى تقولين ! من قال إنى أشفق عليها ؟!
- ما الذى يدفعك إذاً لخطبتها بمثل هذا الحماس ؟! إنك لم ترها سوى بضعة أيام .. فلماذا كل هذا الاندفاع ؟
- لأننا نوشك أن نفترق .. بعد بضع ساعات . ومن يعرف متى نلتقى بعد ذلك ؟.
- أتظنك لو لم ترها ساعة مرورنا بالبركان وقد كشف الهواء عن وجهها ..
- أكنت مقدماً على خطبتها الآن ؟!
- وأجاب « جمال » مؤكداً :
- طبعاً .. إنى أعرف مشاعرى جيداً !
- وأطرق « منى » برهة .. وبدأ عليها التفكير .
- هذه فرصة العمر قد أتاحتها القدر لنادية .. هذا المخلوق الذى لا يعيبه شيء يتقدم لخطبتها .. تدفعه أحاسيسه لكى يرفعها من هوة يأسها .. إن القدر لم

— ٢٢٣ —

يقذف إليها بأنيس رحلة . ولكن بشريك عمر !
ترى ماذا سيكون رأى « نادية » ؟! أتراها ، ستشكر القدر على منحته ..
وتقنع نفسها بهبته ؟! أم ستظل فى عنادها .. متعلقة بخيوط واهية .. من
الأوهام .. والأشباح .. والسراب الكاذب !!
ونظر « جمال » إلى « منى » وعاد يتساءل :

— ما رأيك يا منى ؟!

— رأى .. رأى ؟!

ورفعت رأسها وسأله فجأة :

— ولماذا لا تسألها هي ؟! ما قيمة رأى أنا فى موضوع يخصها وحدها !

— أنت أقرب الناس إليها .. وأدرى الناس بها .. ماذا تظنين سيكون رأيها ؟!

وبدت على « منى » الحيرة وصمتت برهة ثم أجابت :

— يبدو لى أنك أدرى منى بموقعك من نفسها !!

— لست واثقاً منه .. أو على الأصح لا أستطيع أن أعرفه بالتحديد .. إنها

تقبل على .. وتعاملنى برفق .. ورقة .. وتشعرنى بشقتها فى وترحيبها
بصداقتى .

— فقط ؟!

— أظن هذا .

— وأنت ؟! ما هو موقعها فى نفسك ؟!

— أكثر كثيراً .. إلى يا منى .. باختصار .. أحبها .

— وهل تحس هي بذلك ؟!

— لا أعلم .

— ألم تحاول أن تشعرها ؟

— لم أدر كيف .. لم تمنحني فرصة واحدة لذلك . بالرغم من جلستنا

معاً .. حتى الساعات التى جلسناها سوياً على ظهر السفينة .. والليل ..

والقمر .. والنسيم .. والموج . وما هيأته حولنا كل عناصر الشاعرية والحب ..
لم تستطع أن تخرج من شفتى كلمة حب .. كنا نتكلم فى السياسة والوطنية
والأدب والفلسفة .. وفى كل شيء عدا ذلك الشيء الذى أحس لها به فى
صدرى .

وصمت « جمال » .. ونظرت إليه « منى » متسائلة :

— وماذا أستطيع أنا أن أفعل ؟

— تستطيعين أن تفعل شيئاً كثيراً ، تستطيعين أن تدركى مدى استعدادها
لقبول مطلبى .. إنك تعرفين مشاعرها جيداً وهى لاشك حدثتك عنى .. فما
رأيك ؟

وأحست « منى » بالحرج . وترددت برهة قبل أن تقول :

— رأى .. إلى فى الواقع لا أعرف خبايا صدرها .. وإن كنت أحس أن بها
ميلاً إليك .

— ميلاً من أى نوع ؟

— ليس شيئاً أكثر من ذلك الذى تشعر به .. صداقة .. وود .

— ولا شيء أكثر من ذلك ؟

— لست أدرى .

وبدت خيبة الأمل على وجه « جمال » .. ولكنه مالبث حتى هز كتفيه قائلاً :

— على أية حال .. لا أظن ذلك يعنى أنها ترفض .

ولم تعرف « منى » كيف تجيب .. لأنها لم تستطع أن تحدّد لنفسها ، ماذا
يمكن أن يكون رأى نادية فى عرضه .

ولم يطل الصمت بجمال حتى سألتها فى رجاء :

— هل تستطيعين أن تسألها ؟ أعنى أن تجسّ نبضها ؟

وأطرقت « منى » . ومرة أخرى بدت عليها الحيرة . لقد كانت تحس فى

قرارة نفسها أن « نادية » سترفض .. ولكنها كانت تحب أن تسوق إليها

الفرصة .. لتعرف أن هناك من يحبها .. وأنه على استعداد لخطبتها .. وأن ذلك التشويه الموهوم في وجهها .. لا أثر له .

ومن أجل ذلك كانت تحب أن يتقدم إليها « جمال » بنفسه لأنها كانت تعلم أن « نادية » قد لا تأخذ عرضها مأخذ الجد .. بل ستظن حديثها من بنات أو هامها ومبتكرات أفكارها .

ولكنها كانت تعرف أيضاً .. أن « نادية » ستعتقد أن « جمال » سيتقدم لخطبتها .. لأنه لا يعرف سوى شكلها الظاهر .. وأنه لو عرف ما تحت الإيشارب .. لانصرف عنها .. ولما فكر في التقدم إليها .

ومن غير المعقول أن ينبئها « جمال » .. أنه يعرف أن بعنقها آثار حريق ، وأنه يحبها رغم ذلك .

إذاً فعليها أن تتركه يتقدم إليها .. لتؤكد أن المسألة حقيقة واقعة .. وأنها ليست من تأليف « منى » .

وعلى « منى » بعد ذلك ، أن تنبئها أنه يعرف الحقيقة .. وأنه رآها بلا إيشارب ، وأنه يحبها رغم ذلك .

كل هذه الفروض .. قد افترضتها « منى » .. على أساس استبعاد الوهم المعلق في رأس « نادية » .. والسراب الكاذب الذي يلوح أمامها .

وقال « جمال » يستحث « منى » ويخرجها من أفكارها :

— لماذا لا تجيبين ؟! أتستطيعين أن تجبى نبضها ؟!

— إني .. إني أفضل .. أن تتحدث إليها بنفسك .. إن ذلك أفضل كثيراً .

— ولكن .. أخشى .. أن ..

— تخشى ماذا ؟!

— أعنى .. ربما كان في قلبها .. إنسان .. آخر!

وعادت « منى » تطرق .. وأردف جمال يقول :

— وأنت طبعاً . تستطيعين أن تعرفي ؟!

(نادية — ج ١)

ورفعت « منى » رأسها .. وقالت فى صوت خافت :

— أجل .. إن فى قلبها شيئاً .. ولكنه ليس إنساناً .. إنه وهم .. ولذلك أسألك أنت أن تتقدم إليها ، فلعلك تقضى عليه .. لعل واقعك يقهر أحلامها .. تقدم .. وليفعل الله ما يشاء .

وقبل أن تستدير « منى » لتنصرف من الحجرة .. عادت تقول مؤكدة :

— ولكن أرجوك قبل أن تقدم على أى شيء ، أن تتأكد من حقيقة مشارعك .. تأكد من أنها ليست شفقة .. لأنى أكره أن أعرض « نادية » لمصير بطلة زفيج ١٩

— قلت لك إني أعرف مشاعري جيداً .

— إذاً هيا بنا .. إلى المبحأبنة الميناء تقترب .. هيا بنا نخرج الحقائق .. إن أماننا مشكلات كثيرة حتى نصل إلى « جاب » ، لقد وفر عمى سليمان علينا كل هذه المتاعب فى مصر .

— وأنا هنا سأحل محل عمك سليمان .. دعى لى كل شيء .

وكانت السفينة قد أخذت تتهاذى داخل الميناء حتى توقفت على الرصيف .. وتعالى من أسفل صيحات رجال الميناء والحمالين . وصعد البوليس الفرنسى .. وجلس مع رجال السفينة يفحص الأوراق .. ووقفت « نادية ومنى » مع أمهما يفحصان الوجوه المترابطة على الرصيف .. وكان يبدو على وجه الأم سيماء الحزن والأسى .. وهى تشعر بوحدتها .. وتتخيل بين آونة وأخرى أن فاضل سيقبل من ورائها لينبئها أن الجوازات قد ختمت وأنهم يستطيعون النزول .. وتلفت حولها فلا تجد سوى ابنتها تقفان متطلعتين إلى الرصيف كأنهما تتوقعان أحداً يلقاها كما يحدث لبقية المسافرين .

وأخيراً أقبل « جمال » يهتف بهن قائلاً :

— هيا بنا .. لقد انتهى كل شيء .

وأخذوا يهبطون السلم المعلق بين السفينة والرصيف ، وقد تعالى الضجيج ،

— ٢٢٧ —

من حولهم ، واشتد الصياح ، وأقبل عليهم أصحاب عربات الأجرة والجمالون وهم يتبادلون الصياح والسباب .

وقال « جمال » ، وهو يدفعهم بيده :

— لا بد أن نحذر هؤلاء الأفاقين إنهم شر رجال الموانى .

ووقف الأربعة مرة أخرى تحت سقيفة الجمرى .. ورصت الحقائق على منصة طويلة .. ولم يطل بهم الأمر حتى كانت إحدى عربات الأجرة تحملهم خارج الميناء وقال « جمال » للسائق :

— إلى القنصلية المصرية .

واعترضت الأم قائلة :

— لماذا لا نذهب إلى المحطة رأساً .

— إن لى صلة بالقنصل .. ويمكنه أن يعاوننا في إبدال العملة بالسعر الرسمي .. ونستطيع كذلك أن نعرف مواعيد القطارات بدل أن نذهب لنتنظر في المحطة .

وهزت الأم رأسها قائلة :

— كما تشاءون .

ووقفت العربية بعد فترة أمام القنصلية المصرية ، وكان المطر ما زال يتساقط بشدة . والمارة يعدون في عجلة حاملين المظلات مرتدين معاطف المشمع .

وهزت « نادية » رأسها متعجبة :

— لم أتصوّر قط أننا سنقابل فجأة يمثل هذا المطر والبرد .

ثم نظرت إلى « منى » ، وقد أحست أنها تتفض .. وتساءلت في قلق :

— هل تشعرين بالبرد يا منى ؟! أتأخذين سترى ؟!

— لا .. لا .. إني أشعر بانتعاش في هذا الجو .

وكان « جمال » قد صعد إلى القنصلية ، وبعد لحظات أقبل يناديهم :

— تفضلوا .. إن القنصل يصير على أن نشرب فنجاناً من القهوة .

ودخل الثلاثة يتبعون « جمال » إلى داخل القنصلية ، وقال « جمال »
للسائق :

— لن نغيب أكثر من خمس دقائق .

ورحب القنصل بهم .. وكان شاباً وسيماً لطيفاً .. وسألهم أن يصرفوا العربات
لأن موعد القطار لم يحن بعد .. وأصرّ على أن يوصلهم بعربته ، وأكد لهم أنه
سيقوم بكل إجراءات السفر وتغيير العملة .

وجرى الحديث عاماً عن الجو وعن السياسة .. وقال القنصل وهو يهز رأسه
مؤكداً :

— إن صفقة الأسلحة .. أطارط صوابهم .. إنهم يشيعون هنا أن مصر قد
أصبحت دولة شيوعية .

وأجاب جمال :

— ليشيعوا ما يشاءون . المهم أننا قد أصبحنا نملك السلاح .
وقالت نادية :

— هل سمعتم عن الوثيقة الفرنسية التي كشفها « الرئيس جمال عبد الناصر ،
والتي توضح كميات الأسلحة التي سلموها لإسرائيل .. ماذا يقولون عنها
هنا ؟!

— الشعب هنا لا يهتم إلا بالضرائب التي تفرض عليه .. أما فيما عدا ذلك فلا
يهمه شيء .. والسياسة .. يكرهونها لأننا نحارب الاستعمار .. إنهم يكرهون
تأييدنا للجزائريين ومساعدتنا في ثورتهم ضد الفرنسيين .

ولم يرق الحديث منى . ونظرت إلى الساعة في قلق وقالت :

— أظن الوقت قد حان للرحيل ؟

ونفض « جمال » قائلا :

— أجل .. هيا بنا .

وحملتهم عربة القنصل إلى المحطة ، وكانت « منى » تحس بقلق جمال وهو يجد

أن فرصته الوحيدة قد باتت معلقة برحلة القطار .
وقالت الأم وهم يغادرون العربة :
— سنأخذ القطار الذاهب إلى « جرينويل » وسننزل في « فين » ثم نأخذ من
هناك القطار المتجه إلى « جاب » .
وأجاب جمال :

— سأخذ معكم نفس القطار ، وسأواصل السفر به إلى جنيف .. سيغادر
القطار مرسليليا في الساعة السابعة وسيصل إلى « فين » حوالى العاشرة ؟
وسيتحرك القطار المتجه إلى « جاب » في العاشرة والنصف .. فلن يطول
انتظاركم في محطة « فين » .

ووصلوا إلى القطار .. وكانت المحطة على اتساعها قد امتلأت أرصفتها
بالقطارات وقالت « منى » على سبيل المزاح :
— خذ بالك .. حتى لا تذهب بنا إلى باريس ؟
وأجاب جمال ضاحكا : — ياليت !

وأخيراً استقر المقام بهم في مقاعد القطار .. وتعمدت « منى » أن تجلس
بجوار أمها حتى تمنح « جمال » فرصة الجلوس بجوار « نادية » .
وتحرك القطار .. واتكأت الأم بظهرها إلى مسند مقعدها .. وأغمضت
عينها ، وقد بدا عليها التعب والإرهاق .

وألقت « منى » ببصرها من النافذة . وكان ضوء النهار ما زال منتشرأ .. وقد
كف المطر عن التساقط .. وانكمشت الشحب .. مفسحة لأشعة الشمس التي
أخذت تتسلل لتلقى ضوءها الأحمر الخافت على قمم الشجر وأعالي البيوت .
وبدت الأسقف المنحدرة لامعة .. وقد أخذت مياه المطر تتساقط من
جوانبها .. وبدت تربة الطريق بجوار شريط سكة الحديد حمراء قانية .. كأن
ترابها قد اختلط بالدماء .

وأسندت « منى » رأسها إلى زجاج النافذة .. وأخذت ترقب المرئيات تتابع

— ٢٣٠ —

على النافذة .. وأحس « جمال » أن الجو قد خلا له .. وأصابه الارتباك .. وهو يشعر أنه قد بات يواجه نادية وحده .. ولم يعرف .. من أين يبدأ ، ولا كيف .
وكان لابد له أن يبدأ بشيء عام فقال :

— بعد برهة سنبدا الصعود .. وستختفى هذه السهول ، وتبدو لنا المساقط الجبلية الرائعة .. وقد كستها الخضرة وهبطت منها شلالات المياه .

— ليت الضوء ينتظر حتى نستمتع بمشاهداتها .

— طبعاً. سينتظر الضوء .. إن الشمس لن تغيب قبل الساعة الثامنة ، وكلها نصف ساعة وندخل في المنطقة الجبلية ؛ إن أجمل ما فيها .. القمم البيض تعلوها الثلوج .

— أجل .. إنها أكثر ما يعلق بذهني من رحلتنا الأولى إلى « جاب » .
وأحس « جمال » كأن دورات عجل القطار .. تقطع من فرصته .. وأنه يجب عليه أن يبدأ .. وكره من نفسه هذا الارتباك .. أمام الصبية الهادئة المعصوبة الرأس .

وقال وهو يلم بأطراف ذكائه ويرمقها بطرف عينيه وهي تحدق من النافذة :
— ستكون رحلتى هذه أكثر رحلاتي رسوخاً في نفسي .
وأحست « نادية » بقوله نوعاً من المجاملة .. ولم تعرف كيف تجيب فقالت ببساطة :

— لقد كانت رحلة لطيفة .

— كان ألطف ما فيها لقائى بك .

— متشكرة .

— إني أعنى ما أقول .. لقد أحسست عندما لقيتك أنى لقيت شيئاً كنت أفقده .

وحارت « نادية » .. فيما يقصد إليه « جمال » .. أهى بمجاملة أخرى .. أم تراه بقصد من ورائها شيئاً ؟! ولم تجد أمامها إلا أن تفترض حسن النية .. وقالت

ترد المجاملة :

— إنك فى الواقع .. هيات لنا صحبة لطيفة .. ولسنا ندرى كيف كان يمكن أن تكون الرحلة .. لو لم نقابلك !! إن « منى » قالت عنك فى أول الأمر إنك تصلح أنيساً لرحلة ، ولكنى وجدتك تصلح صديقاً دائماً .
وأحس « جمال » أن « نادية » تدفعه فى الطريق الصحيح ، فصمم أن يتخذ فيه خطوة طويلة .. فقال وهو يحول وجهه إلى النافذة حيث أخذت تحديق بصرها :

— ليت معرفتنا تدوم حقاً !؟
— ولم لا !! إنى سأكتب إليك .
— أقصد دوماً أقوى من الكتابة .
— عندما تتاح الفرصة لأحدنا .. فلا أرى هناك شكاً فى أننا سستزاور .. إننا نرحب بك دائماً فى « جاب » .
وصمت « جمال » .. ثم هتف قائلاً :
— نادية !

وأحست « نادية » من لهجته .. بدقة خطر .. كانت تحس أنه يوشك أن يقول شيئاً أكثر من مجرد مجاملة .. ولم يكذب إحساسها . وسرعان ما أعقب « جمال » هتافه بقوله :

— نادية .. إنى أحس أنك لسبت مجرد صديقة سفر .. ولا أنيسة رحلة .. إنى أحس بك أكثر من هذا .. أحس أنك غدوت شيئاً لا غنى لى عنه .. إنى أشعر أن هناك رباطاً خفياً يشد أحدنا إلى الآخر .
وأحست « نادية » بارتباك شديد ، وألجم لسانها ، وجمدت شفتاها .. كانت تجذب « جمال » قد اندفع فى اعترافه بحبه ، ولم تجد فى نفسها أى استعداد لقبول اعترافه أو للرد عليه .. ولم تستطع أن تفعل أكثر من الاستمرار فى التحديق من النافذة .

واستمر « جمال » يقول :

— إنى لأعرف كيف أشرح ما أحسه لك ولا أدرى كيف أصف لك قيمتك عندى .. ولكن كل ما أستطيع أن أفعله هو أن أعرض عليك نفسى .. وحياتى .. ومستقبلى .. أنا لا أريد أن أمتدح نفسى .. ولكنى أعتقد أنى سأكون زوجاً طيباً .. لك أنت ..

وأحست « نادية » برجفة . وبدأ لها العرض .. مفاجأة ضخمة لم تخطر لها ببال .. لقد تحولت ظنون « منى » إلى حقيقة واقعة ، إنه يطلب زواجها بمتهى الإخلاص والحرارة .

وفجأة مدت يدها إلى عنقها ، وتحسست أصابعها المتشنجة جلد عنقها من فوق الإشارب .

إنه يطلبها باعتبار الوجه البادى له . إنه لا يعرف حقيقة ما وراء هذا الحجاب .. من تشويه .

إنها خدعته وغررت به .. يجب أن تذكر له الحقيقة .. يجب أن تنتزع عن وجهها هذا الحجاب .

ولكن لماذا تفعل ؟ هل هى تقبل زواجه ؟!

وأحست بالرد الأكيد ينبع من صدرها : لا .. لا ..

إنها لا تريد الزواج .. لا تريد أن تقطع بيدها حبل الأوهام التى تتعلق بها . حقيقة إنها حبال من الوهم .. تعلقها بأمال من السراب ، ولكنها مع ذلك .. لا تريد أن تقطعها .

إذا فأى مبرر لأن تقول له .. إنها مشوّهة ؟!

يكفى أن تعتذر برقة .. وينتهى الموضوع .

ورفعت يدها عن عنقها .. وهمت بالرد .. ولكن قبل أن تنطق كلمة ..

سمعت جمال يقول بلهجة ملؤها الحنان :

— لا يهم هذا يا نادية .. إنى أحبك كما أنت .

— ٢٣٣ —

وذهلت نادية ونظرت إليه في ارتياح وهي تهتف :
 — كما أنا ؟ .. هل تعرف ؟
 — أجل .. لقد انزاح الإيشارب عن رأسك عندما غفوت على المقعد ونحن نمر
 بالبركان فأعدته إلى رأسك .
 — بعد أن رأيت الحرق ؟
 — أجل .. ولم أحس بأى فارق بينك وأنت بالإيشارب وأنت بدونك .
 — حقا ؟!
 — أجل .. لقد صممت منذ ذاك الوقت أن أخطبك .
 — شفقة بي ؟!
 — أبداً .. إني أحبك يا نادية .
 وأطرقت « نادية » ثم أسندت جبينها إلى كفها .
 وهتف جمال متسائلا : — ما رأيك يا نادية ؟ أجيبى !
 ورفعت « نادية » رأسها وقد تفرقت دمعتان في عينيها ، وهي تتطلع إلى
 الوجه الذى يرقبها فى لهفة :
 — إني آسفة .. لا أستطيع أن أرتبط بأحد .. الآن .
 — وبعد الآن ؟!
 — من يدري .. ولكن أؤكد أنك ستكون أول من ألجأ إليه عندما أفكر فى
 الارتباط .
 وعادت تحدق من النافذة .. وأخذت مرتفعات « الألب » تظهر ..
 بسفوحها الخضراء .. وهاماتها التى يعلوها البياض ومساقطها التى تنحدر منها
 المياه .
 ونظرت « منى » إلى « جمال » وقد أغمض عينيه وبدأ الأسى فى ملامحه .
 لقد كانت تعرف النتيجة سلفاً . كانت تعرف مدى تسلط الوهم الذى يحل
 قلب « نادية » ومدى قدرته على هزيمة كل حقيقة .

(٢١)

لا ندم ...

وصل القطار إلى بلدة « فين » الواقعة على مفترق الطريق المتجه غرباً إلى جاب وشمالاً إلى « جرينوبل » ثم جنيف .. وكانت الساعة قد تجاوزت العاشرة والنصف ، والمحطة قد بدت خالية إلا من بضعة حمالين ، وناظر المحطة بمنظاره السميكة ، ووجهه الأحمر المنتفخ ، وجسده الأكرش المترهل .

وكانت برودة الليل قد اشتدت .. والضباب قد تكاثف ، وبدت مصابيح المحطة المتناثرة وقد أحيطت بهالة بيضاء من ذرات الضباب ، وبقايا المطر تتساقط من حواف الأسقف في قطرات ثقيلة تقرع أرض المحطة في طرقات منتظمة .

وفتح « جمال » النافذة ليدفع بالحقائب إلى أحد الحمالين الذى وقف بجوار القطار يفرك يديه وينفخ الضباب من منخريره ، وصاح به « جمال » وهو يناوله إحدى الحقائب :

— إلى القطار الذهاب إلى « جاب » .

وأجاب الحمال وهو يضع الحقبة بجوار قدميه :

— سيحضر بعد نصف ساعة .. لقد تأخر قطاركم .. ولكن القطار التالى سيتأخر أكثر .

وأجابت « منى » :

— ونصف ساعة محتملة .. كان يمكن أن ننتظر أكثر من ذلك .

وأحست الأم بلفحة البرد التى هبت من النافذة فصاحت بمنى :

— أخرجى الجاكتة الصوف من حقبتك .. نحن لا نعرف متى يحضر القطار .

— ٢٣٥ —

وألقت « منى » نظرة سريعة على الحقائق فوجدت حقيبتها فى يد « جمال »
يوشك أن يناولها للحمال فهتفت به :

— لحظة واحدة حتى أخرج منها الجاكت .

وتناولت « نادية » الحقيبة من « جمال » قائلة :

— هاتها .. وإلا قلبت « منى » كل ما بها .. أنا أعرف أين وضعت الجاكت
وسأخرجها فى ثانية .

وفتحت « نادية » الحقيبة ومدت يدها وأخرجت الجاكت . فتناولتها

« منى » ودفعت ذراعها فى أكمامها وضمتها إلى صدرها ثم دفعت برأسها من
النافذة وهى تقول :

— ليس الجو يمثل هذه البرودة التى تدعونها .. إنه محتمل جداً .. ماذا تقولون

إذن عندما يقبل علينا الشتاء الحقيقى فى « جاب » .. هل تذكرين يا نادية ؟!

وجذبها « نادية » من ذراعها وهى تنجھ نحو الباب قائلة فى عجلة :

— هيا بنا .. ليس هذا وقت ذكريات .. إن القطار أوشك على المسير .

وقال « جمال » للحمال وهو يسلمه الحقيبة الأخيرة من حقائق الأسرة :

— على أى رصيف سيقف للقطار ؟

وصاح الحمال :

— نفس الرصيف .

— انتظرنى إذا .. حتى آتى إليك .

— وبقية الحقائق ؟!

— ستبقى فى القطار .. لأنى مستمر حتى جنيف .

وأسرع « جمال » يهبط من القطار وراء « نادية » .. وبعد أن منح الحمال

أجره ، وقف يودع الأسرة .. وقد أخذ يرمق « نادية » فى حنين وأسى .

وصاحت « منى » تستحثه على العودة إلى القطار :

— أسرع إلى القطار .. وإلا سار وتركك .

- أتخشين أن أبقى معك !؟
- أبداً .. إني أخشى أن يسير بحقائقك .. ليتك تجيء معنا .
- لو كان لدى فسحة من الوقت ، لصحبتك إلى « جاب » .
- وقالت الأم :
- إذن عدنا أن تزورنا عندما يسمح لك وقتك .. إننا لن ننسى جمالك .
- العفو يا مدام .. إني لم أفعل شيئاً .. لقد جعلتني أشعر أنني واحد من أسرتك .
- وكانت « نادية » صامته شاردة ، وعاد « جمال » يرمقها بنظراته اللهنى قائلا :
- سأحاول أن أعود إليكن .
- ثم أخفض من نبراته وقال بصوت هامس لا تكاد تسمعه سوى نادية :
- إذا لم تضايق زيارتي نادية !
- وهزت « نادية » رأسها كأنها تفيق من غيبوبة وأجابت :
- إني أرحب دائماً بزيارتك .. وسأنتظرك دائماً ،
- وأجاب « جمال » بنفس الطريقة الهامسة :
- شيء في داخلي يؤكد لي أنني سأراك ثانية .. أنا لا أصدق أن هذا يمكن أن يكون اللقاء الأول والأخير .. لقد تركت في نفسي أثراً عميقاً .
- وآذن القطار بالمسير ، فشد « جمال » على أيديهم ثم أسرع إلى القطار .
- ووقف « جمال » في نافذته بلوح بيده .. وانساب القطار ببطء من المحطة ..
- ثم اندفع مسرعاً ليلقى بنفسه في ظلمات الليل والضباب .
- وأخذت « منى » ترقب القطار وهو يختفي ثم هزت كتفيها وهمست لنادية :
- كأني به وميض أمل قد ابتلعه الظلمات .. لست أدري لماذا تركته ينساب منك ؟
- وهزت « نادية » رأسها وأجابت في هدوء :

- أنا أيضاً لست أدرى .
- وصمتت برهة ثم أردفت قائلة :
- أنا لا أدرى إلا أنى فعلت ما يريحنى .. ولست أشعر بندم على فعله .
- قد تشعرين بالندم بعد ذلك .
- من يدرى ؟ .. إننا لا نستطيع أن نقيد أفعالنا .. باحتمالات الندم .. يكفى أن نفعل ما يريحنا الآن .
- وكانت « الأم » قد اتجهت إلى مظلة بجوار حجرة ناظر المحطة وجلست على مقعد خشبى طويل أسفلها .. وصاحت تنادى ابنتها :
- اجلسا .. فما زال أمامنا نصف ساعة انتظاراً حتى يأتى قطار « جاب » .
- وقالت « منى » وهى تتجه مع أختها إلى المظلة :
- لست أدرى ما الذى لم يعجبك فيه .. إنه حقيقة مخلوق ممتاز .. رغم ما يبدو منه من خفة .. توهم الناس بأنه .. كما وصفته فى أول لقاء — إنسان هايف .
- لست أظنه كما وصفته .. إنه خير بكثير .
- ألم يترك فى نفسك أثراً ؟
- أعتقد أنه ترك .
- إلى أى حد ؟
- وترددت « نادية » برهة قبل أن تقول :
- إلى أى حد ؟ .. لست أدرى .. ولكنى أحس بأنه يذكرنى .. بصبرى .
- وقالت منى :
- صبرى ما زال تلميذاً .
- أنا لا أقارن بين مركزيهما ، وإنما أقارن بين أثر كل منهما فى نفسى .
- ولكن جمال .. يستطيع أن يتزوجك .. وأن يكون لك بيتاً .
- ومن قال إنى أريد بيتاً ؟

— ٢٣٨ —

— ماذا تريدین إذا ؟ ! . هل تظلمین قابعة فی « جاب » ؟

وجلست « نادية » بجوار أمها وهی تجیب قائلة :

— دعینا الآن من هذا .. المهم أن نصل إلى « جاب » .

ثم وجهت حديثها إلى الأم متسائلة :

— ترى هل سنجد أحداً ينتظرنا فی محطة « جاب » ؟!

وأجابت الأم :

— لقد أرسل عمك سليمان تلغرافاً إلى أمی .. ولاشك أنها سترسل من

ينتظرنا ، وعلى أية حال نحن نستطيع أن نأخذ إحدى عربات الأجرة ، ونفاجئها

بوصولنا .

وتساءلت « منی » وهی تهز ركبتيها :

— ماذا ننوی أن نفعل فی جاب ؟!

والتفتت الأم إلى « منی » مستفسرة :

— ماذا ننوی أن نفعل ؟ نعيش .

— أعنی كيف سنعيش ؟!

— كما يعيش الناس فی « جاب » .. لدينا البيت والمزرعة ، وأستطيع أنا أن

أعمل فی المدرسة .

وقاطعتها « نادية » قائلة :

— بل أنا التي سأعمل .

ورفعت « منی » كتفها قائلة :

— اعملا أنما الاثنان .. أما أنا فلا أريد أن أعمل شيئاً . سأتسلق الجبل ..

وآكل الكریز ، وأجلس على شاطئ البحيرة .. حتى يرسل عصام فی طلبی .

وقالت الأم :

— افعلی ما يحلو لك . ولكن احذری البرد ، والإجهاد . إنی لا أريد مزيداً

من المتاعب .

وكأنما أعطى إنذار « الأم » إبحاء « لنى » بصدرها المريض ، فسعلت بضع
سعالات قصار .

وبدا القلق على وجه الأم .. ونظرت « نادية » إلى « منى » فاحصمة .. لترى
هلى تتصنع السعال .. أم أنها تسعل حقيقة ، وتساءلت فى خوف :
— ماذا بك ؟

وردت « منى » ، وهى تزدد ريقها :
— لا شىء .

وقالت الأم محذرة :

— ارفعى الياقة حول عنقك .. وعندما نصل إلى البيت لا تغادرى الفراش ..
حتى يراك الطبيب .

وأدارت « منى » رأسها فى دهشة ، وقالت فى غيظ :
— ما هذا ؟! أحرم على أن أسعل ؟!

وقالت الأم مترفقة :

— نحن نخشى عليك يا منى .. لا تدرين كم يزعجنى صوت السعال الذى
سمعته منك .. إنه يذكرنى بأيام مرضك .
— لا تنزعجى .. لن أسعل بعد الآن .

وسادت فترة صمت انطلقت كل منهن بأفكارها فى ميدان أوهاهما .
الأم فى ذكرياتها الأئمة عن الأب .. ومرضه ووفاته . وخوفها من المستقبل
المجهول الذى لا تبدو له سمات محددة .

و « منى » فى آمالها المزدهرة وأمانها المورقة الناضرة .. فى الانزلاق على
الجليد .. والانطلاق فى المزارع .. فى حاضرها الجميل فى « جاب » ،
ومستقبلها الباهر .. فى القاهرة . تضع ذراعها فى ذراع « عصام » يعدوان إلى
بيتها الصغير .. وحديثه الأنيقة .. وتستمر فى الانطلاق لترى طفلا يحبو
لتحمله بين ذراعها ويناديها ماما .. و .. و .. أشياء كثيرة جميلة .. تزخر بها

الحياة .. ويمتلىء بها المستقبل .

و « نادية » فى خضم من اليأس يتكاثف فيه ضباب لا تبين منه سمات ولا تبدو ملامح .. خضم تبدو فيه أشباح . جمال ، وصبرى .. ومنى .. والأم .. والأب الراحل .. والعمة القاسية .. والعم الحنون الطيب ، ووراء كل هذه الأشباح التى يلفها الضباب .. يجم شئ لا يرى ، ولا يكاد يبدو منه حتى مجرد شبح .. تقصر عن رؤيته العين ، ويعجز الذهن عن التسليم بوجوده .. ولكنه رغم ذلك كائن .. موجود .. يؤكد وجوده .. عن إيمان وثقة .. قلب يخفق بين الضلوع يستقبل إرسالاته ، ويلتقط إشارات .

وتتجاوز « نادية » فى انطلاقة أفكارها .. كل هذه المراتب الملموسة .. لتستقر فى سكنة على هذا شئ .. الذى لا وجود له ، ولا أحساس به ، إلا من نبضات القلب ، والذى تنكره عليها ، كل أدوات الحس ووسائل المنطق والإقناع .

وخيم على المحطة السكون .. وسادها الصمت .. إلا من طرقات أقدام ، وههمة ، ونخحة .

وبدأ الثلاثة يحسن بوطاة البرد .. فازددن تلاصقاً ، وقالت « منى » ، وهى تضع كفها تحت ساقها وتهز ركبتيها بطريقة عصبية :
— لقد بدأت أغير رأى .. إلى أفضل الحر الخائق .

وقبل أن يجيبها أحد .. بدت فى المحطة حركة نشاط .. ثم سمع ضجيج قطار مقبل ، وانتفض الحمال الذى وقف واضعاً كفيه فى جيبيه ، ورأسه بين كتفيه يقول فى تكاسل :

— قطار « جاب » .

وبعد لحظات كان القطار يقف على الرصيف ، وأسرعت « منى ونادية » ووراءهما الأم إلى داخله ، ولم يصعب عليهن العثور على الأماكن فقد كانت العربى شبه خالية ، وأخذ الحمال يحرص الحقائق على الأرفف .

و لم تطل وقفة القطار حتى عاد ينساب مرة أخرى بين مرتفعات « الألب » في طريقه إلى « جاب » ، وكانت الظلمات قد طوت الجبال .. فلم يعد يبدو على جانبي الطريق من معالم سوى أضواء خافتة مرتجفة لا تكاد تميز العين أبعادها .. أو دلائلها .

وأخذ النعاس يتسلل إلى جفون الثلاثة ، والتعب يرخي أعصابهن ، وبدأ الشاؤب يمزغ الكلمات والغفوة تطوى الأحاديث ، وتثاقلت الرؤوس ، وتراخت الأعناق ، وألقت بحملها على الصدور تارة ، وعلى الأكتاف تارة . ومدت كل منهن ساقها على المقعد أمامها .. وأخذت الأجساد تشكل أوضاعها بحيث تمنح أعضائها أقصى ما تستطيع من الراحة .. وبعد بضع حركات قليلة .. انتهى الثلاثة إلى سكونية النوم التي لا ترى معها إلا اضطراب الصدور ، ولا تسمع فيها سوى حفيف الأنفاس .

ولا يقطع ملل السفر ويطوى ساعاته كسلطان النوم .. أو حديث الهوى .. ولم تحس المسافرات الثلاث بالطريق إلى « جاب » .. إلا بقدر غمضة عين وانتباهتها .. فقد أمسك النوم بتلابيبهن .. فلم يتركهن إلا عند وقوف القطار في « جاب » ، وضجيج المحطة .. واختلاط أصوات الركاب بالحمالين .

وحاولت « منى » أن تستسلم مرة أخرى للنعاس .. وهي تنوهم وقفة القطار في إحدى محطات الطريق ، ولكن « نادية » جذبتها من ذراعها قائلة ، وهي تنفض الكرى عن أجفانها :

— هيا يا منى .. لقد وصلنا .

ونظرت « منى » محمقة من النافذة إلى فناء المحطة .. وهزت رأسها وتساءلت متشككة :

— وصلنا !؟ إلى أين !؟

— إلى « جاب » .. انهضى حتى نزل حقائبنا .

وقامت « منى » وهي تتمطى وتقول في دهشة :

— ٢٤٢ —

— غير معقول !! إني لم أتم أكثر من بضع دقائق .

وأجابتها « نادية » في غيظ :

— يا غبية .. الساعة الآن الثانية عشرة والنصف .. هيا أنزلى حقيقتك .. ليس
أماننا وقت للتمطى والثأوب .

وكانت الأم قد أخذت تتناول الحقائق وتقذف بها من النافذة إلى أحد
الحمالين ، وهى تفحص الواقفين على الرصيف وتعبر بعينها سور المحطة باحثة عن
إحدى عربات الأجرة .

ولم تكد تقذف بأخر حقية حتى لمحت عجوزاً أعجف يقف على باب
المحطة ، وقد تدثر بمعطف رث وكبس قبعة رمادية إلى أذنه .

وهتفت الأم في فرحة تنادى العجوز :

— بول .. بول .

ثم وجهت الحديث إلى ابنتها مشيرة إلى الرجل :

— إنه بول .. خادم أمى .. لا شك أنه ينتظرنا .. نادى عليه يا منى .

وصاحت « منى » تنادى الرجل .. ولكن الأم أسكتها قائلة :

— لا فائدة .. إن صممه لا شك قد ازداد .. انتظري حتى نهبط إليه .

واتجه الثلاثة إلى باب القاطرة وهبطن إلى الرصيف ، وهرعت « منى » إلى

العجوز المنكمش في معطفه وصاحت به :

— بول ؟!

والتفت إليها الرجل في دهشة .

وعادت « منى » تصيح به :

— بول .. ألا تعرفنى !! إني « منى » ! ألا تذكرنى ؟ لقد زرتكم مرة وأنا

صغيرة .. مع أبى وأمى وأختى ؟!

وفغر الرجل فاه وعلت وجهه أمارات التأثر والفرحة ومد ذراعيه يضم إليه

« منى » وهو يهتف :

— أخيراً وصلتني .. لقد كبرت جداً .. إني لم أعرفك ، لقد ظلمت أنتظر كن منذ أول أمس ، وكنت أرقب كل قطار يصل إلى « جاب » .. وأعود إلى سيدتي خائب الرجاء .. أين ماما وأختك !؟

وأشارت « منى » إلى أمها وقد وقفت بجوار الحقائق .. وقالت :
— إنها هناك تنقد الحمال أجره .

— حمال .. وماذا جئت أفعل !؟ مازال عندي ساعدان قويان .. إني أفعل كل شيء في المزرعة .

واندفع الرجل إلى الأم صائحاً وقد اختلجت شفتاه بالبكاء :
— مدام لورا .

ومدت الأم يدها .. تشد على يد العجوز قائلة في تأثر :
— كيف حالكم يا بول !؟ كيف حال ماما !؟

— إنها لا تكاد تسير .. منذ عام والروماتزم يقعدها ، ولا تكاد تبل منه إلا بضعة أسابيع في الصيف .. ولكن الحادث قد هدها هذا العام .. لقد هدهنا كلنا يا سيدتي . لقد كنا نحب سيدتي « فاضل » كثيراً .. كنا دائماً نذكره بالخير .

وجذبت « منى » الرجل من ذراعه بعد أن أحست أنه يوشك أن يقلب المحطة إلى « محزنة » .. وقالت وهي تحمل إحدى الحقائق :

— هيا يا بول .. دع الحديث الآن .. لدينا في البيت وقت كاف .

وقال الرجل وهو يحمل بقية الحقائق ويتجه إلى الباب :

— كم فرحنا لجئك .. إن سيدتي الكبيرة .. ظلت تبكي طوال الليل .

فسألت « الأم » وهي تتبع الرجل :

— من يعيش معها الآن يا بول !؟

— السيدة جانيت .. لقد انتقلت للإقامة معنا بعد أن مات زوجها في حادث

الطائرة .. إنها تقيم معنا معظم العام ولا تتركنا إلا بضعة أشهر في أول الصيف لتذهب إلى أولاد أخيها في « جرينوبل » .

والتفتت « منى » إلى أمها متسائلة :

— من تكون جانيت هذه ؟! هل رأيتها أنا ؟؟

وأجابت الأم :

— إنها جاني .. ابنة ابن عم أمى .. لقد كانت صديقة الصبا وزميلة الدراسة .

وقاطعتها نادية قائلة :

— جاني .. التي كنت دائماً تحكى لنا عنها .. والتي أصيب زوجها في حادث الطائرة ؟!

— أجل .. إنها هى .

وتساءلت منى :

— وهل ستعيش معنا ؟

وأجابت الأم وهى تقف أمام عربة الأجرة ، وقد نادى بول سائقها :

— سنرحب بها إذا أرادت البقاء معنا ؟

وقال « بول » :

— لقد كانت تخدم السيدة الكبيرة ، وترعاها .. إنها سيدة كريمة لطيفة ، وقد أحببناها جميعاً .

وأجابت الأم :

— وأنا أيضاً أحبها ،

وقالت نادية :

— لماذا لا تبقى إذا ؟!

وتساءلت منى :

— ربما لا يسعنا البيت .

وقال بول :

— إن نصف البيت خال .

وركب الثلاثة العربية .. وحلس بول بجوار السائق وهو يقول له :
— إلى « بلاش » .

وانطلقت العربية ، وكانت المدينة قد سادها السكون ، وبدت طرقاتها خالية
لا أثر فيها لحياة ، والفندق المجاور للمحطة قد أطفأ أنواره ، وامتدت يد صاحبه
السمينة لتغلق بابه الخشبي المطل على فناء المحطة .

واجتازت العربية الطريق المؤدى إلى الميدان ، وكانت أرض الطريق تلمع بمياه
الأمطار ، وأضواء المصابيح الخافتة تنعكس مرتجفة على الأرض اللامعة ،
والضباب يلف البيوت والأشجار ، وعجل العربية يصدر صفيراً وهو يطوى
أرض الطريق .. ولم تكد المسافرين الثلاث يحسسن دفء العربية وراحة الجلسة
حتى عاودهن استرخاء النوم ، وبدأ النعاس يثقل أجفانهن .

ولكن الخادم العجوز القابع بجوار السائق .. لم يكن قد انتهى-بعد من إفراغ
كل ما بصدرة من ترحيب ، فعاد يطرد النوم عن أعينهن بقوله :

— ستملأن علينا البيت .. لشد ما أصبحت السيدة الكبيرة تضيق بالوحدة ..
إن أعصابها باتت متوترة ، وباتت تفرغ من كل شيء .

وتركته الأم يثرثر .. وأغمضت « منى » عينيها ، وأسندت « نادية » رأسها
على ظهر المقعد وشردت ببصرها في استرخاء من نافذة العربية .
واستمر العجوز في ثرثرته قائلاً :

— إن السيدة «- جانيت » كانت تريد أن تأتى لتتظركن ، ولكنها أصيبت
أول أمس بنزلة برد جعلتها لا تقوى على الخروج .. لقد أعدت لكن حجرتين في
الطابق العلوى ، وهى تنام مع السيدة الكبيرة فى الطابق السفلى .. مكان حجرة
الأكل القديمة لأنها لا تقوى على صعود السلم .. والشمس تسطع فى الحجرة ،
وقد تشفياها من الروماتزم .

ولم يجد أحد من الثلاثة القدرة على أن يتبع أنباء الروماتزم ، ولم يجد ضرورة
لتبع حديث الرجل ما دام كل حديثه أخبار .. لا تتطلب رداً .. ولكن الرجل بدا

له أن يشر كهن في الحديث فتساءل قائلاً :

— هل تعجبكن الحجرتان المطلتان على الحديقة .. أم تفضلن الحجرة المطلّة على الفناء الخلفى ؟!

ولم تكلف « منى » نفسها مشقة الرد فقد استغرقت في سباتها ، ولم تحاول « نادية » الرد لأنها لم تكن تذكر فارقاً بين الحجرات الثلاث .. كل ما كانت تذكره هو المنظر العام للبيت بسقفه الأحمر الشديد الانحدار ، ومدخته الخارجة من السقف ، وحجرتها ذات الشرفة التي تتسلل إليها فروع التفاح الأحمر ، ودجاج يملأ البيت ، وكرنبات ضخمة تملأ الحديقة .

وكان على الأم أن تجيب على ثرثرة العجوز فطردت عنها النوم وأجابت قائلة :
— سئرى كل ذلك عندما نصل ، وعندما يأتى النهار .

ودارت العربية في الطريق الرئيسى الذى قامت الحوانيت المغلقة على جوانبه ثم أخذت تصعد في طريق جانبي متجه إلى أعلى الجبل بعد أن عبرت شريط سكة الحديد ، وأخذ الطريق يزداد ارتفاعاً ، والدور تختفى من جوانبه ، وقلت المصاييح المنعكسة عليه .

وقالت الأم :

— لا أظن أن هناك فارقاً بين الحجرتين .

وأجاب العجوز في ثقة :

— بل هناك فارق كبير .. إن الشمس لا تقرب واجهة البيت .. وإن

الحجرة

وقاطعته الأم قائلة :

— عندما نصل سنتقى ما نريد .

وكانت العربية تقطع الطريق .. وقد ازداد تكاثف الظلمات .. وتناقل الضباب ، وخفت سرعة العربية .. وأخذ بول يرشد السائق بقوله :

— الزم يمينك .. ولف يميناً بعد هذه الشجرة .. حذار من حفرة على جانب

الطريق بعد الشجرة .

وبعد فترة وجيزة صاح بول :

— هناك هدىء والزم يمينك ، ثم قف أمام هذه البوابة الخشبية .. أجل هنا .

ووقف السائق .. وقفز العجوز من جواره صائحاً :

— تفضلن .. أنسيتن البيت !؟ هيا بنا .

وصاح السائق :

— هيا أنزل معى الحقائق .

ودفع « بول » البوابة فأحدثت مفاصلها صريراً .. سمع على أثره نباح من

الداخل .. وقال بول ، وهو يفرك يديه :

— إنه بيتر العجوز .. هل تذكره !؟

ولم يجبه أحد .. فقد كان الثلاثة يرزحون تحت وطأة النعاس ، ولفجهن

الصقيع ، ولسعتهم رطوبة الضباب .. فانكمن في ثيابهن وهن يسرن بخطوات

متعثرة نحو بوابة البيت .

وكانت مياه المطر .. قد أغرقت الأرض ، وأحس الثلاثة بزلق الطريق تحت

أقدامهن ، واندفع « بول » أمامهن يشق طريقه في وحل الحديقة ، وقبل أن

يطرق الباب الخشبي أضىء النور .. وسمع صوت يصيح من الداخل :

— من !؟

وصاح بول :

— افتحي يا سيدتى .. لقد وصلن .

وفتح الباب وبدا في الضوء شبح امرأة متوسطة العمر .. تهتف في انفعال

وتأثر :

— لورا !! أهلا وسهلا .. تفضلى .

ودلفت الأم من الباب ، وهى تضم المرأة فى شوق قائلة :

— كيف حالك يا جاني !؟

— ٢٤٨ —

— كيف حالك أنت ؟! لقد تأثرنا من أجلك .

— وأنا أيضاً .. أين ماما ؟!

— إنها تنتظر كمن في الداخل .

وعلا صوت الجدة يصيح هاتفاً :

— لورا .. حبيبتى .. تعالى .. أين ابتلاك ؟

وأقبلت « الأم » وابنتها على الجدة المضطجعة في فراشها ، وأخذت الجدة

تضمهن إلى صدرها ودموعها تنحدر على أخاديد وجهها ، وهى تنشج باكية .

وأخذت الجدة تحسس وجه الأم في حنان قائلة :

— أخيراً أراك يا « لورا »!! كنت أود أن أراكم جميعاً .. في خير وسعادة ..

ولكن الله أراد أن أضمكن إليّ في مصابكم .

وقالت « جانيت » ، وهى تجد الإرهاق والجهد قد أخذ منهن مأخذه :

— أظنكن في حاجة إلى العشاء .. إنى أستطيع بسرعة أن أعدّه لكن .

وقالت الأم :

— أنا لا أريد شيئاً .

وقالت نادية :

— ولا أنا .. لقد تناولنا طعاماً خفيفاً في القطار .

وقالت منى :

— وأنا لا أريد شيئاً إلا أن ألقى بنفسى على أقرب فراش .. وأنام مدة أسبوع .

وصعد الثلاثة إلى حجراتهن .. وبعد برهة كانت كل منهن قد رقدت في

فراشها .

وجذبت « نادية » الأغطية على رأسها وأخرجت أنفها من تحت

« الباطنية » .. وقبل أن تغمض عينيها .. تذكرت نومها في القاهرة .. وتذكرت

الشرفة التى يتسلقها الياسين في منشية البكرى .. والنادى .. وتكبيبات

الجهنمية ، وأرض « الكروكيه » الخضراء المنبسطة .. والشبح الطويل القامة ..

— ٢٤٩ —

العريض المنكبين .. وأحست ببعد الشقة ونأى المزار ، وأحست باليأس الجاثم
يكاد يخنقها .. ولم تستطع أن توقف عبرتين انسابتا على الوسادة .. ثم استغرقت
في سباتها ...

— ٢٥٠ —

(٢٢)

هاوية !!

استيقظت « نادية » لتستقبل أول صباح في « جاب » ، وكانت السحب قد انقشعت ، والشمس قد أشرقت .. وترامت على الأسقف الحمر المنحدرة المبتلة ببقايا المطر .

ووقف « نادية » وراء زجاج الشرفة ترقب من مربعاته القمم الشاهقة التي ترامت في الأفق ، وقد غطى هاماتها بياض يكاد يختلط ببياض السحب ، وانحدرت سفوحها الخضراء التي تكدست فيها الأشجار حتى حافة الوادي .

وبدت المزارع منبسطة حول الدار ، وقد تناثرت فيها أشجار الفاكهة تنخللها قطاعات من الكرنب والبنجر وغيرها من الخضراوات ، وعلى مقربة من الدار بدت حظيرة المواشي والدواجن وقد تعالت أصواتها وأخذت تتوالب في خفة ونشاط . وأحست « نادية » بالحياة تدب من حولها .. وسرى إلى نفسها شعور بالنشاط وتمنت لو انطلقت تعدو إلى المزارع وتتسلق الجبال .

ولم يطل بها التفكير حتى سمعت « منى » تهتف بها وقد أقبلت من حجرتها المجاورة :

— هيا بنا .

— إلى أين ؟

— نصعد الجبل .

— الآن ؟

— ولم لا ؟

— غير معقول .. يجب أن نجلس مع جدتنا .. ونرتب حجرتنا .. ليس من

— ٢٥١ —

الذوق .. أن نترك البيت من أول لحظة .
 — سنجلس مع جدتنا قليلاً .. ثم نستاؤون منها ، ولست أجد حجراً أننا نحتاج
 إلى ترتيب .. إنها على خير ما يرام .
 — من الذوق أن نبقى اليوم في البيت ، والوقت أمامنا طويل نتسلى فيه الجبل
 كما نشاء .

— لن يكون الجو صحوً كما هو اليوم .. هيا بنا .
 وتعالى صوت الأم من الدور السفلى يصيح :
 — نادية .. منى .. ألن تهبطا لتناول الإفطار ؟
 وأجابت منى :
 — حالا يا ماما . هيا يا نادية . ارتدى بنطلونك والحقى لى .
 وهبطت « منى » السلم الخشبي لتجد المنضدة العتيقة قد صفت عليها فناجين
 الشاي ، وبجوار كل فناجان سلطانية كبيرة مليئة باللبن وصحاف الجبن والبيض
 والأرغفة الطويلة البيض قد توسطت المائدة .
 وسألت الأم « منى » :
 — أين نادية ؟
 — ستبدل ملابسها وتهبط حالا .. إننا سنذهب لنصعد الجبل .
 وتساءلت الأم في دهشة :
 — جيل ؟
 — أجل يا ماما .. ماذا في ذلك ؟
 — ألا تستريحان من عناء السفر .
 — أنا شخصياً قد استرحت تماماً .. أما إذا كانت نادية تريد الراحة
 فلتسترح .

— بل أنت التي يجب أن تستريحى .
 وصمتت برهة وبدا عليها التفكير ثم قالت محذرة :

— ٢٥٢ —

— اسمعى يا منى .. لا أريد هنا مناكفة .. لا أريد وجع قلب .. إني أحذرك الشقاوة فأنت لا تتحملين الإجهاد ، ولست أرى معنى أبداً لصعود الجبل الآن .. ونحن لم نلتقط أنفاسنا من السفر بعد .

وأجابت « منى » محتجة :

— إنك لم تأتى بنا إلى هنا لتخزيننا .. وأنا لا أشعر بأى إجهاد .. كنت أصعد الجبل بسهولة وأنا طفلة صغيرة . ولم يكن شيئاً مجهداً أو مخيفاً .. فلماذا لا أصعده الآن ؟

— يا منى يا حبيبتي . إنك لم تكونى مريضة .

— وأنا لست مريضة الآن .

— أجل .. ولكنى أخشى أن تنتكسى من الإجهاد .

واقتربت « منى » من أمها ومدت يدها تعانفها فى عطف قائلة :

— يا ماما .. كفى عن هذه الوسوس إلى أنشط وأقوى من أى واحدة

منكن .. وأنا أشد تحملاً للتعب .. فلماذا تزعجين نفسك بى ؟!

وكانت « نادية » قد بدت فى أعلى السلم وأخذت تهبط مرتدية البنطلون والسويتير وقد شدت الإيشارب حول وجهها .

وقالت « منى » وهى تشير إلى الإيشارب :

— أثنوين الاستمرار على ارتداء الإيشارب هنا أيضاً ؟

وأجابت نادية :

— وماذا يضايقلك منه ؟

— إنه يضايقلك أنت .

— لقد تعودت عليه .

— يجب أن تتعودى على خلعه ، إنها فرصة لأن تخلصى نفسك من خناقه .

— إنى لا أريد أن أضايق الناس بمنظرى .

وتدخلت الأم قائلة :

— ليس بك ما ينفر الناس يا « نادية » .. وسيتعودون عليك كما أنت .

— ٢٥٣ —

وبدا الضيق على نادية واحمر وجهها وأجابت :
 — لماذا لا تتركوننى أفعل ما أحب .. أنا لا أتدخل أبداً فى شئون أحد .
 وأجابت الأم فى رفق :
 — لا تتضايقى يا حبيبتى .. افعلى ما تشائين .. وارتندى ما يحلو لك .
 وجذبت « منى » مقعداً وهمت بأن تجلس أمام المائدة عندما دخلت الأم
 قائلة :
 — أأنا نحييا جدتكما ؟
 وسار الثلاثة إلى حجرة الجدة .. وكانت العجوز قد جلست بهيكلها الضامر
 على مقعد ، ومدت ساقها على بعض الوسائد وبدت عيناها غائرتين وجلدها
 معروفاً وقد أحاطت كتفها بشال من الصوف الأسود .. وعلت شفها ابتسامة
 رقيقة وهى تبصر الأم وابتتها مقبلات عليها .
 وقالت وهى تضم الفتاتين إليها ضاحكة :
 — أهلا بحفيدتى المصيريتين .. لشدة ما أوحشنى بعدكما .. لقد كدت أئس من
 رؤيتكما .. من كان يصدق أنى سأنجب نسلا من أبناء الفراعنة ؟ .. كنت أريد
 أن تكون إحدكما شبيهة بكليوبتره .
 وأجابت « منى » متسائلة :
 — شكلاً أم موضوعاً ؟
 وضحكت الجدة قائلة :
 — شكلاً .. فقط .. فأنا أتمنى لكما عمراً طويلاً وحياة سعيدة .
 وقالت « منى » مستغلة الفرصة :
 — إذن هل تسمحين لنا أن نبداً حياتنا السعيدة بصعود الجبل ؟
 وضحكت الجدة قائلة :
 — يا منى .. لقد سمعت مناقشتك مع أمك .. هل يسعدك حقاً صعود
 الجبل ؟!

— جداً .. سأصعد حتى شاطئ البحيرة .. إني ما زلت أذكرها وأذكر البيت المقام على حافتها .. كان به إسطليل للخيول .. وكان به شجرة تفاح كبيرة .. وكان به فتاة جميلة تركب الحصان .

وهزت الجدة رأسها وبدأ عليها الشرود وهى تقول :

— أجل .. كان به .. كان .. وكان .. ولكن لم يعد به الآن .. سوى قفر وخراب .. الفتاة الجميلة .. جمع بها الحصان ذات مرة .. فأوقعها من حافة الجرف المستند عليه البيت .. فسقطت فى الهاوية .. وهاجر من البيت ، وقضى من قضى ، ولم يبق فيه سوى رب البيت الذى هبط إلينا فى النهاية ليقطن بجوارنا .. يشيد مدرسة لليتامى يقضى بها بقية عمره .. إنه رجل طيب يزورنا بين آونة وأخرى .

وكانت « نادية » تنصت إلى حديث الجدة وقد شرد ذهنها فى البيت الأنيق على حافة البحيرة .. والفارسة الجميلة على ظهر الحصان .. ثم .. الحصان يجمع بها إلى حافة الجرف ويلقى بها إلى أعماق الهاوية .

وأردفت الجدة تقول وهى تتناول كوب اللبن من جانيت :

— أظنه سيزورنا اليوم .. وستسره رؤيتك كثيراً .. طالما حدثته عن صغيرتي المصريتين ، أليس كذلك يا جانيت ؟! أظن موعد زيارته اليوم !؟

وتساءلت جانيت :

— من ؟

— مسيورينو :

— أجل .. أجل .. لقد لقيته أمس فى الميدان أمام المكتبة ، وسأل عنك .. وأنبأنى أنه سيزورنا اليوم :

وبدا القلق على وجه « منى » كأنما خشيت أن يحكم عليها بانتظار الرجل ، ومدت يدها تجذب « نادية » من ذراعها قائلة :

— هيا يا نادية تناول الإفطار ، حتى نذهب إلى الجبل .

وغادرت الفتاتان حجرة الجدة إلى حجرة المائدة ، واتخذت كل منهما مجلسها على مقعدين متجاورين ، وجلست الأم وجانيت على المقعدين المواجهين ، وأقبل بول يحمل وعاء مليئاً باللبن ، وألقى عليهن تحية الصباح ، متهلل الأسارير ، ضاحك الوجه ، تتبعه امرأة بدينة قد أمسكت بيديها دجاجتين وقدمها لمن قائلاً :

— ابنتي ماري .. لقد أتت للترحيب بكن .. وأصرّت على أن تذبح لكن أكبر دجاجتين لديها .. وستبقى لطهوهما .. وقد أبدت استعدادها لكي تقوم لكن بأعمال الطهو .. إذا كنتين في حاجة إليها .
وأجابت الأم :

— أهلاً يا ماري .. لماذا كل هذا التعب ؟! إننا نرحب بوجودك معنا دائماً .. ويسرني أن تعاودي الطهو لنا .. إذا كنت لم تنسى صنع الفطائر التي كنت تصنعينها فيما مضى .

وضحكت المرأة السمينية حتى اهتزت أطرافها وأجابت :

— بل تعلمت أشياء خيراً منها .

— انتهينا إذن .. سنذوقها اليوم .

وازدردت « منى » إفطارها بسرعة وشربت اللبن ، ثم نظرت إلى « نادية » تستحثها .. وهي تنهض عن المائدة .

ولم يطل الأمر بنادية حتى تبعها إلى الحديقة .

ونظرت « نادية » إلى زهور القرنفل الحمر النابتة في أحد الأحواض وهتقت في إعجاب قائلة :

— انتظري يا « منى » حتى نقطف بعض القرنفل ونضعه في الزهريات .

— يا نادية .. كفى تلكؤاً .. هيا بنا قبل أن يأتي مسيو رينو .. ونضطر أن

نقضى الصباح في تحيته .

— أتستطيعين مقاومة إغراء هذه القرنفلات ؟!

— وأقاوم أبأها .. هيا بنا وكفى شاعرية سخيصة .. إن القرنفلات لن تطير .

— اسمعى يا منى .. لقد خرجنا للتنزه ، وليس للسباق في الجبل .. فدعينا

نتمتع .

وقطفت « نادية » إحدى الزهور .. ورفعتها إلى أنفها في نشوة وإعجاب

قائلة :

— هائلة .. يجب أن نرفع هذه الزهور الصناعية التى كدّسوها في

الزهریات .. وتراكت على أوراقها الأتربة .

— عندما نعود افعلی كل هذا .

— أجل .. أجل .. سأفعل .. وسأغير كل نظام البيت ..

سأرفع هذه الستائر العتيقة التى تملأ البيت كآبة ووحشة .

وأجابت « منى » وهى تعبر البوابة الخشبية :

— إنها تناسب كل ما فى البيت . لا تنسى أنه بيت جدتنا ، وهو بستائره وأثاثه

الثقیل .. وزهوره الورقية المكدسة فى الزهریات مناسب جداً لها .

— ولكن يجب أن نغير كل هذا .

— لا يهمنى كثيراً .. إننا لن نعيش فيه إلى الأبد .. إننا سنعود إلى مصر .

وهزت « نادية » رأسها فى شك .. وأجابت :

— من یدرى !!

— عن نفسى .. أنا أدرى .. فى الصيف القادم سأكون فى مصر مع

عصام .. سيكون لى بيت .. وعربة .. وأشياء أخرى .. كثيرة .

ومدت « نادية » يدها تحکم رباط الإيتارب حوله عنقها وأجابت ، وقد

شرد فكرها :

— إن شاء الله .

— وأنت أيضاً ستعودين ؟

وعادت « نادية » تهز رأسها ، وهى تجيب فى صوت خافت :
— لا أظن .. إن من الخير أن أوطن النفس على العيش هنا ، ولا أظن المسألة ستكون بمثل ما توقعت من مشقة .

وعبرت الفتاتان حقل « الكرنب » الذى تكدّست فيه الكرنبات الرمادية الخضرة ، وقد تلالأت حبات المطر والندى على سطحها المنتفخ . ووصلتا إلى الطريق . ونظرت « نادية » إلى المرتقى المتجه إلى الجبل وتساءلت .

— أتظنينا سنعرف الطريق إلى البحيرة ؟

— سنظل صاعدين إلى أعلى حتى نصل .

— ألا تخشين أن نضل !؟

— إذا ضللنا نعود ، ولا أظننا ، سنضل الطريق إلى البيت .

وبدأت الفتاتان فى الصعود .. سائرتين على الطريق .

وكان الانحدار يسيراً فى أول الأمر .. ولكنه أخذ يزداد كلما ابتعدتا عن السهل ، وأخذت الأشجار تكاثف حولهما ، والمياه تنحدر من أنحاديده السفوح متخذة طريقها بين الحصى والطمي والصخر .. تسير تارة فى هدوء ، ثم تنحدر تارة أخرى فى عنف وصخب .. وفى هدوئها وصخبها .. تملأ النفس إحساساً بالحياة والنضرة والأمل .

وطال بهما السير والطريق لا ينتهى ، وكلما أحسّت إحدهما بطول الطريق ، وتعجلت الوصول رفعت بصرها إلى أعلى .. فإذا بالقمة ما زالت بعيدة .. بعيدة .

وأخذ الطريق ينحنى يمنة ، ثم يسرة ، متبعاً المسلك السهل ، متجنباً الانحدار الحاد .

ونظرت « منى » إلى الطريق فى ضيق وهتفت « بنادية » :

— اسمعى يا نادية .. إذا اتبعنا هذا الطريق المزعج المتلوى فلن نصل فى يومنا .

— ماذا تريدن إذن ؟!

— هيا نشق طريقنا إلى أعلى بين الأشجار والصخور .. إننا سنوفر نصف المسافة .

— ولكن الصعود سيكون مرهقاً !

— لا تكوني كالعجائز .. إنك تخشين من كل شيء .

— يا منى .. أنا لا أخشى على نفسي ولكن أخشى عليك .

— اسمعي .. إياك أن تكرري ما قالته أملك اليوم .. لقد ضقت بهذه الوسواس .. إنكما أنتما اللتان ستجلبان إليّ المرض .. إلى أسلم من أية واحدة منكما .. وسأريك كيف أستطيع تسلق الجبل .

وقفزت « منى » من الطريق الرئيسى المتجه يمينا .. وصعدت من حافته إلى أعلى الجبل .. ولم تملك « نادية » إلا أن تتبعها صائحة :

— أيتها العنيدة .. الغبية !!

واندفعت الفتاتان بين الأشجار المتكاثمة .. تشقان طريقهما إلى أعلى الصخور بين الحصى والأعشاب .. وخرير المياه .. يفد إلى مسامعهما في شدو جميل .

ونظرت « منى » إلى أعلى ، ثم هتفت بنادية :

— انظرى .. لقد وصلنا .

ونظرت « منى » .. فإذا بقمة أحد أبراج البيت قد بدت في أعلى السفح ..

واندفعت « منى » تعدو .. ووراءها « نادية » تصيح بها :

— مهلا يا منى .. لقد قطعت أنفاسى .

— اجرى ... « يا مقطوعة النفس » .. تقولون عني مريضة .. إلى أستطيع

أن أتسلق عشرة جبال .

وأخيرا وصلت الفتاتان إلى قمة الجبل .

ووقفت « نادية » تنظر إلى الأفق البعيد .. فإذا بقمم آخر .. ما زالت تتعالى

فى الأفق .. بتيجانها البيض الثلجية ، وإذا بهما ما زالتا تبدوان كأنهما فى بطن
الوادى .

وقالت « منى » ، وهى تهز رأسها فى عزم :
— فى يوم من الأيام .. سأصل إلى هذه القمة العالية .
وضحكت « نادية » قائلة :

— أنا شخصياً .. لن أحاول الوصول إليها .. عن طريق الأرض .. فإن
الهبوط إليها من السماء أسهل كثيراً .
وأجابت « منى » :

— وهل تظننهم يسمحون لنا بالهبوط إليها .. بعد أن أمسكوا بخناقنا فى
السماء .. أسهل على أن أصعد منها إلى السماء .. من أن أهبط من السماء إليها .
وضحكت نادية وأجابت :

— على أية حال .. دعينا الآن منها .. ومن السماء .. يكفيننا ما وصلنا إليه ..
هيا بنا إلى شاطئ البحيرة .

وسارت الفتاتان بين الأشجار المتكاثفة .. وعبرتا قنطرة خشبية قائمة فوق
مجرى تنحدر منه المياه .. وتكاثفت حوله الأعشاب والشجيرات .. وبعد
برهة .. بدا لهما .. سطح البحيرة يلمع فى ضوء الشمس .. وأخذ الجزء البادى
من قمة البرج يزداد رويداً رويداً .. حتى بدا البيت المقام على شاطئ البحيرة
كاملاً .. بأبراجه القائمة فى أركانه الأربعة وسقفه الضخم الشديد الانحدار الذى
علت شققاته الحمر خضرة الطحالب .. ونوافذه الصغيرة التى عصفت الريح
بضلفاته وهشمت زجاجها الملون ، وشرفاته الخشبية التى سقطت قوائمها ..
وبابه الحديدى الذى تراكت الأتربة على حافته .. وتشابكت الأعشاب
والحشائش على درجاته الحجرية .

وبدا السور المحيط بالبيت حائل اللون محطم الدعائم ، وإسطبل الخيول المقام
فى طرف الحديقة قد انفصل بابه وسقط سقفه .

وفي البحيرة .. بدا خيال البيت الخالى .. يهتز ويرتجف ، كلما هبت نسمة على سطح البحيرة .

ووقفت « نادية » ترقب البيت فى صمت .. وقد علت وجهها علامات الأسى .. وذكرى البيت تطوف بذهنها .. كأنها صورة فى حلم .. بفارسته الجميلة على صهوة جوادها .. والحياة تملأ رحاب البيت .

ودارت « نادية » حول السور .. وانتهت إلى الجانب الآخر من البيت المطل على الجرف .. وبدا الوادى ممتداً أسفله .. والبيوت كالدُمى .. والأشجار كالحشائش .. والمزارع مقسمة فى خطوط مستقيمة كأنها رقع الشطرنج .

واقتربت « نادية » من حافة الجرف .. وقد بدا شديد الانحدار .. وتراءت فى أسفله .. على حافة السطح .. بقع بيض قد انتظمت فى خطوط متوازية .. استطاعت أن تميز فيها مقابر البلدة .

ومرة أخرى طافت بذهنها الفارسة الأنيقة .. يلقي بها الجواد من قمة الجرف لتهوى إلى قاع الهاوية .. حيث البقع البيض المنتظمة فى الخطوط .

وتملكها رجفة .. وأصابها غثيان .. وتراجعت لتكئ على حافة كوخ خشبى وراء البيت .

وسمعت صوت « منى » يهتف بها :

— نادية .. أين أنت ؟

ورجع الصدى بصوت منى . وازدادت الرجفة « بنادية » وهى تهتف بحماسة

« منى » لتسمع صوتها يردده الصدى .

وأسرعت تاركة المكان ، وهى تحس كأن شيئاً خفياً يجذبها نحو الهاوية .

(٢٣)

حفيف ونغم !

عادت « نادية ومنى » من رحلتها الأولى إلى الجبل قبيل الظهر .. لتجدا الضيف المنتظر صاحب الدار الخربة الذى هبط من الجبل لينشىء معهد الأيتام قد أقبل على الدار .. وكان الرجل قد جلس على مقعد مواجه للجدة ، وقد بدا ضئيل الجسد ، محنى الظهر ، سمح الوجه ، رقيق الملامح .

و لم تكد تقبل الفتاتان على « الجددة » حتى هفت ضاحكة :

— ها هما قد أقبلتا .. حفيدتاى المصريتان .. ليست بهما ملامح الفراعنة ، ولكنهما مصريتان لحماً ودماً .

ونفض مسيو « رينو » ليلقى الفتاتين مرحباً وهو يقول :

— إنهما تبدوان فرنسيتين أصيلتين .. لقد ورثتا شكل جدتهما .

وأجابت الجددة ضاحكة :

— الشكل فقط .. فهما شديدتا التعلق بمصريتهما .

وعاد العجوز إلى مقعده وهو يقول :

— أرجو أن تطيب لهما الإقامة بيننا .

وأجابت منى :

— إن « جاب » جميلة .. لقد صعدنا الآن إلى الجبل ، وطفنا حول البحيرة .

وقال العجوز :

— لعلها أعجبتكما !! لقد مضى بى وقت طويل لم أصعد إلى هناك .

وخيمت على الرجل سحابة حزن ثم أردف قائلاً :

— إني لم أعد أطيق منظر البيت بعد الحادث .. وفوق ذلك فإني لا أكاد أجد

— ٢٦٢ —

فسحة من وقتى .. فهؤلاء الصغار قد استولوا على كل دقيقة منه .. إن مشكلاتهم لا تنتهى .

وردت الجدة قائلة :

— أنت تنهك نفسك كثيراً يا رينو .. لم تعد سنك تحمل كل هذا الجهد .

ثم وجهت الحديث إلى الفتاتين متسائلة :

— ما رأيكما فى أن تعملنا مع مسيو رينو فى المعهد .. إنه فى الواقع يحتاج إلى مزيد من المدرسات .. لقد عرصب عليه أمكما معاونه .. ولكنى قلت لها إنها لم تعد صغيرة ، وإن واحدة منكما .. قد تكون أقدر منها على حمل متاعب الصبية .
ما رأيك يا نادية ؟!

وتساءلت « منى » فى دهشة :

— ولماذا نادية ! . ولست أنا ؟!

وردت الجدة :

— لقد قالت أملك إن نادية .. أكثر جلدأ ، وإنها ترعب فعلا فى العمل .

— هذه إحدى تشنيعات أُمى ، لن يعمل مع مسيو رينو سوى .

وضحك العجوز وربت كتف « منى » قائلة :

— ستعملان أنما الاثنتان .. إني فى حاجة إليكما معا .. واحدة تعاوننى فى

المكتب ، والأخرى تعمل فى أحد الفصول .

وأجابت منى :

— سأعمل أنا فى أحد الفصول . إني أحب مناكفة الصغار .

وسأل رينو نادية قائلة :

— وأنت تعملين معى فى المكتب ؟

وأجابت نادية :

— سأعمل فى أى شئ تريد .

— سأضع لك مكتباً فى الغرفة الصغيرة التى تطل على الحطة . وستعاونين مع

— ٢٦٣ —

« مدام كلود » فى كل أعمال المكتب . الواقع أنى قد أثقلت عليها بالعمل ،
وقد آن الأوان .. لكى تأخذ بعض الراحة .

وبدت الأم تقبل من القاعة .. فقالت لها الجدة :

— لورا .. لقد وظفت لك الصغيرتين .. كلتيهما .. إن « رينو » رحب
باستخدامهما فى معهنه .

— الاثنتين ؟!

وأجاب رينو :

— أجل الاثنتين .. إنى فى حاجة إليهما .

— ولكن منى . قالت إنها ...

وقاطعتها « منى » قائلة :

— لم أقل شيئاً .. إنى سأعمل مع مسيور رينو .

— إنى لا أريدك أن تجهدى نفسك .

و« حابت » منى « متحدية :

— أرايتم .. إنها هى التى تريدنى ألا أجهد نفسى .. إنها تانى إلا أن تهمنى

بالمريض ، وإنى سليمة « كالجن » . لقد سبقت « نادى » فى صعود الجبل .

وصمتت الأم برهة ثم قالت موجهة الحديث إلى مسيور رينو .

— إذا كنت مصرّاً على العمل .. فأرحو ألا يكون عملها محهداً لو أمكن

أن توركل إليها عملاً مكتبياً .

وهر « رينو » كتفه قائلاً :

— لقد حاولت . ولكنها تصر على أن تعمل مع الصبية وقالت « منى » .

محتجة ..

— ليس العمل مع التلاميذ بالأمر الشاق .. إنى أعرف كيف أتعامل معهم .

وتدخلت الجدة قائلة :

— دعها يا لورا تعمل ما تريد .. إنها أدرى بنفسها .. لا تخشى عليها .

وأقبلت « جانيت » من المطبخ تقول :

— الغداء جاهز .. هل أعد المائدة ؟

وأجابت منى :

— إني أكاد أموت جوعاً .

وردت الأم :

— من فرط ما عدوت .. هذه آخر مرة تصعدين الجبل على قدميك .

— كيف أصعبه إذن ؟! .. على يديّ وقدميّ ؟!

— تصعدين في عربة .

— ومن أين لي العربة ؟!

فقال مسيورينو :

— عربتي تحت أمر كما .

— ولكن قيمة الرحلة في الصعود على القدمين .. في تسليق الجبل .. مافائدة

الرحلة .. إذا كانت العربة تحملني إلى أعلى الجبل في بضع دقائق ؟!

وتدخلت « الجدة » قائلة :

— ليس هذا وقته .. انهضوا للغداء .. قلت لك لا تدققى معها يا لورا ..

دعيتها تفعل ما تشاء .. وعندما تتعب ستضطر إلى الرجوع .. لقد كنت مثلها من

قبل .. لقد حفيت قدماي من صعود الجبل ، وعندما كلت ساقاي ، وأجهدني

الزمن .. لم أجد بداً .. من الرقاد في سكينة وهدوء .

ونظرت « الجدة » إلى « رينو » وتساءلت :

— أليس كذلك يا رينو !! أتذكر أيام صبانا ؟!

وهزّ الرجل رأسه وأجاب :

— كانت أياماً جميلة . كنت أرى الشجر أكثر ازدهاراً ، ومياه الشلال أكثر

صفاء ، وقمم الجبال أنصع بياضاً .

وأقبلت جانيت مرة أخرى تدعوهم إلى المائدة ، وسألت الجدة قائلة :

— أحضر إليك الطعام الآن ؟

وهزت العجوز رأسها وقالت :

— بل ساعديني على الجلوس إلى المائدة .. إنى أريد أن أجلس اليوم بينكم ..
أريد أن أحس بأحفادي من حولى ، بعد طول الوحدة .

وانتقل الجميع إلى المائدة .. وقد اتكأت الجدة على كتفى الأم وجانيت ،
واتخذت مكانها فى صدر المائدة .. وقد بدا على وجهها الجذل والحيوية وهى
تقول :

— جميل أن يحس الإنسان بالأحباء من حوله .. إننا لا نحس .. بقيمة
أحبائنا .. إلا بعد أن تقعدنا الحياة ، ونعجز عن ملاحقتها .. ونرى ركبها يمر بنا
ليخلفنا فى فراغ ووحشة ، ونتوق إلى أن يتمهل البعض من حولنا .. يمنحونا فى
قعدتنا العاجزة .. بعض الأنس .. وبعض الحنان .

وقالت جانيت :

— تلك هى الأسرة .. فائدة أن يكون للإنسان أبناء وأحفاد .. يتمهلون معه
فى قعدته .. لكى يمنحوه محبتهم وحنانهم .. ويريدون له ثمن وجودهم فى الحياة .
وهز رينو رأسه وطافت به موجة حزن وهو يقول فى صوت خافت :

— وعندما نفقد هؤلاء الأحباء الذين يتمهلون معنا .. لكى يمنحونا عطفهم
ومحبتهم .. نضطر نحن إلى أن نترك .. قعدتنا العاجزة .. ونعدو وراء المحبة ،
والحنان .. نضطر نحن إلى أن نجرى للحاق بالركب .. حتى لا تقتلنا الوحدة ،
ويزهق أنفاسنا الفراغ .

وأحست « نادية » .. بآلام العجوز .. وطافت بذهنها الفارسة الجميلة على
ظهر حصانها .. والهاوية الفاعرة فأها .. والبيت الموحش الخرب .. تفرع الريح
أبوابه ، وتصفر الوحشة بين جدرانها .. وتمنت لو استطاعت أن تتمهل تملأ عليه
وحشته وتمنحه العطف الذى يريجه ، والحنان الذى يفتقده .

وانتهى الغداء ، ومرّ اليوم والجميع منهمكون فى العمل بالدار أو التجول فى
الحديقة .

وفي صبيحة اليوم التالى .. كانت « نادية ومنى » تهبطان المنحدر الموصل من الضاحية إلى البلدة فى طريقهما إلى المدرسة ليلتقيا بمسيو « رينو » .. حيث عملهما بالمدرسة .

ولم تكن المسافة بالقصيرة ، ولكن برودة الصباح حببت إليهما المسير .. وكانت كل منهما قد تدثرت بمعطفها ودست كفيها فى جيبيه وأخذت تحت الخطأ هابطة من المنحدر .

وكانت « منى » قد ارندت على رأسها « طرطوراً » من الصوف الأخضر .. فد « كسسته » حتى غطى أذنيها ، وكانت « نادية » قد أحاطت رأسها بإيشارب من الصوف ربطته حسب عاداتها حول عنقها ، ورفعت ياقة المعطف حتى غطت الجزء الذى من العنق .

وبدا وصع الإيشارب حول رأس « نادية » طبيعاً .. ولم يبدُ هناك فارق ظاهر بين طريقة تعطبة رأسها وعنقها والطريقة التى فعلتها « منى » بالطرطور الصوفى .

ووصلت الفتاتان إلى السيوت القائمة على المنحدر والتى تحدد مدخل البلدة من ناحية الضاحية واستمرتتا فى الاحدار إلى الطريق العمومى حتى عبرتا شريط سكة الحديد ، وهمت « نادية » بالانجاء يسرة فى الطريق المجاور لسكة الحديد والذى تقوم المدرسة على جانبه .. ولكن « منى » جذبتها من دراعها قائلة :

— هيا بنا ندخل من الشارع الرئيسى .

لمه ؟!

— لأن هذا الطريق فارغ مهجور .. ليس به ناس ولا حوانيت .

— وماذا تريد من الناس والحوانيت ؟!

— تنفرج . شاهد البلدة وأهلها . نرى واجهات المحلات .

— هيا يا منى .. ليس هناك وقت .

— وقت ؟ .. ليس عندنا هنا أكثر من الوقت .

— والمدرسة ؟

— لتتظر .. ماذا تظننها ؟! بضعة يتامى .. يلهون مع العجوز . والعمة كلود .

— إنها مدرسة يا منى ، وأنت لديك فصل ، وأنا لَدَى مكتب .

— هَوْنِي عليك .. يا نادية .. هَوْنِي .. ماذا تظننهم كانوا فاعلين .. بدوننا ..

هيا نشاهد « الفترينات » ونتفرّج على الناس .. دعينا نتمتع بصباحنا .

ونظرت « نادية » إلى الساعة وأجابت :

— اسمعى . الساعة لآَن الثامنة والربع .. وموعدنا الثامنة والصف .. لن

أسمح لك بالتلكؤ أكثر من ربع ساعة .. نحن لا نريد أن نبدأ عملنا مع الرجل

بالتأخر عن الموعد . عمل يعنى عمل .

— يا باى .. كأنى بك عينت فى أكسفورد !!

— إنها تتساوى عندى بأُكسفورد .

وجذبتها من ذراعها وهى تقول :

— سمعيا كما تشانين ، ولكن هيا بنا نشاهد البلدة .

وسارت الفتاتان فى الطريق الرئيسى . وكانت الحوانيت قد فتحت أبوابها

واملأَت الأرصفة بصيية المدرس يتلاحقون محقائهم ومرابلهم السود .. أو

ستراتهم الكحلية ، وبدت حوانيت الفاكهة والحضر والزهور . ندية ..

ناصره .

وحست « نادية » لأول مرة بالحياة تحيش من حولها ، وملأَت نفسها إحساس

بالارتياح والأمل .. بدد تلك الرواسب التى خلفها البيت المهجور ، والهاوية ،

وصفوف المقابر المتراسة فى سفحها .

ووصلت فى النهاية إلى الميدان الرئيسى ، وتلكأت « مى » أمام حانوت

ملابس فى ناصية الميدان ، وأخذت تشاهد فاترئة رصت بها مجموعة من

« الكرافات » . وتنقل بصرها من واحدة إلى أخرى .. فاحصة ثمن كل منها ،

وجذبتها « نادية » قائلة :

— هيا بنا يا منى .. لقد بلغت الساعة الثامنة والنصف .

— انتظري لحظة حتى أشاهد مجموعة « الكرافات » .

— ماذا تريد من الكرافات ؟!

— أريد واحدة لعصام .

— بمناسبة ؟

— عيد ميلاده .

— متى ؟!

— في ١٥ نوفمبر .

— أمعك نقود ؟!

— سيصبح معي في أول الشهر .. ألن نقبض مرتبنا ؟

— هل تظنين أننا سنضيعه في شراء الهدايا ؟

— إن ثمن « الكرافة » لن يضيع المرتب ولا بد أننا سنجعل من المرتب جزءاً

لمصروفنا الخاص .

وعادت « منى » تنظر إلى « الفاترينة » ثم أشارت إلى إحدى « الكرافات »

قائلة :

— ما رأيك في هذه يا نادية ؟!

— لطيفة ..

— وهذه !!

— أيضاً لطيفة .

— وهذه ؟!

— اسمعي يا منى .. تظنينا سنقضى الصباح في المقارنة بين « الكرافات » ..

عندما يحل أول الشهر تعالى واشترى أى « كرافة » تعجبك .. هيا بنا .

وقبل أن تجذبها من يدها لتسير بها .. كانت تتسلل بعينها إلى « الفاترينة »

لتفحص الكرافات .. أى واحدة منها تليق بعقريها .. العريض المنكبين ..
المتجهم السمات !!

لقد رأيته مرة « بجا كنة انجليزى كاروهات » تليق عليها هذه « الكرافة »
المخططة بأحمر ، ومرة أخرى كان يسير فى حديقة النادى ببذلة لونها كحلى تليق
عليها هذه الكرافة المنقطة ، وهذه الكرافة تليق ببذلته الرمادية . ولكن علام كل
هذا التعب !

إن « منى » تختار .. لأنها سترسل لعصام .. هدية فى عيد ميلاده .

لماذا تشغل هى نفسها بالاختيار ؟

هل تجرؤ على أن ترسل له هدية ؟ باسم من ؟ باسمها ؟ أم باسم مجهول ؟

ونظرت إليها « منى » وقد شردت بنظرها فى « الفاترينة » وهتفت بها :

— هاى .. كنت أظنك مستعجلة . من أجل الموعد ؟!

وأفاقت « نادية » وأجابت قائلة :

— أجل .. أجل .. هيا بنا .

وحثت الخطا .. متجهة مع أختها إلى المدرسة .

ووصلت الأختان إلى المدرسة ، واجتازتا الباب الخشبي الضخم الذى توسط

السور الأبيض المرتفع ، ولاح لهما بناء المدرسة العتيق يتوسط فناءها الرحب .

وكان الصبية قد انتشروا فى الفناء ، وبدت بينهم بعض المدرسات ، وتلفتت

« منى » حولها ، ثم اتجهت إلى باب البناء تتبعها « نادية » ، وصعدتا بضع

الدرجات أمام الباب ثم وقفتا فى دهليز غلبت عليه الظلمة .

وبرز إليهما عجوز يمسك مكنسة وسألها عما تريدان ، وأجابت منى :

— مسيورينو .

— إنه فى حجراته لم يهبط بعد .. تفضلا بانتظاره حتى أخبره .. من أقول له ؟

وأجابت منى :

— بنات مدام لورا .. منى ونادية .

ووقفت « منى » تشاهد بضع لوحات معلقة على الجدران ، تمثل الجبال والجليد ، والخيال .

وبعد لحظات سمعت وقع خطوات العجوز يهبط الدرج ، ثم بدا مسيو « رينو » بجسده الصئيل وظهره المنحني وشعيراته البيض التي تملأ رأساً ملاء الشمس .

ولم يكذبصرهما حتى هتف بهما مرححاً :

— أهلا .. أهلا .. لقد أعدت لك مكتبك يا نادية ، إنه في الدور العلوى في

الحجرة لصغيرة المجاورة لحجرة الموسيقى .. أرجو ألا ترعجك الموسيقى ؟!

و'جابت « نادية » وهي تهر رأسها .

— أبداً .. أبداً .. إني أحب الموسيقى .

وضحك العجوز قائلاً :

— أرجو ألا نخيبها بدرجة . تصرفك عن عملك ؟!

وأجاب « نادية » ضاحكة :

— على 'لعكس .. إنها تساعدنى على العمل .

وقالت « منى » :

— وأنا . ان أذهب ؟!

— ستولين الفصل الثالث في الفرقة الأولى .. لقد كانت تتولاه « أجاث » ،

ولكها تزوجت وتركنا ، واضطرت أن أحيل أعمالها إلى « كريستين » ،

وأعتقد أنها قد بانت في حاجة إلى منقذ ينقذها من هذا الفصل الشقى .. هل

تقدرين عليه ؟

— وعلى شرمه .

— حسن .. كل ما أرجو ألا تتزوجى قريباً .. حتى لا نعود إلى إلقاء العبء

مرة أخرى على أكتاف كريستين .

— لا تخف ، لن أتزوج قبل عام .. إن أمامه فترة حتى ينتهى من أعماله في

الصحارى .. ويستقر فى القاهرة .

— من هو ؟!

— زوجى .. إنه ضابط بالفرسان فى الجيش المصرى .

— هكذا ؟! بلغيه تحيتى لأنى أحب الفرسان .

ثم التفت إلى « نادى » قائلاً :

— وأنت يا نادى .. لعلك لن تتركنا بنفس السرعة .. هل هو ضابط

أيضاً ؟!

وأجابت « منى » ضاحكة :

— لا .. إنه جزّار .

وتساءل « رينو » فى دهشة وأجاب ضاحكاً :

— جزّار ؟ ..

— أجل .. جزّار آدميين .. إنه طيب جزّاح .. أبسط عملية عنده .. بتر

الذراع .

وصاح « رينو » ضاحكاً :

— مرة واحدة . اللهم اكفنا شرّه . ومتى ستزوجين ؟

وهمت « منى » بالرد ، ولكن « نادى » صاحبت بها ناهرة بالعربية :

— منى .. كفى عن هذه السخافة .

ثم عاودت الحديث بالفرنسية قائلة للرجل :

— لا تصدق شيئاً مما قالت . إنها تمزح .

وضحك العجوز قائلاً :

— على أية حال .. إذا تحقق مزاحها .. فأرجو أن تبعدى عنا « جزّارك » فأنا

فى حاجة إلى كل جزء فى بدنى .

ثم نادى على الفرّاش ليصعد مع « نادى » ليعدها حجرتها .. قائلاً :

— سأعود إليك بعد برهة لأعرفك بالسيدة « كلود » التى ستعملين

معها .. إنها سيدة لطيفة .. ولا سيما إذا كانت على وفاق مع زوجها .
 وصعدت « نادية » مع الفراش إلى أعلى ، وتحرك مسيو « رينو » مع « منى »
 إلى الفناء .
 ووقفت « نادية » وسط حجرتها .. المظلة على المحطة . وبدأ لها سقف المحطة
 المنحدر .. وجزء من الرصيف ، وسور المحطة الممتد بجوار القضبان .
 وفوق كل هذا امتدت سنديانة ضخمة .. تهدلت بعض أغصانها فحجبت
 جزءاً من بناء المحطة ، واستقامت بقية الأغصان لتحجب جزءاً من السماء
 والسحب .
 وتذكرت للسنديانة شبيهاً .. في مكان بعيد .. تذكرت الكافورة القائمة
 بجوار نافورة النادي .. تحجب جزءاً من السماء وجزءاً من الأبنية المجاورة .
 وسرى حفيف بين الأغصان .. خيل إليها أنه نفس الحفيف .. كأنما تهمس به
 الأوراق هناك لتردده الأغصان هنا .
 وسمعت صوت موسيقى ينبعث من حجرة مجاورة .. كانت أصابع تعزف
 البيانو في بطء حزين .
 وأخذت تنصت إلى الحفيف والنغم ، وعيناها تسبحان وراء الأفق ..
 بعيداً .. بعيداً .. حيث الوطن البعيد .. والحبيب النائي الموهوم .

(٢٤)

اكتب إلى ...!!

مرت الأيام بالأسرة في موطنها الجديد بالمدينة الصغيرة القائمة على سفح الجبل ، وملأ نفوسهم إحساس بالاستقرار النسبي ، وسادتهم حالة طمأنينة .. اطمأن فيها كل منهم إلى طريقة حياته .. فاستراحت الأم .. إلى استقرارها في البيت الذى نشأت بين جدرانها .. وقضت صباحها ترتع في مراعيه وتمرح بين أحرشه ، وملأها عزاء أن تظل بجوار « أمها » حتى آخر أيامها .. واستطاع تشاغلها بالإشراف على الدار وإعداد الطعام ورعاية شئون المزرعة والعناية بالطيور والماشية أن يعيد إلى نفسها الإحساس بالحياة .

وانهمكت « منى » بين الصبية ، واندججت في مشكلاتهم .. فإذا ما ضاقت بهم انطلقت لتسلك الجبل أو لتشارك في الحفلات الصغيرة الراقصة التى تقيمها إحدى زميلات المدرسة أو إحدى صديقات الجيرة .

واطمأنت « نادية » إلى عملها فى حجرتها الصغيرة المطلة على السنديانة الضخمة التى تحتضن مبنى المحطة بيد .. وتلوح باليد الأخرى بين السحب . ولم يكن عملها بالعمل الشاق .. كانت أشبه بمدير أرشيف المدرسة .. أو رئيسة محفوظاتها .. كانت ترتب بطاقات التلاميذ وتحفظ ملفاتهم .. وتسجل فيها كل ما يجد من معلومات .. خاصة بالحالة الدراسية .. والصحية .. وكان أكثر ما يربحها فى عملها هو البعد عن الناس .. كانت فى مقرها .. أشبه بعامل المرصد .. يرقب ولا يرى .. تبصر كل الناس ولا يبصرها أحد .

فمن وراء الزجاج الذى تتلاعب أوراق السنديانة على حافته .. كانت تبصر رواد المحطة ، وكانت ترقب الراحلين والقادمين .. المودعين والمستقبلين ..

كانت ترى القطار يفرغ حمولته ويملؤها .. وهى قابضة فى مكمنها .. آمنة مطمئنة .. لا تكاد تبصر فى يومها سوى وجه السيدة « كلود » الرقيق .. الذى يطل عليها بين آونة وأخرى ليسألها سؤالاً .. أو لينحها ابتسامة .

وكانت السيدة « كلود » التى تعمل « نادبة » فى معاونتها . كهلة ، رقيقة الحاشية ، ناعمة الصوت ، هادئة الخلق .. ولم تجد « نادبة » موضعاً لحالة الاستثناء فى طبيعتها الهادئة التى حذرنا منها مسيو « رينو » عندما لا تكون على وفاق مع زوجها .. فقد كانت السيدة دائمة البشاشة .. دائمة الهدوء ، وحتى عندما كانت تشكو من المستر « كلود » .. فى حالة سكره .. كانت شكواها لا تعدو المزاح والفكاهة

وكانت مدام « كلود » .. تعمل إلى جانب إشرافها على إدارة المدرسة .. مدرّسة للموسيقى .

كانت هى صاحبة العزف الذى سمعته « نادبة » لأول مرة عندما وقفت فى حجرتها ترقب السنديانة والأفق وقمم الجبال البيض .

وكان العزف رقيقاً .. وكانت دقات الأصابع على السانو واضحة محددة .. ولكنها كانت تنساب إلى نفسها انسياب الماء فى أخاديد الجبل .. متصلة متدفقة . ولم تسمع « نادبة » العزف بعد ذلك .. لم تسمع النغم ذاته ، وإنما سمعت أناشيد عسى فيها التلاميذ .. وموسيقى رقصوا عليها .

أما هذه لقطعة التى انسابت إلى نفسها .. فلم تتكرر ثانية .

ولم تحاول « نادبة » أن تسأل مدام « كلود » أن تعيدها لها ، فلم تكن تعرف ما هى ، ولم تستطع حتى أن تحفظ بعض نغمها ، ومنعها الخجل من أن تسأل مدام « كلود » عنها ، وتذكرها بيوم عزفها .

وكانت « نادبة » تجلس فى حجرتها ذات صباح ، وكان شهر نوفمبر قد أقبل والأمطار قد تدفقت .. والسحب قد تكدست فى أديم السماء ، ورواد المحطة قد انكشمت أجسادهم تحت المعاطف الثقيلة .. وطأطأت رءوسهم تحت المظلات

— ٢٧٥ —

التي يتساقط المطر من جوانبها .
وأخذت « نادية » تعيد ترتيب البطاقات .. عندما فتح الباب ، وأقلت
« منى » ضاحكة تلوح برسالة في يدها قائلة :
— رسالة من عصام ، بصورى .. لم أكن أصدق أبداً أن الرسائل يمكن أن
تصل إلى هنا !!

وأحابت « نادية » ضاحكة :
— ولماذا لا تصل !. أظنني في مجاهل أفريقيا ؟
— بل في مجاهل « الألب » .. لقد كتبت له العنوان على البيت والمدرسة ،
ومع ذلك لم يخيل إليّ أن الرد يمكن أن يصل .
— ما دام قد كتب العنوان .. ووضع طابع البريد .. فهو واصل وصل ..
بلا معجزات ، ولا خوارق .

ووضعت « منى » الرسالة أمام عينيها ، ثم قالت :
— تصوّرى .. لقد وصل في أربعة أيام .. إن التاريخ الذى كتبت فيه الرسالة
٢٨ أكتوبر واليوم أول نوفمبر .. لا بد أنه قد كتب إليّ في نفس اليوم الذى
وصلت فيه رسالتي ، فلقد بدأت كتابتها يوم ٢٠ وانتهت من كتابتها بعد أربعة
أيام ، وقدفتها في الصندوق المعلق بجوار المحطة يوم ٢٤ فلا بد أن تكون قد وصلت
يوم ٢٧ . أو . يوم ٢٨ .. أو ..

ولم تحد « نادية » في نفسها رغبة في متابعة تواريخ الإرسال والوصول ..
فقاطعتها فائلة

— المهم ماذا قال لك ؟! ما هى أخبارهم ؟!
— كل شيء على خير ما يرام .. إنه ما زال في القاهرة ، وهو يتوقع أن ينقل إلى
الإسكندرية مع كتيبة السبارات الراحلة إلى هالك ، وهو هديك أركى
السلام .. أنت والأسرة .. إن كتابته في غاية الركافة .. كلها سلامات ،
وتحيات ، وهو يظن أننا نعرف كل شيء عن مصر .

— ٢٧٦ —

— كيف ؟

— إنه يقول ، وكل شيء عندنا كما هو .. لا شيء أكثر مما يكتب في الصحف
ويسمع في الإذاعة .

وضحكت « نادية » قائلة :

— صحف ؟

— وإذاعة !! تصوّري ؟!

وصمتت « نادية » برهة قبل أن تجيب :

— لقد حاولت أن أسمع إذاعة مصر بضع مرات ، ولكنني فشلت تماماً .

— طبعاً .. بمثل هذا الجهاز العتيق الذي يشبه صندوق البريد لا يمكن أن

نسمع أكثر من إذاعة باريس .

— لقد سمعت مرة إذاعة لندن العربية .. فأثارت أعصابي .

— اسمعي .. لماذا لا تشتري راديو جديداً !!

— كيف ؟

— نشترك فيه سوياً .. نخصم من مصروفنا مبلغاً كل شهر لكي نشتره .

— لقد حيرتني بمصروفك .. ماذا تنوين أن تفعل به ، هدايا لعصام .. أم

جهاز راديو ؟

— هدايا لعصام ؟ .. هل تظنينني سأشتري له كل شهر هدية .. إنها هدية

واحدة سأشتريها له هذا الشهر وأنتهى ، وبعد ذلك نشترى الراديو وتستطيع

« ماما وجدتي » أن تساعدانا في ثمنه .

— لا تعشمي نفسك .. إنهما راضيتان تماماً .. بجهازهما العتيق ، ولا أظن

إحدهما توافقة لسماح إذاعة مصر .

— على أية حال نشتره نحن .. ما رأيك ؟

— موافقة .

— ولكن هبى أنه لا يسمعنا صوت مصر ؟

— ٢٧٧ —

- كيف !. إننا لن نشتره إلا إذا جربناه وسمعنا الإذاعة المصرية ...
- لا .. ناصحة .. هل ستذهبن معى لشراء كرافة لعصام .
- ألم تشتريها بعد ؟! لقد ظننتك اشتريتها وأرسلتها ؟!
- إني حائرة بين كرافتين .. وكلما هممت بشراء إحداهما .. تزوغ في عيني الأخرى .. فأرجوك أن تأتى معى اليوم .. لكى تضطرينى إلى شراء إحداهما .
- ولماذا لا تشتريين الاثنتين ، وتستريحين ؟!
- ليس معى إلا ما يكفى واحدة .
- سأعطيك ثمن الثانية .
- حقاً ؟
- أجل .. فلست أدرى ماذا سأفعل بمصروفى .
- سأأخذه وأردّه لك فقد محتاجينه يوماً لإرسال هدية .
- لا أظننى سأحتاجه أبداً .. لهذا الأمر .
- وخيمت على وجه « نادية » سحابة خفيفة من الحزن سرعان ما انقشعت .
- وتساءلت « منى » كأنما تحاول أن تغير الموضوع :
- هل كتبت إلى صبرى ؟
- أنا ؟
- أجل ..
- ولماذا أكتب إليه ؟!
- لتعطيه عنواننا .. ألم تعديه بذلك ؟!
- وصممت « نادية » برهة ثم أجابت :
- أجل . أظننى وعدته .
- لماذا لم تكتبى إليه إذن .. إنه إنسان طيب ، وسيسعدك أن تكتبى إليه ..
- وأعتقد أنه سيسعدك أيضاً أن يكتب إليك .. لا تتصورى مقدار فرحتى عندما وصلتنى رسالة عصام !

كادت « نادية » تضحك في مرارة .. إن « منى » في نشوتها لا تقدر أن قيمة الرسالة .. ليست في الرسالة ذاتها ، وأنها لم تفرح لأن رسالة وصلتها ، وإنما لأن عصام كتب إليها .
ولكنها كبتت المرارة في نفسها .

ما الفائدة ! ستعود « منى » إلى لومها ، والسخرية منها .
وقد تطلب « منى » في سحريتها .. أن تكتب إليه .. إلى الذي لا يعرفك من تكون . ما دامت تصر على أن قيمة الرسالة .. مستمدة من قيمة صاحبها . وما دام .. لا يوجد هناك في هذا الكون .. من له قيمة في نفسها سواء
وعادت « منى » تقول وهي تمد يدها بالرسالة إلى نادية :

— أقرئها .. أؤكد لك أنها ستسعدك كما أسعدتني .. إلى شملت فيها عبير مصر .. لقد ملأتني إحساساً .. بأن الصلة بيننا لم تنقطع ، وأن رحيلنا لم يكن هجرة ، وإنما رحلة .. أو إجازة .

ووقفت « منى » ترقب « نادية » وهي تقلب الرسالة بين أصابعها ثم قالت .
— لا تظني أن فرحتي بها لأنها مجرد رسالة من عصام . إلى بالطبع سعيدة لأنه كتب إلي ، ولكن أؤكد لك أن فرحتي أعم وأشمل .. إلى أحسست بانفرحة لأن رسالة من مصر قد وصلتني . وأعتقد أنك ستشاركينني الإحساس بهذه الفرحة .. ومن أجل ذلك قلت لك اكتبى إلى « صبرى » . إنه يحبك يا « نادية » .. وسيكتب إليك من قلبه .

وكانت « نادية » تنقل بصرها بين سطور الرسالة حتى وصلت إلى آخرها . وكست وجهها ابتسامة وهي تقول :

— لماذا تقولين إن كتابه ركيكة .. لقد كتب كل ما يود أن يقوله ببساطة .. أكان من الواجب أن يكتب شعراً ، ويقول لك « مضناك جماء مرفده » ؟

وخطفت « منى » الرسالة وهي تقول :
— ولم لا ؟! ألا أستحق !! اكتبى إلى صبرى وسنرى كيف يكتب إليك .

— ٢٧٩ —

— سيكتب إلّى عن صفقة الأسلحة ، والميج ، ودبابات ستالين .

وضحكت « منى » وهى تقول :

— إذن اكتبى إلى المبنى الآخر .. المرابط فى جنيف . قطعاً .. هذا سيكتب شعراً .. فقد كان حبه لك خاطفاً .. لقد صرعه فى غمضة عين .. اكتبى إليه .. تسلى .. ألم تضيقى بجلستك هذه تطلين على المسافرين من هذا الجحر .. كالوطواط ؟

وغادرت « منى » الحجرة .. بضجيجها ، وثرثرتها .. وضحكاتها ، وساد السكون مرة أخرى .. وعادت « نادية » تقب فى البطاقات ، وبصرها .. يتخلل أعصان السديانة ويطلق إلى الأفق البعيد حتى القمم الثلجية البيض . ووسط السكون السائد والصمت الخيم نفذت من باب الحجرة دقات بطيئة ، واضحة .. محددة ، ولكنها تنساب إلى النفس .. فى غزارة وقوة .. لتنفذ إلى الأعماق .. وتندفق تدفق السيل الهابط من أعلى القمم فى أخاديد الحبل ، ليصل إلى الأغوار .

وأنصت « نادية » إلى النعم .. المتقطع المتصل .. البطيء المتدفق . المتقطع فى دقاته . المتصل فى تأثيره . لبطيء فى عزفه المتدفق فى سريانه . وأحست « نادية » بمشاعرها ترق ، وحواسها ترهف . وأخيراً .. كفت الأصابع عن العزف . وبعد لحظة .. أطلت مدام « كلود » وقد علت وجهها ابتسامتها الرقيقة قائلة :

— هل انتهيت من ترتيب البطاقات يا نادية ؟!

— رتبت ما يقرب من النصف .

وردت « كلود » فى تأنيب رقيق :

— النصف فقط !

وقالت نادية معذرة :

— ٢٨٠ —

- الواقع أن « منى » أضاعت نصف وقتى .
 — والنصف الآخر ؟
 — أضعته أنت ؟
 — أنا ! كيف ؟
 — بهذه القطعة التى عزفتها الآن .. إنها تستحوذ على مشاعرى استحوذاً تاماً ، بحيث لا أستطيع أن أعمل شيئاً وأنا أنصت إليها .
 — إلى هذا الحد تحببها ؟
 — لقد سمعتها منك عندما أتيت إلى هنا أول مرة .. وتمنيت أن أسمعها بعد ذلك ، ولكنى لم أجرؤ على طلبها .. لأنى أجهل اسمها .
 — تجهلين اسمها ؟ .. عجيبة ! إنها إحدى مقطوعات « شوبان » المعروفة .
 — وتمنيت « نادية » فى حياء :
 — الواقع أنى لست على دراية تامة .. بالموسيقى. إنى أحب موسيقانا المصرية التى تعودت أذنائى عليها ، ولم أحاول أن أسمع من قبل .. شيئاً من الموسيقى العالمية المعروفة ، ولكن هذه القطعة بالذات أحسست أنها انسابت إلى نفسى بطريقة لم أكن أتوقعها .
 — إنها فالس الوداع .
 — وأحسست « نادية » بشوائب حزن ترسب فى أعماقها ووردت قائلة :
 — الوداع !!
 — أجل .. إلى أحبها .. هل تجيدين العزف على البيانو ؟!
 — إلى حد ما .
 — سأعلمها لك إذا أردت .
 — لا أظننى سأستطيع عزفها كما تعزفينها .. إنك مدهشة فى عزفها يا مدام كلود !
 — وضحكت « كلود » قائلة :

— ٢٨١ —

— أهذه القطعة فقط هي التي أعجبتك في كل ما أعزف !
 — إني أحب كل ما تعزفين .. ولكنني أحب هذه القطعة أكثر ..
 — لأنك تميلين إلى الوحدة .. لقد أحببتها لأنها تتجاوب مع ميولك الحزينة ..
 أنت تحبين الوداع يا نادية .. أليس كذلك ؟!
 وأطرقت « نادية » برأسها وأجابت في صوت خفيض :
 — ما من إنسان .. يحب الوداع يا مدام كلود .. إنه يفرض علينا فرضاً ، لا
 نملك إلا أن نسلم به .
 — وهل فرض عليك وداع آلمك .
 — وداع الوطن .
 — فقط ؟!
 — ومن خلفناهم في الوطن .
 — أخلفت هناك أعزاء عليك ؟
 — لنا أصدقاء أعزاء كثيرون .
 — كثيرون ؟!
 وصمتت « نادية » .. وأردفت مدام كلود تقول :
 — إن الوداع الذي يخلف في نفوسنا اللوعة .. لا يكون لكثيرين .. إنه يكون
 لواحد فقط .
 وأحست نادية بالدموع تتجمع في مآقيها ، وحاولت جهداً أن تكتبها :
 وكست وجهها ابتسامة باهتة وردت متسائلة :
 — هل جرّبت هذا النوع من الوداع يا مدام كلود ؟!
 ومدت السيدة كفها لتحسس رأس نادية في رفق وقالت :
 — من الذي لم يجربه ! إنه دائماً يكون جزءاً من حياتنا بل هو أبرز ما في حياتنا
 من معالم .
 وتذكرت « نادية » ليلة الرحيل ، وطوافها بالنادى ووقفها في المدخل الخلفي

تتطلع إلى ملعب « الكروكيه » وقد لفتها الظلمة ، وحاولت أن تتذكر الوداع ..
أو ما سمته السيدة : بأبرز معالم حياتنا .. فوجدته شيئاً بلا معالم .
إنها قد حرمت حتى من أن تجعل وداعها .. شيئاً .. ينفع للذكرى .
وغادرت السيدة الحجره الصغيره ، وعادت « نادية » تعبت بالبطاقات وقد
شرد ذهنها مرة أخرى في الأفق البعيد .

وفي الليل عندما ساد السكون البلده .. وحتم الصمت عليها ، وأوى أهل
البيت إلى مضاجعهم .. جلست « نادية » في فراشها تقلب كراسه في يدها .
لقد كانت كراسه مذكراتها .

كانت الكراسه .. ملجأها الوحيد ، تنفث فيها همومها .. وتجتذر ذكرياتها .
وأحست كأن السطور رجع الصدى .. كانت تقف بين صفحاتها وحيدة ،
ومن حولها .. فراغ طويل عريض .

لماذا لا تكتب إلى أحد ؟

لقد قالت لها « منى » .. اكتبى .. فسيسعدك الرد عندما يصل إليك .
أجل .. إنها في حاجة .. إلى أن تكتب إلى أحد .. في حاجة إلى أن يرد عليها
إنسان .

في حاجة إلى أن تسمع شيئاً غير رجع الصدى الذى تسمعه من كراسه
مذكراتها .

لقد حثتها « منى » على أن تكتب إلى صبرى .. لأنه يحبها ، وسيجيئها من
قلبه .

ولكن ماذا تستطيع أن تكتب إليه ؟

هل تكتب إليه عن مدحت ؟

هل تسأله .. ماذا يفعل ؟ وكيف أصبح ؟

هل تسأله أن يصفه لها وهو يرتدى ثيابه البيض ويسير متجهماً في المستشفى ؟

هل تسأله عن خطيبته .. أخطبها حقاً ؟ أم أن المسأله لم تعد أن تكون مجرد

أشاعه ؟

— ٢٨٣ —

هل تسأله عن زملائه وزميلاته فى النادى ؟
 وبأية حجة تسأله كل هذه الأسئلة ؟
 هل تقول له إنها تحبه ؟
 وهل سيكتب هو لها .. ليحدثها عن مدحت ؟
 عبث . فى عبث ، وحق فى حق .
 هل تكتب إليه .. لتسأله عن صفقة الأسلحة .. والميج وال فى ٤٣ .
 ومدحت .. من يحدثها عنه ؟
 هذه البلهاء « منى » .. التى تدعى أنها فرحت بالرسالة .. لأنها رسالة !
 كلام فارغ !
 هل كانت تسر « منى » لو أن الرسالة حملت إليها أسعار البورصة فى مصر ..
 أو حركة تنقلات موظفى سكة الحديد ؟
 لقد قالت لها اكتبى إلى هذا العاشق المربط فى جيف .
 ماذا تكتب إليه ؟ .. أكتب لتقول له .. إنها لا تحبه .. وإنه لا داعى لأن
 يأمل منها فى ود جديد ؟
 وماذا تنتظر أن يقول لها ؟
 سيحدثها عن بحيرة « ليمان » ، وعن الجو فى جنيف .
 وسيقول لها إنه ما زال ينتظر .
 سخافة فى سخافة !!
 ولكن لماذا لا تكتب إليه هو ؟
 أجل .
 إذا كان لا بد من الكتابة .. فلماذا لا تتجه إليه مباشرة ؟
 إنها تعرف عنوانه .. (مستشفى الدمرداش « بالقاهرة » .
 وأحست بنشوة غامرة .
 أجل .. إنها تستطيع أن تكتب إليه .
 ليس هناك أى شىء يمكن أن يحول بينها وبين الكتابة .. ولكن ماذا تقول

له !! وهل سيجيب عليها ؟!

لتقل له .. إنها فتاة من مصر .. تعرفه أكثر مما تعرف نفسها ، وإن الظروف أبعدتها إلى مكان بعيد ناء فوق قمم الألب العالية .. وإن كل أملها في الحياة هو أن يكتب إليها .. أن يرد على رسائلها .. ولو بكلمة أو كلمتين ، يشعرها أنه يعرفها .

ولن تقول له كلمة حب .. ستحدثه عن نفسها .. ما سمعته عنه .. وما رأيته منه .. ستحدثه عن لعب « الكروكيه » والنادى وعن عملياته في المستشفى .

ألا يحتمل أن يرد عليها ؟! لماذا لا تجرّب !!

إنها لا تريد أكثر من مجرد كلمات ستملاً عليها حياتها .

إنها لا تريد أكثر من ذلك .

إن هذا أكثر مما تطمع فيه .

وأمسكت بالقلم وبدأت تكتب :

« لست أدري كيف أناديك وماذا أقول عنك ! فأننا لا أريد أن أفرض عليك نداء أو وصفاً .. إلا ما تسمح به أنت .

إن اسمي نادية .. وأعيش في مكان بعيد جداً فوق أعلى قمم الألب ولا أظن هناك أبى احتمال للقاء بيننا .

ومع ذلك أعرفك جيداً . أعرفك أكثر مما تتصور . أعرف كل شيء عنك ..

عن حياتك ، وعن عملك ، وعن طباعك . لقد قضيت فترة من عمري في مصر .

وكنت امل في وقت ما أن تعرفني وأن أعرفك ، وفقدت هذا الأمل ورحلت عن

مصر بلا عودة .. عندما استقر بنا المقام .. في هذا المكان النائي .. عاد الأمل

يرaud نفسي . وأحسست أن ثمة عزاء قد بقي لي .. هو .. أن تكتب إليّ ،

وأكتب إليك .. قد تثيرك رسالتى .. وقد تبعث في نفسك الدهشة ، أو

الضحك أو السخرية والتشكك .. ولكن لو عرفت مدى ما تمنحه إياي برّدك ..

لأجبت رجائى ، ورددت علىّ .

لست أريد أن أطيل عليك .. لأنى أكره أن أفرض عليك سماعى .. حتى

أعرف أنك تقبله .
ولما أكتب إليك لأسألك فقط : هل لك أن تمنح غريبة عن وطنها .. عزاء
عن غربتها بالكتابة إليها !!
هل تقبل أن تقرأ لى .. وأن ترد على ؟! إذا قبلت .. فاكتب لى كلمة
واحدة .. هى نعم .
وأؤكد لك أنى لن أثقل عليك أبداً ، وأنى سأكف عن الكتابة عندما تقول لى
كفى ... »

وتوقفت « نادية » بقلمها قليلا .. ثم وقعت اسمها « نادية » .
وأعادت قراءة ما كتبت ثم أضافت :
« ملاحظة — إذا كنت تنوى الكتابة لى فاكب بسرعة حتى لا أعتقد أنك
خذلتنى . »

ثم وضعت سن القلم على الملاحظة .. وشطبها ، وأمسكت بالرسالة وطويتها
ووضعتها تحت الوسادة .
وفى الصباح .. أعادت قراءتها .. وأمسكت بها .. وهمت بتمزيقها ..
ولكنها لم تجرؤ .. فوضعتها فى جيبها .
وقبل أن يستيقظ أهل الدار .. كانت تتسلل ، وقد لفت رأسها بالإشارة
وضمت المعطف الثقيل على جسدها .
وقبل أن تفتح الحوانيت أبوابها .. وقبل أن يستيقظ حاملو المحطة .. كانت
« نادية » تقف أمام صندوق البريد .
وبلاوعى .. مدت يدها إلى فتحته .. وتركت المظروف ينزلق إلى جوفه .

(٢٥)

خدعة أم حقيقة !؟

كانت الساعة قد قاربت التاسعة صباحاً ، عندما أقبل مدحت على غرفة العمليات في مستشفى الدمرداش . وقد سار بجواره « جاد الله » يتساءل ضاحكا :

— ماذا تنوى أن تقطع هذا الصباح .. زوراً .. أو معدة ؟
وأجابه مدحت جاداً :
— مثانة .

— يا سانر يارب .

— هل تدري أن نسبة السرطان في مصر تزيد عن بقية بلاد العالم بثلاثين في المائة. نتيجة لزيادة سرطان المثانة ؟

— ومتى تنوى أن تنتهى من عمليات الجزارة التى تباشرها فى المستشفى باسم الطب ؟.

— عمليات الجزارة هذه قد أنقذت تسعة وتسعين فى المائة من حياة مرضى ..
فقدوا الأمل فى الحياة .

— مفهوم .. مفهوم .. أنقذت حياتهم .. ليعيشوا بنصف أجسادهم .. لماذا لا تتركهم يعالجون أنفسهم بالأشعة أو بأى وسيلة أخرى غير هذا التشويه الذى تجريه لهم ؟!

— يا غبى .. هذا كله نصب .. وتضليل .. أنت وأمثالك من المضللين
تجنون على المرضى بهذه الخدع .. وليس أحب إلى المرضى من الهروب من
العمليات الجراحية ، والاسترسال فى علاج الأشعة .. وغيرها من المسكنات ..

حتى يستشرى الداء .. ويفسوت الأوان .. وتتضاءل فرصة الشفاء بالاستئصال .. إن ثلاثة أرباع العمليات التي تأتى إلّى ، تأتى متأخرة .. نتيجة محاولات الأشعة التي يقوم بها النصابون أمثالك .

— أنا نصاب ؟! يا جزّار ؟!

— أنت أكبر نصاب رأيته في حياتى .. هل تذكر عندما كتبت على عيادتك « أخصائى البنسلين » ؟!

— وما في ذلك ؟! ألم أكن أعالج المرضى بحقن البنسلين ؟!

— وهل حقن البنسلين تحتاج إلى تخصص ؟!

وضحك جاد الله قائلاً :

— طبعاً .. لأن أحداً غيرى لم يكن لديه نسلين .. أنسيت أنى كنت آتى به من جيوش الحلفاء .

— كان يجب عليك أن تكتب على عيادتك .. أخصائى في سرقة البنسلين .

— لم أكن أسرقه .. لقد كنت آخذه من « هيلين » كبيرة ممرضات مستشفى القصاصين .

— إذن كان يجب أن يكتب على عيادتك بلطجى البنسلين ، لا أخصائى البنسلين !

— أخصائى .. أو بلطجى .. ألم أشف الكثيرين من الحمى والأمراض السرية ؟ أتذكر ...

وكان مدحت قد وصل إلى باب غرفة العمليات حيث وقف مساعده ينتظره ، وقد أحاط به بعض الطلبة الذين سيحضرون العملية .

وقال مدحت مقاطعاً جاد الله :

— لا أذكر شيئاً الآن .

— متى سألقاك .. بعد العملية ؟

— بعد العملية عندى محاضرة .

— ٢٨٨ —

— ألقاك إذن بعد المحاضرة . فستتناول الغداء عند العميد .

— عند العميد ؟!

— أنسيت ؟!

— كدت أنسى .

— سأق لآأخذك من المكتب .

وبدا التردد على وجه مدحت وتوقف قليلا أمام باب الغرفة وقال لجاد الله :

— اسمع يا جاد الله .. يبدو لى أن من الخير أن أعتذر .

وضحك جاد الله قائلا :

— « تانى » .

ثم هز رأسه وأردف :

— وددت أن أراك تذهب مرة .. بلا تردد .. سأمر عليك بعد المحاضرة .

ونظر الطبيب المساعد فى ساعته قلقاً وأجاب مدحت قائلا :

— سنكمل المناقشة بعد المحاضرة .. سأبدى لك وجهة نظرى جيداً .

وهم بأن يخطو إلى غرفة العمليات عندما اعترضته إحدى الممرضات ، وهى

تمد يدها برسالة من رسائل البريد الجوى قائلة :

— رسالة لك يا دكتور .

وأمسك مدحت الرسالة وقرأ عنوانها بشىء من الدهشة ، ولم يستطع أن يميز

خط العنوان .

وحاول أن يتذكر الأشخاص الذين يمكن أن يكتبوا إليه من الخارج ، وعاد

يفحص ختم البريد المطبوع على المظروف ، فميز منه حروف فرنسا الستة .

وزادت دهشته .. فهو لا يذكر له أصدقاء فى فرنسا .

وطاف بذهنه .. « جمال عبد السلام » قريب الدكتور جاد الله .. الذى

سافر فى الشهر الماضى إلى أوربا .. ولكنه يعلم أنه قد سافر إلى سويسرا .. وليس

إلى فرنسا .

ربما قد أرسل رسالته ، وهو في الطريق .
ولكن لماذا ؟ ليس هناك من وطيد العلاقة بينهما بحيث يكتب إليه .. وبهذه
الصفة المستعجلة .. وهو في الطريق .. قبل أن يصل إلى مقر عمله .
قد يكون هناك ما دعاه إلى الكتابة .
ولكن لماذا لم يكتب إلى جاد الله ؟!
ورفع الطبيب المساعد يده بالساعة مرة أخرى .
فأسرع مدحت بوضع الرسالة في جيبه ، ثم اندفع إلى الغرفة .. حيث تمدد
المريض على المنضدة تحت الضوء الساطع .
وبعد لحظة كان مدحت قد انهمك في العملية .. وانمحي من ذهنه كل ما
يتعلق بالرسالة .

وانتهت العملية .. وخرج مدحت من غرفة العمليات .. يستحث الخطأ إلى
مكتبه .. والطلبة يتبعونه ، ومن بينهم صبرى يلاحقه قائلاً :

— المحاضرة في موعدها يا دكتور ؟

وهز مدحت رأسه بالإيجاب . واستمر في مشيته الصارمة .
وقال أحد الطلبة :

— لماذا لا تلغيها اليوم ؟

وتوقف مدحت ونظر إليه في غيظ وأجاب :

— لماذا ؟ هل أجهدتكم مراقبة العملية ؟

وأجاب صبرى :

— بل أجهدك إجرائها .

وأردف مدحت زاجراً طلبته كما يزجر عريف الكتاب تلاميذه :

— اذهب إلى المدرج منك له .. بلا مياعة .. سأتى إليكم حالا .. هذه

ليست عملية .. هذه مسح زور .

واندفع إلى مكتبه ليبدل ثيابه .. وهبط الطلبة ، متجهين إلى المدرج .

(نادية — ج ١)

وعلى مقعد في المدرج جلس صبرى .. يقلب أوراق كراسة في يده .. ومن الصفحات المزدهجة بمحاضرات الطب توقف أمام صفحة كتبت بالعربية .. وأخذ في قراءتها .. للمرة العاشرة في هذا الصباح :

« عزيزتى نادية ..

ترددت كثيراً .. قبل أن أمسك القلم لأكتب إليك .. وحتى الآن ، وبعد أن قهرت ذلك التردد .. واندفعت أكتب إليك في حماس .. أجد نفسى ، وقد عاودنى التردد في إرسال ما كتبت .

لقد أعددت الظرف .. وألصقت عليه طوابع البريد ، وكتبت عليه اسمك .. والعنوان الذى أبيت أن ترسله إلّى ، والذى استطعت اختلاسه من رسالة « منى » إلى عصام .

أعرفت لماذا ترددت في الكتابة إليك ؟

لم يكن عن انشغال .. أو إهمال أو عجز .. أو غير ذلك مما يمكن أن أتهم به . فيعلم الله هفتى الشديدة على الكتابة لك .. لهفة لا تقوى أشد المشاغل حتى مشاغل الامتحان .. على التغلب عليها .

ويعلم الله ما تزخر به نفسى من انفعالات مستمدة من باطنى .. ومما حولى .. من هذا الجو الصاخب الذى نعيش فيه .. والذى يملؤنا — نحن المصريين — إحساساً .. بأن علينا أن نخوض كفاحاً شاقاً من أجل حريتنا وكرامتنا .. إحساساً يملؤنا يقيناً بأننا نصنع مستقبل بلادنا .. ونثيت دعائم الرخاء للأجيال القادمة .. في هذه الأيام التى نعيش فيها .

ومع ذلك .. ورغم ما بى من لهفة وانفعال .. وجدتنى أحجم عن الكتابة إليك .. حتى بعد أن عرفت عنوانك من عصام . فقد أحسست أنى يجب أن أنتظر حتى تكتبى أنت لى . لكى تذكرى عنوانك وتشعيرينى أن بك برغبة فى أن أكتب إليك .. أو على الأقل أنك لا تكرهين أن أكتب إليك .

ولكن إحجامى لم يطل .. فقد وجدتنى أعجز عن صد رغبتى فى الحديث

إليك .. وأنا أعرف الطريق إليك .. وأمسك في يدي بعنوانك .
 فاعذريني إذا ما كتبت .. بلا إذن منك .. واعذريني إذا اقتحمت عليك
 خلواتك في قسم الألب النائية .. واقرئي رسالتي كما تقرئين .. صفحة في
 جريدة .. لا تكلفني نفسك مشقة الرد إذا ضقت به .. وأؤكد لك أنني لن أضيق
 بذلك ، فأنا أعلم مشقة الكتابة عند ما تعوزنا الرغبة فيها .. كما أعلم مشقة
 الصمت عندما نتلهف على الحديث .

وبعد هذه المقدمة الطويلة .. أبدأ بسرد أنبائنا عليك :
 — أنبأني الخاصة أخصها في أنني أوصل الدراسة في الكلية ، وأنني اشتركت
 منذ بضعة أيام في عملية جراحية .. وعندما أقول اشتركت أعني أنني حضرت
 عملية جراحية مع الدكتور مدحت .. لعلك تذكرينه .. ذلك العبقري الذي
 يلقبونه عندنا « بالجزّار » .. والذي رأيته ذات مرة في النادي في أرض
 « الكروكيه » .

لقد أجرى عملية رائعة .. أنقذ بها حياة امرأة .. تخلى عنها جميع أطباء
 مصر .. حتى لا يتهموا بالفشل .. وقد قام بها هو .. ونجحت إلى أقصى حدود
 النجاح .

لا أريد أن أطيل عليك بأخبار العمليات .. رغم أنني غريق فيها في أيامنا هذه .
 إنني ألقى عصام بعض الأحيان .. وقد لقيت مرة عمك سليمان .. ولم
 يعرفني .. وكدت أعرفه بنفسى . ولكنني خجلت .

أما عن الأنباء العامة فلست أدري ماذا تعلمين منها .. إن صفقة الأسلحة قد
 مرت بسلام .. لقد أخذ الرئيس « جمال عبد الناصر » الأسلحة رغم أنف العالم
 المستعمر .. ولست أدري هل تعرفين معنى هذا !!

إن المسألة ليست مجرد أسلحة نأخذها من الشرق .. بل المعنى الأضخم
 للصفقة .. أننا نخلصنا نهائياً من براثن المستعمر ، أننا قد بتنا أحراراً نأخذ ما نأخذ
 وندع ما ندع .

وهل تذكرين يا « نادية » .. كيف كنا نسير في ركاب المستعمر .. كنا نقول نعم عندما يريدنا أن نقول نعم .. وكنا نقول لا .. عندما ... » .
وأحس صبرى بوقع أقدام تطرق أرض المدرج .. ورفع بصره .. فوجد « مدحت » يجتاز الباب ، فأغلق الكراسة .. وثبت المنظار على عينيه وأخذ يرقب منصة المدرج .

وبدأ مدحت في إلقاء محاضراته .. وكعادته في إلقاء المحاضرات رفع سبابته اليسرى وحك بها أرنبة أنفه .. ثم نظر شرراً إلى الطلبة ، ومال إلى الأمام منكباً على المنصة بكفه اليسرى واضعاً كفه اليمنى في جيبه .. وقبل أن ينطق بكلمة اصطدمت أصابعه بمظروف في جيبه .

ومضت لحظة ، وهو يتحسس محاولاً أن يتذكر ماهية المظروف .. وعندما خائنته الذاكرة أخرج المظروف وألقى عليه نظرة خاطفة .. فتذكر رسالة البريد الجوي المرسلة من فرنسا .. والتي سلمتها له الممرضة على باب غرفة العمليات .
وأحس برغبة تدفعه إلى فض المظروف ، ومعرفة صاحبه ، ولكنه رفع عينيه إلى الطلبة فإذا كلهم قد أنصتوا وركزوا نظراتهم على المظروف .. فأعادته إلى جيبه بغير اكتراث واندفع في إلقاء محاضراته .

وانتهت المحاضرة .. وغادر المدرج يحيط به الطلبة .. وقبل أن يصل إلى مكتبه أحس بخطوات تلاحقه وسمع صوت جاد الله يهتف به :
— ألم تنته إلا الآن من محاضرتك ؟! ما شاء الله .
ثم صاح بالطلبة :

— انتهينا .. فضوا الزفة .. ودعوا الرجل يستريح .
وتضاحك الطلبة ثم تفرقوا من حولهما وعاد جاد الله يقول :
— هيا بنا .. لقد جاوزت الساعة الواحدة والنصف ، وموعدنا الثانية .
— قلت لك إني سأعذر .
— لا تكن سخيلاً .. كيف تعتذر عن دعوة العميد ؟! إنها جليطة .. وقلة ذوق .

— ٢٩٣ —

— ليكن .. إني لن أذهب .

— أمرك عجيب .. مدرّس .. سنكوح مثلك .. يرفض دعوة العميد إلى

الغداء ؟!

— ولماذا يدعوني العميد ؟!

— لأنك .. لأنك زوج ابنته .

— اسمع يا جاد الله .. لقد قلت لك مائة مرة .. كف عن هذا المزاح !

— مزاح .. أما عييط .. لِمَ تظنه قد دعاك إذن ؟ .. من أجل سواد عينيك ..

أم لنبوغك في قطع أوصال الناس ؟!

— إذا فهو دعاني لأني زوج ابنته ؟!

— طبعاً .

— ولأجل هذا . لن أذهب . لأني لن أكون زوج ابنته .

— يا أخى اعقل .. البنت لطيفة وتحبك ، وأبوها رجل ذو خلق وذو شأن ..

وذو مستقبل .. إن نظرتي فيه لا تخيب . أتذكر عندما قلت لك إنه سيصبح

عميداً .. أتذكر ؟

وأطرق مدحت وقال متسائلاً في ملل :

— ها .. وبعدين ؟

— لقد أصبح عميداً .. وأؤكد لك الآن .. أنه سيصبح مديراً للجامعة ..

هذا إذا لم يصبح وزيراً .

وعاد مدحت يتساءل في دهشة :

— يا أخى ليصبح ما يشاء .. إن شاء الله يصبح إمبراطوراً .. مالى أنا به !

— مالك به ؟! كيف ؟ إنه سيصبح حماك .. حماك يا أخى .

— جاد الله .. أرجوك .. « حل عني » .. أنت رجل نصاب .. ومعتاد

النصب .

— أنا ؟!

— أجل أنت .

— وأنت مغفل ومعتاد التغفيل .. لست أدرى ماذا أعجبها فيك ! » يعطى الحلق لى بلا ودان « .. على أية حال ليس هذا وقت مناقشة .. هيا بنا الآن . فلم يعد هناك وقت حتى للاعتذار ، احضر ، هذه المرة من أجلى .. وبعدها يحلها ربنا .

— أنت تريد أن تأجذنى طعماً للخالة !؟

— الخالة يا أخنى لا تحتاج إلى طعم .. أنا أعتبرها كأختى تماماً .

— هكذا !! لماذا تريدنى إذا ؟

— لأجل مستقبلك .. هيا أرجوك .. لقد بلغت الساعة الثانية إلا ربعاً .

— انتظر حتى أضع أوراقى فى المكتب .

— ليس لدينا وقت .. ضعها فى العربى .. هيا بنا .

وجذب جاد الله مدحت من ذراعه مهرولا إلى فناء المستشفى ودفعه فى العربى وانطلق به إلى بيت ميرفت .

وحول المائدة فى إحدى « فيلات » الدقى الأنيقة .. جلس الاثنان يحيط بهما الدكتور عبد الفتاح وأسرته .. الأم والخالة ، وميرفت ، وأخوها الطالب بإعدادى الطب .

وجرى الحديث عن السياسة والطب والأزياء والسينما والجو .. وعن كل شىء يخطر بالبال ، وشرذ ذهن مدحت بضع مرات فيما قاله جاد الله .. وفيما يعيد قوله مراراً وتكراراً .. فى مسألة زواجه « بميرفت » .. واسترق منها بضع نظرات فاحصة .. وهو يضعها فى ميزان الزواج .

لماذا يصد عن نفسه فكرة الزواج بمثل هذا العناد والإصرار ؟! لماذا لا يحاول أن يفكر فى المسألة .. بشىء من الجدية والاهتمام ؟! إن الفتاة لطيفة .. وذكية .. وليس فى طباعها أو أخلاقها ما يضايقه .. وأسرته طيبة .. وأبوها — كما قال جاد الله — ذو خلق ومال .. وشأن ومستقبل .. وهم مقبلون عليه مرحبون به ..

ماذا يريد أكثر من هذا ؟.

ولكن لماذا يريد هذا ؟!

تلك هي المشكلة .. إن ما ينقصه هو الدافع إلى الزواج .

إن لديه كل ما يحققه الزواج .. بلا زواج .

لديه البيت المنظم « النظيف » الذى تشرف عليه « أمه » .. لديه الرعاية التامة .. والطعام الجيد ، والمسكن المعد .

وهو لا يعدم فى أى وقت الصديقة التى تملأ له ما تبقى من فراغ ضئيل ، يتركه له عمله المتواصل .. فى غرفة العمليات وفى مدرجات الدراسة .. وفى العيادة .. وفى الدروس الخاصة وأخيراً لديه عمله .. الذى يشغل كل جهده .. وكل وقته .
أية زوجة تلك التى تقبل أن يشاركها حياتها معه .. هذا العملاق الضخم الذى يتلع ، كل طاقته ؟!

أجل تلك هي مشكلته .

مشكلة الحاجة إلى الدافع .. أو المبرر . الذى يدفعه إلى المقامرة .. بوضعه المستقر الذى يهبىء له فرصة العمل .
إنها حقاً فرصة طيبة لزيحة مثالية .

ولكنه لم يطلب هذه الفرصة ، ولا يحس قط بحاجته إليها .

قد تكون فرصة طيبة لغيره .. أو لنفسه .. فى وقت آخر .. وظرف مختلف .. يضيق منه بالعمل .. أو يفقد فيه .. بعد عمر طويل .. هذه الرعاية التامة .. من « أمه » التى تهبىء له حياة منعمة مستقرة .. بلا قيد ولا متاعب .. حتى ولا ثمن .

ولكن من يضمن له أنه سيجد الفرصة ، عندما يحين الوقت ؟

أليس من الأفضل أن يغتنمها الآن .. لكى تنفعه فى الوقت الملائم ؟!

وإلا .. فلماذا يتزوج الناس ؟!

وهزّ مدحت رأسه .. وعاد ينظر إلى « ميرفت » . وإلى أمها .. ليرى كيف

يمكن أن تصبح « ميرفت » عندما يحين الوقت .. بدينة مكنتزة الساقين ..
« متختخة » الذراعين .. ومرة أخرى عاد يصرف نفسه عن فكرة الزواج .
وأخيراً انتهى الطعام .. ونهض الجميع ، واتخذوا مجالسهم على المقاعد الوثيرة
في البهو .. ودارت فناجين القهوة .. وتعالى دخان السجائر .
وجلس مدحت يرتشف قهوته .. وعلى يمينه جلست « ميرفت » تتحدث
بحماس عن حقوق المرأة قائلة :

— إن الدستور الجديد سيمنحها حقها كاملاً .. في الانتخابات وفي الترشيح
لمجلس النواب مواجهاً لها :
— يا ستي .. كفاية عليها الانتخابات .
— لماذا لا ؟ هل تظن أن « عم محمد البواب » أحق منى بعضوية مجلس
الأمة ؟

— ومن قال إن « عم محمد البواب » سيرشح نفسه للنيابة ؟
— إن له هذا الحق .

واستمر الجدل بين الاثنين .. ومدحت يرقبهما في صمت .. حتى أحس أنه
يوشك أن « يسعل » .. فمد يده لكي يخرج منديله .. ومرة ثانية اصطدمت يده
بالرسالة المنسية .. وفي هذه المرة .. لم يصعب عليه تمييزها .. وأحس بلهفة على
أن يعرف حقيقتها وأجابها جاد الله وقد جلس وخشى أن يتركها في جيبيه فينسى
أمرها مرة أخرى كما نسيها في المرتين السابقتين .

وببساطة سحب الرسالة .. وصرف « السعلة » ثم مزق حافة المظروف ..
وأخرج الرسالة من داخله .

وتوقفت المناقشة بين « ميرفت » وجاد الله وأخذوا يرقبان حركة مدحت
المفاجئة التي أخرج بها المظروف وفتحه .

وبالإبهام والسبابة سحب مدحت الورقة الزرقاء المطوية داخل المظروف .
وقبل أن يفتحها قال جاد الله متسائلاً :

— ٢٩٧ —

— ما هذه ؟!

— رسالة من فرنسا .

— فرنسا !! ممن ؟ .. هل تعرف أحداً في فرنسا ؟!
— أبداً .

— إذاً من أدراك أنها من فرنسا ؟!

— ختم البريد على المظروف .

— ولكن من الذى أرسلها ؟!

— لا أدري .. إني لم أفتحها إلا الآن .

— أو تضعها في جييك دون أن تعرف ممن وصلتك !! يا صبرك يا أخى !! يا

برودك !!

— لقد وصلت إتي وأنا على باب غرفة العمليات .. بعد أن أضعت وقتي

بمناقشاتك السخيفة في الصباح وكان المريض تحت البنج .. فوضعتها في جيبي
حتى أفتحها بعد العملية .

— ولماذا لم تفتحها بعد انتهاء العملية .

— نسيتها .. ولم أذكر إلا وأنا في المحاضرة .

— وبعد المحاضرة نسيتها بالطبع ؟!

— ولم أذكرها إلا الآن وأنا أضع يدي في جيبي لإخراج المنديل .

— وحتى الآن لم تقرأها ؟ اقرأها يا أخى .. اقرأها وكفى لكاعة .. لقد بت

أكثر منك لهفة على معرفة صاحبها .

وفرد مدحت الورقة وأخذ في قراءتها . وأخذت علامات التعجب تزداد في

وجهه ، كلما انحدر بصره من سطر إلى سطر .

وأخيراً هز رأسه في حيرة ، ثم نفخ من أنفه نفخة ساخرة وأخذ يقلب الرسالة

بين يديه ثم يعيد قراءة المظروف .

وقال له جاد الله يستحثة :

— ٢٩٨ —

— ها .. ممن ؟!

— من .. من .. لا أدري .. ولكنى أعتقد أنه مقلب سخي .. من شخص فاضى .. وأغلب ظنى أنه قريبك الصحفي ، بإيعاز منك .. قل .. اعترف .. أليس كذلك ؟

وهز جاد الله رأسه قائلاً فى دهشة :

— ما هذا الهذيان !! مقلب من قريبي الصحفي ... بإيعاز منى .. أجننت ؟! إن قريبي فى جنيف .

— لقد رماها من فرنسا حتى يسبكها .

— يسبكها .. يا سلام على ذكائك .. سبحان من نجح عملياتك .. أظن قريبي يهيم أمرك إلى الحد الذى يجعله يقف فى فرنسا ليرسل لك رسالة .. يعطيك بها مقلباً !

واحمر وجه مدحت ودفع بالرسالة إلى جاد الله قائلاً له فى غيظ: — إذن خذ .. أقرأها .. وقل لى من أين ؟!

وأمسك جاد الله بالرسالة يقرأها ، وبدت عليه علامات الدهشة الشديدة وهو ينتقل بين سطورها .. وعندما انتهى منها هتف قائلاً :

— عجيبة !!

— صدقت ؟!

— صدقت ماذا ؟! إني أوكد لك أنها ليست من جمال . فهو لا يمكن أن يقدم على شيء من هذا .. ثم إن الرسالة ، لا يبدو بها افتعال .. أو عبث .. إنها .. إني أعتقد .. أن ..

ثم مد يده بالرسالة ببساطة إلى « ميرفت » التى جلست ترقب الاثنين فى صمت ودهشة وقال :

— أقرئها يا ميرفت .. وقولى لنا .. ما رأيك ؟

ثم وجه الحديث إلى مدحت قائلاً :

— ٢٩٩ —

— أظنك لا تمنع في أن تقرأها ؟!

وكان مدحت أمام أمر واقع .. وهو يرى الرسالة تسلم إلى « ميرفت » فقال
مؤكدأ :
أبدأ .. أبدأ ..

وقرأتها ميرفت .. وتصاعد الدم إلى وجهها ولم تملك إلا أن تردد نفس
الكلمة : — عجيبة !!

وتسأل جاد الله : — هل تظننيها مقلباً ؟!

وهزت ميرفت كتفها : — من يعلم !!
وقال مدحت :

— أنا لا أشك في أنها مقلب .. فلا أظن أن « نادية » هذه التي تعيش في أعلى
قمم الألب .. ولا عزاء لها سوى كلمة منى .. يمكن أن يكون لها وجود .
وانطلقت منه ضحكة ساخرة .. ومد يده فتناول الرسالة ودسها في جيبه
قائلاً : — دعونا منها .

وضحك جاد الله قائلاً : — لقد أصبحت عالمياً .. من قدك .. لك عشاق في
جبال الألب !!

وأجاب مدحت ضاحكا من أنفه في سخرية :

— كان يجب عليّ ألا أريك الرسالة .. لأني لن أخلص من سخرتك .

ثم صمت لحظة وأردف قائلاً :

— على أية حال .. لا أجد من السهل أن أنتزع من ذهني ، أنك وراء هذه
الرسالة .. بطريقة ما .

وأجاب جاد الله :

— أقسم لك بكل الأيمان .. إنني لا أدري عنها شيئاً إلا وأنا آخذها من يدك ..

ثم أنا نفسي .. غير مقتنع أنها مقلب .

وانتهت الزيارة ، وعاد مدحت إلى بيته .. وخلع ملابسه وأخرج محتويات

— ٣٠٠ —

جيو به فوضعهما على المكتب كما تعود .
 ووقع بصره على الرسالة .. وأعاد تلاوتها مرة أخرى ، وانتهى إلى خاتمتها :
 « إذا قبلت .. فاكتب إلي كلمة واحدة هي : نعم » .
 وقذف الرسالة على المكتب .
 إنه لم يبلغ من البلاهة .. بحيث ينطلي عليه المقلب .. ويضع نفسه موضع
 السخرية .
 وحتى لو كانت المسألة حقيقة . وكانت « نادية » هذه الساكنة في أعلى
 « جبال الألب » ، والتي تعرف كل شيء عنه .. مخلوقاً حقيقياً .. لا أكذوبة ولا
 خدعة .
 حتى لو كانت « نادية » هذه شخصاً حقيقياً .. فلن يعقل أن يجلس ليضيع
 وقته في مكاتبتها .
 وحتى لو رضى أن يكتب إليها .. فماذا يكتب .. وهو لا يعرف كيف يكتب
 سطرين من الإنشاء على بعضهما ؟
 لا .. لا .. لن يشترك في مثل هذا العبث .
 وفي الليلة التالية .. جلس إلى مكتبه .
 ومرة أخرى مد يده فتناول الرسالة .. وعاد يقرأها .. وتوقف أمام جملة
 تقول فيها :
 « قد تثيرك رسالتى .. وقد تبعث في نفسك الدهشة أو الضحك .. أو
 السخرية والتشكك .. ولكن لو عرفت مدى ماتنحه إياى برّدك .. لأجبت
 رجائى .. ورددت على » .
 وأحس .. بشيء حقيقى في كلماتها .
 لقد بعثت الرسالة في نفسه الدهشة .. والضحك .. والسخرية ..
 والتشكك .
 وصاحبة الرسالة قد توقعت كل هذا .. ومع ذلك فهي ترجوه بحارة أن

— ٣٠١ —

يجيب رجاءها ويرد عليها .
أحقاً يمكن أن يمنح برده .. شيئاً .. إلى هذه المخلوقة ، بافتراض .. أنها كائن
حقيقي .. لا خدعة .. ولا أكذوبة !!
إنها تقول إنه سيمنحها شيئاً كثيراً .. فلماذا يخل بهذا الرد .. الذى لن يكلفه
أكثر من بضعة دقائق !!
ولكن هل هى حقيقة .. موجودة .. أم أنها مجرد عبث !
وهب أنها عبث .. فلماذا يخشى ؟!
أ يخشى أن يضع نفسه موضع السخرية ؟!
ماذا يضره من سخرية بعض السفهاء ؟
هل يتساوى الضرر الذى سيصيبه من السخرية . لو كانت المسألة أكذوبة
مع الفائدة التى ترجوها صاحبة الرسالة .. لو أنها حقيقة واقعة ؟!
ومرة أخرى أعاد قراءة الرسالة .
وبسطة أمسك القلم وانتزع ورقة من إحدى الكراسات ثم حك أرنبة أنفه
بسبابته ، وبدأ يكتب الرد إلى نادية ، المقيمة فى أعلى « قمم الألب » ، والتى لا
يدرى ما إذا كانت وهما أم حقيقة ؟

— ٣٠٢ —

(٢٦)

لن أخذك ...

كانت الساعة قد بلغت الثانية عندما هبطت « نادية » من حجرتها الصغيرة ، ووقفت في الشرفة السفلى المطلة على الفناء .. وكانت الشمس قد احتجبت نهائياً منذ أسبوع .. والبرد قد أخذ يتساقط في خفة كالريش الأبيض أو القطن المنذوف .. والصبية قد أخذوا يتواثبون في الفناء متلقين نطف البرد بأكفهم في فرحة ، محاولين تكويرها في كرات يتقاذفونها و« منى » قد وقفت بينهم .. ولم تكد تلمح « نادية » واقفة في الشرفة حتى هتفت بها :

— نادية .. ألا تنوين الانصراف ؟!

— أجل إني جاهزة .

— إذن هيا بنا .. إنا مدعوتان للغداء عند جاني .

وغادرت « نادية » الشرفة وعبرت القاعة إلى حجرة زجاجية صغيرة أسفل السلم .. وفي تردد .. دفعت الباب ومدت عنقها فوق بصرها على « بيتر » كاتب الحسابات العجوز ، وقد أكب على مكتب صغير يفحص بضع رسائل في يده .

وتساءلت « نادية » في استحياء :

— ألم تصل رسالة لي يا مسيو بيتر ؟

ورفع العجوز بصره من فوق المنظار ، ثم هتف قائلاً :

— مدموازيل نادية .. تفضلي .. تفضلي ..

— متشكرة .. إني أسأل فقط عن رسالة لي ؟

وهز العجوز رأسه متسائلاً :

— ٣٠٣ —

- هل تنتظرين رسالة ؟!
- وترددت « نادية » قبل أن تقول :
- يحتمل أن تصل إليّ رسالة .
- عندما تصل سأسرع إليك بها .
- لا داعي لأن تزعج نفسك ، سأتى لأخذها .
- وكيف تعرفين أنها وصلت ؟!
- إني أمر عليك كل يوم وأنا صاعدة إلى مكتبي .. وسأتى إليك لأحييك .
- أود أن تنتظري كل يوم رسالة ، حتى أراك كل يوم .
- وضحكت نادية :
- إذا كان الأمر كذلك فسأتى إليك بلا رسائل .
- إني أحب سماعك عندما تعزفين .. فالس داديه :
- تقصد عزف مدام كلود ؟!
- بل أقصد عزفك أنت .. إني أستطيع أن أميز عزف « كلود » بسهولة ..
- إني أسمعه منذ عشر سنوات .
- ولكنى مبتدئة .. إني أتعلم عزفه .
- ومع ذلك فعزفك يعجبني .. وعندما أقول لك يعجبني ، فهو لا بد أن يكون عزفاً جيداً . إن لى أذنأ موسيقية ، رغم هذه السنين الطويلة التى أمضيتها بين الدفاتر والحسابات .
- يسرنى جداً إطراؤك .
- إنك تحسبن بهذا الفالس .. تحسبن جيداً بأحاسيس الوداع التى يشيعها .
- ربما .. لقد أحببت الفالس بمجرد أن سمعته .
- وسمعت نادية صوت « منى » يهتف بها من الباب :
- نادية .. أين أنت ؟!
- إني آتية .

ثم ودعت « بيتر » قائلة :

— أشكر إطرارك يا مسيو بيتر .. ولعل لا أكون أزعجتك .

— بتاتاً .. عندما تصل الرسالة .. سأق إلىك بها توأ .

— لا تضايق نفسك بها .. إنها مجرد احتمال .. قد لا يتحقق ..

وانجهت « نادية » إلى الباب الخارجى حيث وقفت « منى » تتسائل :

— ما الذى أخرك ؟

— كنت أسأل مسيو بيتر .

— عن ماذا ؟

— عن .. عن شىء فى الدفاتر .

ولم تجسر « نادية » أن تقول إنها كانت تسأل عن رسالة . إذ لم تكن « منى » تعلم شيئاً عن الرسالة الطائشة التى أرسلتها .. والتى استجدت بها رداً .. من مدحت .. أو كما كانت تسميه « منى » الوهم الكبير .

كانت « نادية » تحس بالخجل من كتابتها .. والندم على إرسالها .

وكانت تسائل نفسها أحياناً .. كيف وانتهت الشجاعة على كتابة ما كتبت ؟ ومن أين جاءت الجرأة التى جعلتها تقدم على وضعها فى المظروف ، وكتابة العنوان ووضعها فى صندوق البريد ؟!

ولو كان الأمر بيدها لأوقفتها فى منتصف الطريق ، ولمزقتها إرباً .

ومع ذلك فهى تحس بسعادة .. إن الأمر لم يعد بيدها ، وإن الرسالة قد نجت بنفسها من ترددها ، وقد انطلقت لتحقيق غرضها .. إنها لا بد أن تكون قد وصلته .. ولا بد أن يكون قد قرأها ، ولا بد كذلك أن يكون قد قرر شيئاً بخصوصها .

ويحتمل جداً .. أن يكون هذا الشىء الذى قرره فى صالحها .. فهو يحمل فى صدره قلباً كريماً .. وهو على صرامته البادية لا يخذل أحداً .. عندما يحس أن هذا الشخص ، يحتاج فعلاً إلى ذلك الشىء الذى يطلبه .. تشهد بذلك تصرفاته مع

مدرب التنس في النادي ، وتصرفاته التي سمعت عنها من صبرى .
وهو لا شك سيحس من رسالتها .. مدى حاجتها إلى رده ، ومدى ما يمكن
أن يمنحها بالكتابة إليها !

إنه سي شعر — بلا جدال — أنها لا تعبث ولا تهزل .
ولن يضيره أن يكتب إليها كلمة أو بضع كلمات .
لماذا بعد كل هذا لا تتوقع منه رداً ١٩

ومن أجل هذا أخذت تعد الأيام .. لقد حسبت لها « منى » مدة الرسالة
بأربعة أيام .. عندما قرأت تاريخ وصول رد عصام .. وتاريخ إرساله الرد ، وهي
قد أرسلت الرسالة في يوم الجمعة الماضى .. واليوم السبت أى مضت ثمانية أيام
على إرسالها .. أربعة أيام لوصول رسالتها وأربعة أيام لوصول رسالته .
هذا بفرض أنه سيكتب رداً في نفس اليوم الذى تصل فيه رسالتها .

منتهى التفاؤل وحسن الظن !!
لم يكفها أن تقنع نفسها .. بأنه سيرد .. بل استطاعت أيضاً أن تفترض بأنه
سيرد في نفس اليوم .

كأن الصلة بينهما قد بلغت من شدة الوثوق والارتباط ، ما يجعله لا يطيق
تأخير الرد لحظة ، أو كأن المسألة .. من الخطورة والإلحاح .. بحيث لا تحتمل
أى تأجيل .

وأحست بالخجل ، وهي ترى نفسها قد انزلت إلى مثل هذا الحد من
التفاؤل ، ولم تجد بداً من أخذ نفسها بشيء من الشدة ، ونهبها عن الإغراق في
أحلامها الطائشة .. وأن تؤكد لنفسها أن صرامته وكرمه للعبث .. ستغلبان
على رفته وكرمه .. وأن أصابعه ستصرف في الرسالة .. قبل أن يتصرف فيها
قلبه .

ومع ذلك ، فلم تكد الأيام الثمانية .. التى حسبتها للذهاب والإياب تنتهى ..
حتى انتابها شعور بالقلق واللهفة ، ولم تستطع أن تمنع نفسها من أن تسأل

« بيتر » العجوز الذى يتسلم رسائل المدرسة .. عن رسالتها المنتظرة .
ولم تستطع أن تنزع من نفسها إحساس الانتظار .. فقد كان إحساساً
ممتعاً .. خلق فى نفسها شيئاً آخر غير ذلك اليأس ، اللانهاى .. شيئاً ربطها
بالوهم الكبير ، وجعل ثمة خيطاً بينهما تعلقت بطرف منه ، وألقت بالطرف
الآخر .. عله يصله إليه .

واجتازت التوءمتان باب المدرسة .. وهمت « نادية » بالاتجاه من الطريق
الموازى لسكة الحديد ، فجذبتها « منى » إلى الميدان حيث الطريق الرئيسى .
وقالت نادية :

— ألم تقولى إنك فى عجلة !؟

— ولو .. إلى أكره هذا الطريق المقفر .

— لست أدرى ماذا يعجبك فى الازدحام !؟

— لأننى أحب الناس .. أحب مغازلات الشبان .. ومعاكسات الصبية ..
أحب الفواكه فى الحوانيت ، وأحب رنين أجراس الدراجات ، وأبواق
العربات .. أحب كل هذا .. لأنه يشعرنى بالحياة .

— الحياة ليست فى صخب الناس وضجيجهم .. إلى أحس بالحياة فى سكون
البحيرة ، وفى حفيف الشجر .. وفى اهتزاز الورد على غصنها .

ونظرت إليها « منى » وقلبت شفتيها وأجابت فى سخرية :

— هذا كلام من عندياتك .. أم من ديوان أحد الشعراء !؟

— إن هذا ما أقصده يا منى .. إلى حقيقة أكره صحبة الناس ، وأكره
ازدحامهم .

— لأنك تخشينهم .. من يوم الحريق ، وقد أصابك هذا الخوف من الناس ..
توهمين أن يفحص كل عابر وجهك ويشير إليك صائحاً : انظروا إلى هذه الفتاة
المشوهة . انظروا إلى عنقها المحروق .

وبلا وعى مدت « نادية » يدها إلى عنقها وأحكمت ربط الإيشارب حوله ،

ثم التفتت إلى « منى » ناهرة إياها :

- ما هذا الحق .. اخفضى صوتك وإلا سمعك الناس !؟
- أرايت يا نادية يا حبيبتي !! أرايت لماذا تخشين من الناس !؟ ترى متى تواجههم فى ثقة وشجاعة !؟ متى تكفين عن هذا الخوف !؟
- لو أصابك ما أصابنى ، هل كنت تواجهين الناس !؟
- وكنت أسب من لا يعجبه شكلى .
- واهمة . تقولين هذا لأنه لم يصبك شىء .
- ولكن ممن تخشين هنا !؟
- ولماذا أزعج الناس بمنظرى !!
- إنه غير مزعج .
- وتوقفت « منى » أمام محل للتصوير وأخذت تنظر إلى الصور المكبرة الموضوعة فى واجهته وقالت لنادية :
- أليست لك رغبة فى التصوير !؟
- وجذبتها « نادية » من يدها قائلة فى غيظ :
- أتسخرين !؟
- أنا ؟ ..
- أتظنين حقاً أنى أرغب فى التصوير !؟
- أنا شخصياً أرغب فى أن أرسل صورة لعصام .. لقد سألتنى أن أرسل له صورة حديثة .
- إذن تصوّرى أنت .
- وأنت !؟
- ليس هناك من يسألنى صورة حديثة .. ولا قديمة .
- احتفظى بها لنفسك .
- ليس فى صورى الآن ما يستهوينى .. إذا أردت أنت صورة فادخلى ..

واذكرى أن حفلة « جاني » تنتظر .

— أجل .. معك حق .. سأعود عندما يكون لدى وقت ، وعندما أكون مرتدية ثياباً لائقة .. الفستان القطيفة الأحمر مثلاً .. ما رأيك فيه للتصوير ؟!

— لا بأس .. ولو أنى لا أظن قماشه أو لونه سيبدوان فى الصورة .

وعاودت التوعمتان سيرهما .. فى زحام الطريق بين عبث الصبية ومعاكسات الشبان والدراجات ذات الأجراس والعربات ذات الأبواق .

وبدأ الزحام يخف فى أول المنحدر .. وأخذت الفتاتان فى صعود الطريق الخلوى المؤدى إلى المزرعة .

ولم تكادا تسيران فيه برهة .. حتى أحستا بعربة تتوقف بجوارهما ، ثم سمعتا صوتاً يهتف بهما :

— ازكبا قبل أن تتوقف العربة ، وتضطرا إلى دفعها معى حتى البيت .

ونظرت التوعمتان فإذا بجارهما مسيو « كيلى » .. والد « جاني » .. صاحبة دعوة الغداء .

واتخذتا مكانهما فى العربة .. التى توقفت برهة قبل أن تبدأ السير .. وتقهقرت بضع خطوات فى المنحدر ، ثم ما لبثت حتى عاودت السير .. وقال الرجل البدين ، الأحمر الوجه ، الذى استقرت عملة القيادة على بطنه :

— ربنا يستر .. لست أدري ماذا يمكن أن يحدث لى لو توقفت العربة .. إنى لا أتصور أن أصعد كل هذه المسافة على قدمى .. سأبيت فى كشك المحطة أو فى صالون السيدات ، أظن هذا يكون أكثر راحة ودفعاً ، على أحد مقاعد الحلاقة .

ثم انطلق الرجل يقهقه فى انشراح وصفاء .

وقالت « منى » ضاحكة :

— إذا توقفت العربة .. فنحن على استعداد لأن نجرها لك .. أنا ونادية وجاني وتونى .

وأردفت نادية قائلة :

— فى النزول فقط .

وأجاب الرجل :

— لست فى حاجة إلى مساعدة فى النزول .. إلى أستطيع أن أندرج .

ثم نظر إلى الساعة فى معصمه وأردف قائلا :

— لقد تأخرت على « جاني » .. لا بد أن القلق أصابها .. لأن نصف

حاجيات الوليمة معى فى العربة .

وأجابت منى :

— لا بأس .. سأذهب معك لأساعدها فى إعدادها .

وقال الرجل :

— جميل .. ستذهبان معى إلى بيتنا رأساً ؟

وردت نادية قائلة :

— أنا أريد أن أذهب إلى البيت أولاً .. لأنى أحس أنى متربة ، ولا بد أن

أستحم وأبدل ملابسى .. فإذا سمحت أنزلنى أمام البيت وسألحق بكم .

وكانت العربة قد وصلت إلى باب البيت فهبطت نادية ، وانطلق الرجل ومعه

« منى » لتساعد ابنته فى إعداد الوليمة .

واتجهت « نادية » إلى « الدار » ، وعبرت الممر المفضى إلى الباب الداخلى

بين أحواض الورد والقرنفل وذهنها يغافلها ، ويشرد فى الرسالة المنتظرة .

ولم تجد أحداً فى البيت سوى « الجدة » . و« مارى » ابنة العجوز بول ..

كانت الأم وجانيت قد ذهبتا إلى بيت جاني .

وصعدت نادية إلى حجرتها بعد أن حيت الجدة ، ونزعت الإشارب عن

رأسها ، ووقفت أمام المرأة .. تفحص عنقها وأسفل أذنيها وذقتها .. كعادتها فى

كل مرة تنزع الإشارب .

كانت تأمل أن تحدث معجزة .. تزيل من جلدها المحترق هذه البقع

والتجاعيد .. وكانت تحاول تدليك عنقها كلما انفردت بنفسها .. وكانت

تستعمل بعض المراهم التي وصفها الطبيب لعلاج جلدها عقب الحريق .. ولكن الجلد بقى على حاله .. بكل ما فيه من تشويه .

وتذكرت قول « منى » : « متى تواجهين الناس في ثقة وشجاعة !! متى تكفين عن هذا الخوف » . كيف تواجه الناس .. بهذا العنق المشوه والجلد البشع .. إنها تكره أن تبصره عيناها هي .. فما بالها بأعين الناس !! ومدت يدها بالمشط تسرح شعرها .. ثم عادت تحكم الإشارب مرة أخرى حول شعرها ، وتشد البياقة حول عنقها ، حتى لا يفلت جزء من العنق المحروق ليفضحها أمام الناس .

من أجل هذا عادت إلى البيت .. لتحكم الرباط حول رأسها وعنقها ، ولتأكد أن كل شيء في وجهها على ما يرام . فقد كانت تحس أن حركتها خلال اليوم .. قد تفلت وثاق الإشارب حول رأسها . ألم يحدث هذا في السفينة .. عندما هب النسيم .. مجرد نسيم .. فأزاح الإشارب ، وفضحها .. أمام جمال ؟!

وهبطت « نادية » الدرج إلى أسفل ، ولم تكد تعبر باب البيت إلى الطريق حتى أبصرت عربة المسيو « رينو » تتوقف أمام الباب . ودهشت « نادية » .. ولم تدر ما الذي أتى بالرجل في هذه الساعة .. وتوقفت لاستقباله لكي تعتذر له عن خلو البيت من أهله .

ولم يهبط « رينو » من العربة .. ولكن هبط بدلا منه كاتب الحسابات العجوز ، وقد أمسك برسالة في يده . وتهللت أساريره وبدت على وجهه أمارات الفرحة .

ومد يده بالرسالة قائلا :

— وصلت الآن فقط .. لقد أتيت بها إليك كما وعدتك ، استأذنت مسيو « رينو » أن آخذ عربته ، ففضل بإعطائها لي .

ومدت « نادية » يدها تتسلم الرسالة .. مشدوهة .. مأخوذة .. أخيراً

كتب إليها !

وبمثل هذه السرعة ؟!

غير معقول ، ولكن ها هي الرسالة .. في يدها .. ولا بد أن تكون منه ..
فرسائل عمها تصل إلى البيت ، وهي لم تعط عنوان المدرسة لأحد .

أجل .. لقد رد عليها .. ولا بد أن يكون قد رحب بالكتابة إليها .. فغير
معقول أن يرد بهذه السرعة ليقول لا .

ووقف العجوز ينظر إليها في دهشة ، وهي تمسك الرسالة كالمنهولة ، دون
أن تنبس بكلمة ، وقال العجوز متضاحكا :

— لقد صممت أن آتي بها إليك بمجرد أن وصلتني .. حتى لو لم يعطيني مسيو
رينو عربته .. فقد كنت أنوي إحضارها سائراً على قدمي .. بعد الغداء .

وأحست « نادية » أنها يجب أن تفيق من دهشتها .. لتقول شيئاً للرجل المائل
أمامها .. ينتظر بضع كلمات شكر على جميله .

ابتسمت « نادية » قائلة :

— ما كان يجب عليك أن تتعب نفسك هكذا !

— كيف ؟ إني أعرف لهفتنا عندما ننتظر رسالة من عزيز علينا .. لقد قرأتها في
عينيك وأنت تسأليني عنها في مكتبي .

— ولكني لم أقصد أن أسبب لك هذه المشقة .

— أبدأ .. أبدأ .. لا مشقة هناك .. إنك لا تدرين كم سررت عندما وصلت
الرسالة ، وكم أسعدني أن آتي بها إليك .

— لست أدرى كيف أشكرك ؟!

وضحك العجوز ، وهو يعود إلى العربية قائلاً :

— لعلك لا تنسين أن تمرى على كل صباح كما وعدت ؟

— لن أنسى .

— وتعزفي لي .. فالس داديه .. كل صباح ؟!

— ٣١٢ —

— سأعزفه لك .. إذا سمحت لى مدام كلود .

— دعى لى مدام كلود .

وعاد الرجل إلى العربة و « نادية » ممسكة بالرسالة ، وهى ما زالت فى ذهولها ، ورفعت الرسالة لتقرأ العنوان على المظروف ، وميزت به طابع مصر . ولم تحاول فتح المظروف .. فقد أحست أن الرسالة من الخطورة بحيث يتعذر فتحها على قارة الطريق ، وأنها تحتاج إلى خلوة ، وإلى وقت . ولكنها لم تكن تستطيع أن تنصبر حتى تجد الوقت والخلوة . لماذا لا نعود إلى البيت لتقرأها ؟!

أو على الأقل لتفضها ، وتؤكد من توقيعه .

إنها لا تستطيع أن تصدق أنه كتب إليها حقاً .. أجل . يجب أن تدخل ثانية لتفض المظروف ، وتقرأ الرسالة .

وقبل أن تستدير لتخطو داخل البيت أبصرت عربة مسيو « كيلي » وقد أقبل بها ابنه « تونى » مسرعاً ومعه بعض الصحاب من الفتية والفتيات وهم يصيحون بها :

— هيا يا نادية ، ما هذا التلکع ! إن الجميع ينتظرونك .

ولم تملك « نادية » إلا أن تطوى الرسالة بسرعة ، وتخبئها فى جيبتها ثم تركب العربة قائلة :

— لقد كنت فى طريقى إليكم .

ورد تونى :

— لقد قالت « منى » إنك قد تبقي فى البيت لأنك تكرهين الضجيج ، فأصررنا كلنا على أن نحضر لأخذك .

— لقد قلت لجانى إنى سأتى ، وإنى لا أخلف وعدى .

ووصلت الشلة إلى البيت ، وانتهت الوليمة الصاخبة .

وانهمك الفتية والفتيات فى اللعب والرقص ، « ونادية » فى شرودها

— ٣١٣ —

تتحسس الرسالة بين الآونة والأخرى .. خشية أن تكون وهماً أو حلماً .
وعندما انتهى الصحاب من لهوهم قرروا الخروج بالعربة ليشاهدوا أحد
الأفلام .
وهنا أحست « نادية » أن فرصة الفرار قد حانت ، وأنها تستطيع أن تنسحب
عائدة إلى البيت .

وقال « تونى » وهو يضع يده فى يدها :
— هيا يا نادية .. أنت ضيفتى فى السيما .
— إنى آسفة .. لأنى لن أستطيع الذهاب .
— ولمه ؟
— إنى أحس صداً شديداً فى رأسى ولا بد أن أستريح .
— إنى سأضيع لك الصداع .. سأعطيك قرصاً .
— لا . لا . إن خير ما أفعله هو أن أعود إلى البيت وأرقد .
وتدخلت « منى » قائلة :

— لماذا يا نادية ؟! سنخرج كلنا سوياً ، وإذا أردت أن نذهب إنى أى مكان
آخر غير السيما فسنفعل .
— إنى متعبة يا « منى » ولا بد أن أستريح .
وحاول البعض التدخل لإقناعها ولكن « منى » قالت :
— لا فائدة . دعوها .. إنها عنيدة ، وعندما تقول لن أذهب .. فهى فعلا لن
تذهب .

حمدت « نادية لمنى » قولها .. فقد وفرت عليها مزيداً من الإلحاح ومزيداً من
الاعتذار .

وانطلق الجمع الصاحب بعربة المسيو « كليل » يقودها ابنه ، وعربة أخرى
يقودها أحد الفتية ، وسارت « نادية » وحدها عائدة إلى البيت ويدها تتحسس
الرسالة .

وبأصابع مرتجفة فضت الرسالة .
وأحست من الكتابة الكثيرة التي ضمتها سطورها أن خيبة أمل توشك أن
تحدث .

لم تعقل أن يكتب إليها مدحت كل هذه السطور .
وبسرعة انتقل بصرها إلى السطر الأخير لتقرأ توقيع صبرى .
وأحست بشيء يعتصر باطنها .
شيء قاس أليم .
وأحست بالكره لصبرى .
لقد كان هو السبب في خديعتها .
أجل .. لماذا كتب في هذا الوقت بالذات ؟!
بل لماذا يكتب إليها ؟!
وقدفت بالرسالة في ضيق .. والبكاء يكاد يخنقها .
وبعد برهة .. رفعت عينها إلى النافذة .. فأبصرت البرد ما يزال يتساقط
ولاحت لها قمم الجبال يلفها الضباب .
ورويداً رويداً .. عاودتها السكينة .
لماذا تظلم صبرى ؟
ألأنه سأل عنها وكتب إليها ؟!
ألأنه يحبها ؟!
ومدت يدها إلى الرسالة ، وأخذت في قراءتها .
وعندما انتهت منها .. أحست بشيء من غزاء .
وفي الصباح ، وهى فى طريقها إلى حجرتها فى المدرسة ، وقبل أن تصعد
الدرج .. أطلت على المسجل العجوز وأقرأته تحية الصباح .
ورد الرجل عليها فى بشاشة . ومد يده ملوّحاً برسالة فى يده :
— رسالة أخرى .. يا آنسة .. الظاهر أن الخير قد أتى مرة واحدة .

وذهلت « نادية » ولم تصدق أذنيها في بادئ الأمر ، ولكنها دخلت غرفة الرجل ، وتناولت الرسالة .

ولم تحس لها بحماس شديد .. فلا يبعد أن تكون هي الأخرى من صبرى .
أجل لقد قال لها .. إنه سيكتب إليها .. حتى ولو لم ترد ، وليس من المستبعد أن يكون قد نوى ملاحقتها برسالة كل يوم .
وقرأت الظرف فرأت خطأ يختلف .

ودق قلبها بعنف ، ولم تستطع أن تصبر حتى تصل إلى حجرتها .. بل فضت المظروف وهي تصعد السلم .

ولم تكن الرسالة مزدحمة .. كانت بضعة سطور .. استطاعت أن تميز في آخرها .. اسم « مدحت أبو العلا » .

وأحست « نادية » كأن السلم يمد من تحتها ، وأطبقت على الرسالة بأصابعها ثم انطلقت مسرعة إلى غرفتها .
وأغلقت الباب وجلست على مكتبها .

ومضت برهة وهي تحاول أن تتمالك نفسها ، وتهدىء من أنفاسها المتلاحقة .
وأخيراً فتحت الرسالة ، وأخذت تقرأ :

« أنا أيضاً لا أعرف كيف أسميك .. فإذا كنت عجزت عن تسميتي وأنت تعرفين عنى ما زعمت أنك تعرفينه .. فكيف أسميك أنا .. وأنا لا أعرف حتى ما إذا كنت أنت أم لم تكونيه ؟

« أنا أكتب إليك لأن جملة في رسالتك حتمت على الكتابة وهي قولك :
« لو عرفت ما يمكن أن يفعله ردك لى .. لأجبت رجائى ورددت على » .
« وهأنذا أجيب رجاءك وأرد عليك .. رغم حشيتى من أن تكونى خدعة .
وأن تكون رسالتك أكذوبة .. أكتب إليك رغم أنى أشك في حقيقتك وأخاف من أن تكونى رجلاً يهدف إلى التفرير والسخرة منى .

« ولكن إذا كنت .. كذلك .. فلا أظن سخريتك يمكن أن تضرنى بقدر »

— ٣١٦ —

يضيرك عدم ردّي إذا لم تكوني كذلك .

ولهذا فقط رددت عليك .

« فإذا كانت رسالتك مجنوناً وعبثاً .. فمن الخير أن تكفي عن الكتابة إليّ ..

وإذا لم تكن .. فاكتبي إليّ مزيداً عن نفسك .. من تكونين ؟ وماذا تريدن ؟

« إني بطبعي لا أستطيع أن أخذل إنساناً .. أياً كان .. وأؤكد لك أنك

كإنسان في هذا الوجود .. مهما كنت ومهما كان موضعك ، فإن قولي

يشملك . إني لن أخذك ، وسأفعل من أجلك كل ما أستطيع .. إذا كنت حقاً

أملك لك نفعاً .

« ليس عندي ما أقول أكثر من هذا .

« قد يكون حديثي جافاً ، ولكن عذري أنني لا أعرفك ، ولست واثقاً من

حقيقتك .. ثم إني فوق كل هذا لا أجيد الكتابة .

« لك تحياتي أياً كنت .. » « مدحت)

(٢٧)

من أنا ؟! ..

انتهت « نادية » من قراءة الرسالة وأحست وهي تمسك بها بين أصابعها أنها تود أن تضمها إلى صدرها .. وتشمها بأنفها وتمسها بشفتيها .

لم تحاول أن تفكر كثيراً في محتوياتها .. أو تفحص معانيها وتزن مضمونها .. كانت تحس بها — في جملتها — بورقها وسطورها ومدادها .. شيئاً عزيزاً .. بغض النظر عما تحتويه من معان وتهدف إليه من أغراض .

كانت « نادية » تحس أنها تمسك لأول مرة .. جزءاً منه ، من أوراقه .. ومن كتابته .. ومن أفكاره .

لقد ظفرت وهي في غربتها النائية .. بما لم تستطع به وهي على بعد خطوات منه . لقد خاطبته من وراء الجبال والبحار .. وسمعت رده .. عبر آفاق وآفاق .

أياً كان رده .. ألا يكفي أنه أجاب ؟

ومرة أخرى عادت تقرأ الرد .. في تمهل وإمعان .

إنه هو .. بنفس كبريائه وصرامته .. وباطنه الطيب .. وقلبه الكريم .. الذى يكره أن يخذل إنساناً .. مهما كان .

لقد كتب إليها رغم شكوكه في حقيقتها .. ورغم خوفه أن تكون قد قصدت إلى التفرير به السخرية منه « فإذا كانت رسالتك مجوناً وعبثاً ، فمن الخير أن تكفى عن الكتابة إليّ ، وإذا لم تكن .. فاكتبى إليّ مزيداً عن نفسك . من تكونين ؟

وماذا تريدن ؟ » .

لقد طلب منها أن تكتب عن نفسها إذا لم تكن رسالتها مجوناً .. وعبثاً !

مجون وعبث !!..
ليتها كانت كذلك .. إذن لأراحت واستراحت .
ولكنها ليست كذلك .. والمطلوب منها أن تقنعه أنها ليست كذلك .. وأن
تكتب إليه .. لتقول له من تكون ، وماذا تريد !!
ولكن .. من تكون ؟!
أو على الأصح .. ماذا يمكن أن تكون بالنسبة إليه ؟!
وماذا تريد !!
يكتب إليها .. أهذا كل ما تريد ؟!
يكتب إليها عماذا ؟! ماذا يقول ؟!
وأحسنت « نادية » بالحيرة .. وتملكها الوجع والخشية .
وعادت تقرأ في سطور الرسالة :
« إني لن أخذلك .. سأفعل من أجلك كل ما أستطيع .. إذا كنت حقاً أملك
لك نفعاً » .
وأحسنت .. شيئاً من الطمأنينة .
إنه لن يخذلها .. وهو حقاً يملك لها النفع كل النفع ..
إنها تريد أن يحدثها كصديق وأن ينبئها بأخباره .. ويسمع منها أخبارها .
ماذا بعد ذلك ؟!
ماذا بعد أن تتوطد الصداقة بينهما على بعد المسافة ؟! أتأمل في شيء أكثر من
هذا ؟!
في لقاء مثلاً .. أو في إعجاب .. وحب !!
لا .. لا .. إنها لا تطمع في شيء من هذا .. بل إنها تخشى اللقاء حتى لا
يكشف أمرها .. ويهتك سترها الذي تحجب به ما بوجهها من تشويه .
إذن ما النهاية ؟!
ما نهاية كل هذا .. الذي تسعى إليه ؟!

— ٣١٩ —

ولكن لماذا تضايق نفسها من الآن بالنهاية ؟!
أكل شيء نقدم عليه في حياتنا ، نتصرف فيه على أساس نهايته ؟! حياتنا مثلاً ،
هل نقيم تصرفاتنا فيها حسب نهايتها ؟!
لو كان الأمر كذلك .. لما أقدمنا فيها على شيء .. ولرقدنا على ظهورنا ..
نتنظر النهاية .. فلماذا إذن نحاول أن تشكل تصرفاتنا في حجبنا .. على أساس
نهايته .. لا .. لا .. إنها ستكتب إليه .. ستذكر له المزيد عن نفسها ..
وستحدثه عما تريد .. وتساءله أن يكتب إليها .. دائماً .. دائماً .
ولتكن النهاية .. ما يمكن أن تكون .
ومدت « نادية » يدها إلى درج على يمينها وأخرجت منه كراسة رسائل
زرقاء .

وأطلت ببصرها من النافذة ، ليتخلل فروع السنديانة إلى الأفق البعيد ..
حيث قامت الجبال الشاهقة بقممها البيض ، كأنها سد ضخيم يحول بينها وبين
أرض الأحلام .. ووطن الأمانى .. الأرض الخضراء المنبسطة التي لا تحتجب
عنها أشعة الشمس .. والوطن الذي يضم بين ربوعه عبقرياً الطويل ، العريض
المتكبين .. الصارم القسمات .. الرقيق القلب .
وعاد نظرها من الأفق ليعبر فناء المحطة .. وقد خلا إلا من « كلب » ناظر
المحطة .. وحمال يسير متاقلاً قد انكمش جسده تحت معطفه .. ثم استقرت
عينها على الكراسي الخالية .. وتملكها شعور بالرهبة وهى تضع سن القلم في أعلى
الورقة .. لتبدأ الكتابة .

كيف تناديه ؟! وماذا تقول له ؟!
إنها تحس أن مصير أمانيتها .. وأحلامها .. يتوقف على ما ستخطه يداها .
إن عليها أن تقنعه .. بأنها حقيقة .. وليست خدعة ولا أكذوبة .. ثم تقن
بعد ذلك ، بأنها في حاجة إليه .. إلى كتابته . وإلى صداقته .. وإلى حبه ..
أمكن ، وأنها لا تعبث به ، ولا تسخر منه .

كل ذلك يجب أن تؤديه ، السطور التي سيخطها هذا السن الرابض على حرف الورقة .

وأغمضت عينها .. وهى تحس بعجز تام عن الكتابة .
وفجأة تعالى من ورائها ، النغم البطيء .. ذو الخفقات المنفصلة المتباعدة ،
الذى ينساب إلى النفس متدفقاً متصلاً ، وأحست بشيء جامد فى باطنها
يذوب .

وتحرك سن القلم .. ليؤدى مهمته الخطيرة .
» سيدى الفاضل .

» لا أظنك تدرك .. أى شيء فعله ردّك بنفسى .
» هذا الرد الذى لم تفصح به عن شيء ، سوى أنك رددت عالى لأنك تخشى
أن تخذل إنساناً يرى نفسه فى حاجة إليك .

» ويعلم الله لم أكن أتوقع أكثر من هذا .. ولا آمل فى خير منه ، أن ترد
على .. مجرد رد .. كى تمنحنى بصيصاً من أمل ، يشجعنى أن أخبرك من أنا ،
وماذا أريد .. وأن أكتب إليك بشيء من التفصيل ، دون أن أحس بأنى أفرض
عليك نفسى وأكرهك على سماعى .

» أكتب إليك .. وفى نفسى شيء من الطمأنينة .. طمأنينة المستأذن ، يؤذن
له .. أو الطارق ، يسمح له بالدخول .

» أكتب إليك ، وقد زال من نفسى ، وجل التسلل ، ورهبة المقتحم .
» ومع ذلك .. ورغم ما أحسست به من طمأنينة المستأذن .. ورغم زوال
وجل التسلل .. ورهبة المقتحم .. أحس أنى قد استبدلت وجلاً .. بوجل ..
ورهوة برهبة .. وأنى لم أكن أواجهك ، لأقول لك من أنا وماذا أريد ، حتى
أحسست بفمى يتلعثم .. ولسانى ينعقد .

» وإذا بى .. بعد كل ما كتبت .. لا أعرف كيف أقول لك من أنا .. وماذا
أريد .

« ومع ذلك .. أحس أنى لا بد أن أجتاز الاختبار ، اختبار الثقة الذى عقدته
لى .. ولا بد أن أقنعك بأنى ، لست خدعة .. ولا أكذوبة .. وأنى لا أغرر ولا
أضل ، وأنى حقاً أحتاج إليك . لا أعبت ولا أسخر .

« أنا .. كشىء مady .. لا أظن وصفى بالشىء العسير .

« فلنبدا بهذا الجزء السهل من المهمة .

« أنا .. كما قلت لك — « نادية » — فى الثامنة عشرة من عمرى ، شقراء ،
خضراء العينين ، مقبولة الشكل ، ولعل بهذا التعبير أستطيع أن أنجب مبالغة
الغرور ، أو إنكار التواضع .

« ألى مصرى وأمى فرنسية .. كنا نعيش فى مصر ، ومات أبى .. فاضطررنا
أنا وأمى وأختى التوأم .. أن نرحل إلى « حاب » موطن أمى .. تجنباً لمتابعب
المعيشة .

« وقد استقر بنا المقام فى بيت أمى .. وعملت أنا وأختى فى مدرسة للأيام .

« هل هناك تفاصيل أخرى ؟!

« لا أظن .

« هذا هو .. كل ما فى « أنا » .. كشىء مady ، لا أظن أبى أكثر من ذلك من
ناحية التفاصيل الرئيسية ، ولا أظن التفاصيل الثانوية ، يمكن أن تضيف إلى
شيئاً كثيراً .. فى نظرك .

« بقى أن أقول .. من « أنا » .. كشىء معنوى .. المخلوقة .. المجنونة — كما
لا أشك قد ظننتنى — التى تسكن جبال الألب ، والتى تكتب إلى طيب فى
مصر .. تسأله أن يكتب إليها ، زاعمة أن كلماته هى خير عزاء لها فى غربتها .

« بقى على أن أقول .. من أنا كشىء معنوى .. لأقنعك كيف يمكن أن
تكون هذه الصورة التى بدت فى ذهنك فى أول الأمر .. أكذوبة أو خدعة ..
حقيقة واقعة .. حارة ، مخلصه .. لا عبث فيها ولا سحرية .

« أنا مخلوقة . قد شددت نفسها إلى نفسك .. من حيث لا تدرى .

— ٣٢٢ —

« لا تدري أنت .. ولا تدري هي .. ولا أظن أحداً يمكن أن يدري غير هذا المدبر الذى يدبر أمرك وأمرى ، وأنا فى جانب من الأرض وأنت فى الجانب الآخر .

« والذى يعلم وحده .. كيف شددت إليك نفسى .. ولمه ؟!
« كان ذلك منذ بضع سنوات .. عندما أبصرتك فى النادى .. كمخلوق ..
فظ .. قاس .. ونفرت منك .. بطبعى الرقيق .. وإحساسى المرهف .. عندما رأيتك » .

وتوقف قلم « نادية » ، وهى تحس بوقع خطوات تقترب من الباب ، وطوت رسالة مدحت ووضعتها فى جيبتها ثم قلبت صفحة الكراسة ، وفتح الباب واندفعت « منى » تهتف قائلة :

— نادية ؟!

والتفت إليها « نادية » وهى تهز رأسها متسائلة :

— ماذا تريدين ؟

واندفعت منى قائلة :

— اسمعى .. سنخرج اليوم .. للانزلاق على الجليد .

ونظرت إليها « نادية » متسائلة فى دهشة :

— انزلاق على الجليد ؟!

— أجل .

— من ؟!

— أنا وأنت .

— أعرفين كيف تتزحلقين على الجليد .. أم تنوين أن تدق عنقك ؟!

— هل سمعت عن أحد دق عنقه فى الجليد .. يا غبية !!

— سأسمع غداً إن شاء الله .

— اسمعى . أنا لا أمزح .. هل ستأتين معى .. أم لا ؟!

— ٣٢٣ —

— معك إلى أين .. أيتها المجنونة !؟

— سنخرج مع تونى وجاى .. وبقية الشلة .. وقد أعدوا أدوات الانزلاق .. الزحافات والعصى .. وسنصعد الجبل ونقضى اليوم فى الانزلاق على الجليد .

— تقصدين أنهم سيقضون اليوم فى الانزلاق على الجليد ؟
— بل أقصد نحن .. كلنا .

— أنا وأنت ستنزلق على الجليد !؟ هل سبق لنا هذا !؟ كوفى عاقلة !
— سنتعلم .. لقد قال لى « تونى » إنها مسألة بسيطة جداً وسيعلمنا فى نصف ساعة .. سنلتقى كلنا فى الساعة الثانية عشرة عند ناصية الشارع أمام محل التصوير .

— الساعة الثانية عشرة .. والمدرسة !؟
— لن يكون عندى عمل بعد الثانية عشرة .
— ولكنى ..

— لا تزعمى أن عندك عملاً .. تستطيعين أن تتدعى كلود .. ومسيو رينو .. وتوهمينهما بمشقة ترتيب البطاقات وإعداد الملفات .. أما أنا فأعلم أنك تقضين نصف وقتك فى السرحان والحملقة من زجاج النافذة .. والتفكير فى ذلك السخيف الكشر .. الذى توهمين أنك تحبينه .

وحملت « نادية » فى وجهها فى دهشة قائلة :

— منى .. ما هذا الهذيان الذى تقولين !؟
وربت « منى » ظهرها وهى تقول ضاحكة :
— أنا التى أهذى !! متشكرة .. أنت لا تسرحين ولا تحبين .. هذا الحيوان الطويل .. العريض .. الذى ...

— لا تقولى عنه حيوان .

— رجعتنا !! ألم تزعمى أنك لا تسرحين فيه !؟

— ٣٢٤ —

- أسرح فيه أو لا أسرح .. لا داعي لأن تتكلمى عن الناس بمثل هذه الوقاحة .
— متأسفة .. انتهينا .. هل ستأتين معنا ؟!
— قلت لك .. لا .
— بل ستأتين .
— لا .
— إن لم تأت سأذهب وحدى .. وسأندفع فى الانزلاق حتى تدق عتقى ..
وتكونين أنت مسئولة عن وفاتى .
— فى داهية .
— هكذا ؟!
— أجل هكذا .. ما دمت أنت لا يهملك نفسك .. فمادام يهمنى أنا ؟!
وهزت « منى » كتفها .. قائلة وهى تتجه نحو الباب :
— إذن سأذهب وأنزلق .. وأجهد نفسى حتى ..
ونادتها « نادية » قائلة :
— اسمعى .
— ها .
— تعالى هنا .. متى ستغادرين المدرسة ؟!
— فى الحادية عشرة والنصف .
— مرى علىّ قبل أن تنصرفى .
— ولّمه ؟! ألم تقولى إنك .. لن تذهبنى ؟!
— سأذهب .
— وتترحلقي ؟!
— بل سأسير لمراقبتك .
— المهم أن تأتى .. وستترحلقين رغم أنفك .
ولمحت « منى » كراسة الرسائل فهتفت متسائلة :

— ٣٢٥ —

- ماذا كنت تفعلين؟! —
— زبدا على « نادية » الارتباك ، وأجابت قائلة :
— كنت .. كنت .. أنوى الكتابة .
— لمن؟! —
— لصبرى .
— لصبرى ؟
— أجل .. سأرد عليه .
— ستردين عليه .. هل كتب إليك ؟
— أجل .
— وكيف عرف العنوان؟! —
— من عصام .
— الحمار .. هل يعرض رسائل للناس؟! —
— ولم لا يكون أعطاه العنوان دون أن يريه الرسالة .
— معقول .. ومتى وصلت لك رسالة صبرى؟! —
— بالأمس .
— ولماذا لم تخبرينى؟! —
— نسيت .
— طبعاً .. لو كانت رسالة من حبيب القلب .. لما نسيت .. أين هي؟! ماذا
قال لك؟! —
— أظنها .. فى الحقيقة .
— ومدت « منى » يدها إلى حقيبة « نادية » وفتحتها ثم سحبت رسالة صبرى
وأخذت فى تلاوتها .
— وقالت « نادية » محاولة التخلص من « منى » :
— ليس هذا وقت قراءتها يا منى .. عودى إلى فصلك .

— ٣٢٦ —

ولم تجب « منى » بل استمرت فى تلاوة الرسالة بسرعة ، وهى تقفز السطور
أربعاً فى أربع ، وأخيراً أقذفت بها من يدها قائلة :
— مغفل .. مازال يتحدث عن صفقة الأسلحة .. ومؤتمر بانلدونج ،
والتعايش السلمى ، والحياد الإيجابى .. متى ينوى أن يتعلم الحب ؟!
— دعيه هكذا .. فلست أدرى كيف يمكن أن أجيبه ، لو أنه كتب إلى رسالة
حب .

— وكيف تنوين أن تجيبه الآن ؟!
— سأنفخ فى روحه ، وأذكى حماسه .
— يا بنت الصرم !!
— « منى » اخفضى صوتك ، وكفى عن هذه البذاءة .
— لا تخافى شيئاً ، ليس هنا من يفهم العربى .. أنت تنوين إذن أن تنفخى فى
روحه .. وتجاربه بمثل سخافته !!
— ليست هذه سخافة يا منى .. إنها حقائق . إن مصر الآن تمر بنقطة تحوّل فى
تاريخها كله .

— وما لنا نحن بهذا ؟!
— كفى عن هذا الاستخفاف .. وإلا لن أتحدث معك .
— لا تغضبى . إني أتساءل حقاً . مالنا نحن بهذا التحوّل !
— إنه مصيرنا .. مصير كل مصر .. وأجيالها القادمة . فعندما نملك
حریتنا .. نستطيع أن نهىء لأنفسنا مستقبلاً أفضل ، وحياة أكرم .
وأجابت « منى » وهى تهز رأسها غير مقتنعة :— ها .
وبحركة غير إرادية .. مدّت يدها ، وتناولت كراسى الرسائل .. تقلبها فى
يدها ، فى غير اكتراث .

وبلا أى قصد .. لمحت السطور الأولى من الكتابة .
وفى لمح البرق ، اختطف « نادى » الكراسى من يدها .

ومضت برهة .. و « منى » تخلق في دهشة ، وفجأة برقت لها الحقيقة ..
فصاحت مشدوهة :

— يا بنت الإيه .. تكتبين إليه ؟!

وتصاعدت الدماء إلى وجه « نادية » وهتفت قائلة :

— لمن ؟!

— له .. للدكتور مدحت .

— من قال لك ؟!

— أراهنك .. مائة جنيه .. لقرش صاغ .

— لا ليست له .

— إذن أريني الكراسة ؟!

— لن أريها لك .

— أرايت .. « لا أظنك تدرك أى شىء فعله ردك بنفسى » .. من يمكن أن

تقولى له هذا ، صبرى ، أم جمال ، أم عصام ؟

صمنن « مى » فجأة وخيمت على وجهها سحابة من قلق ، وعادت تقول

فى شك :

— اسمعى ! لماذا تحفين عنى الرسالة ؟!

وأدركت « نادية » ما ساور « منى » من شكوك ، فلم تملك أن تمنع ضحكة

فلتت من شفتيها برغمها وتساءلت :

— أيتها البلهاء .. ماذا ظننت بى .. أظننت أنى أكتب لعصام .. أيمكن أن

تفكرى بمثل هذه السخافة ؟!

وانقشعت الوسواس بسرعة من ذهن « منى » ولكن صمتت على استغلال

الفرصة فأجابت :

— من يدربى .. لماذا إذاً لا تريدان أن ترينى الرسالة ؟! ألم أطلعك أنا على كل

أسرارى ؟!

— ٣٢٨ —

- وترددت « نادية » برهة .. ثم قالت :
- ولكن ، هذه الرسالة .. أقصد ..
- تقصدين ماذا ؟ أرينى الكراسى ، وكفى عن هذه السخافة .
- سأريها لك فيما بعد ، يجب أن تنصرفى إلى فصلك .
- وأجابت « منى » فى عناد وإصرار :
- لن أتحرك من هنا حتى أراها .
- ودفعت إليها « نادية » بالكراسى فى غيظ قائلة :
- خذى .. ولكن إياك والسخرية .
- وهزت « منى » رأسها وهى تبتسم ، وتناولت الكراسى قائلة :
- أنا أسخر .. حاشا الله !!
- لو سمعت كلمة سخرية .. فسأخذها منك ولن أريك شيئاً بعد ذلك .
- وقرأت « منى » بضعة أسطر من الرسالة ، ثم رفعت رأسها متسائلة :
- أقدر ردّ عليك حقيقة ؟!
- أجل .
- ومتى كتبت إليه ؟!
- منذ أسبوع .
- ولماذا لم تخبرينى ؟!
- خشيت ألا يجيب علىّ .. فأعرض نفسى للسخرية .
- وأين رسالته ؟!
- ومدت « نادية » يدها فى جيبها ، ثم أخرجت الرسالة قائلة :
- اسمعى يا « منى » .. ليس هذا وقته .. وسيتضايق مسيورينو .. إن وجه
- الفصل وحده .. وراك تقفين معى فى الحجرة .
- إن التلاميذ فى الفسحة .
- لقد دخلوا الفصل منذ خمس دقائق .

— حقاً ؟!

وقبل أن تغادر « منى » الغرفة خطفت رسالة مدحت من يد « نادية » وقراءتها بسرعة ، ثم قلبت شفتيها قائلة في سخرية :

— يخشى أن تكون أكذوبة أو خدعة . ماذا يظن نفسه .. جان كوكو .. مغرور .. لو كنت منك .. لعرفت كيف أريه ؟

وسلمت « نادية » الرسالة قائلة في تحذير :

— اسمعى إياك أن ترسل الرد قبل أن أقرأه .. أنا أعرف .. إنك غشيمة .. فى الغرام .. وأخشى أن تتدلقى فى الكتابة .

وهزت « نادية » رأسها ، وهى تدفعها نحو الباب قائلة :

— حاضر .. سأريها لك .. اذهبى الآن قبل أن يخرج التلاميذ للبحث عنك .

وخرجت « منى » من الحجرة .

وجلست « نادية » وحدها ثانية .. وقلبت الكراسى على الصفحة التى كانت تكتب فيها ، ومرة ثانية شرد بصرها من النافذة .

وقبل أن تعاود الكتابة .. سمعت وقع أقدام أخرى .

وكانت السيدة « كلود » هذه المرة .. طوت « نادية » الكراسى ووضعتها فى الحقيبة ونهضت لاستقبال السيدة محبة .

— صباح الخير .

— صباح الخير يا نادية .. أعندك مانع أن تخرجى لعزف النشيد للتلاميذ فإن لى موعداً هاماً يضطرنى للخروج ؟

— سأخرج إليهم حالا .

ولم تكذ تنتهى من عزف النشيد .. ولم يكذ التلاميذ يتفرقون إلى الفناء حتى أبصرت « منى » تقفز صاعدة إلى السلم ، وهى تصيح بها :

— هيا بنا .. إن جالى تنتظر فى الفناء .

— ٣٣٠ —

وبدا التردد على وجه نادية وأجابت :

— أمصرة على هذا الترحلق ؟!

— إنها فرصة هائلة .. كى تتعلمها .. كيف تنوين عندما نعود إلى مصر ..

— ألا نقص عليهم كيف ترحلقنا على الجليل !

— أمن أجل هذا تترحلقين ؟!

— طبعاً .. سأصف لعصام .. أول رحلة خرجناها للترحلق على الجليل .

— يمكنك أن تصفها غياً .. من الذاكرة .

— أنا لا أحب الكذب .

— أنت أكبر كذابة .

— أنا التى أرسل رسائل دون أن أقول .. وأكتب فقط لصبرى .. عن باندونج والتعايش السلمى . أنا التى ...

— انتهينا .. هيا بنا .. سأستأذن من مسيورينو قبل أن أذهب .

— يا شيخة .. لا تدققى .. إن مسيورينو .. فى غيبوبة . عندما يسألك هل استأذنت قولى له أجل .. هل تظنينه يتذكر شيئاً .. هيا .. هيا .

وانطلقت الفتاتان من المدرسة .. تصحبهما جابى .

وأمام محل التصوير كانت « الشلة » قد اجتمعت .. خليط من الفتية والفتيات .. وقد التفوا حول عربة تونى ، وعربة أخرى .

وبعد لحظة انطلقت العربتان إلى أعلى الجبل .. تحت رذاذ المطر .. وبتف
البرد .

وأحست « نادى » بلسعة الصقيع ، عندما أخذت العربة تصعد بهم ..

ونظرت إلى « منى » متسائلة :

— أتحسين بالبرد ؟

وأجاب تونى : — سندفاً حالا .. عندما نبدأ الانزلاق ..

وعلى سفح الجبل هبطت الشلة وساروا يحملون أدوات الانزلاق .

— ٣٣١ —

وشرد ذهن « نادية » ، وهى تبصر مسطحات الجليد بيضاء رائعة .. كما
كانت تراها فى الأفلام السينمائية .. وترى المدينة تبدو من أسفل الجبل ، وقد
غشاها ضباب خفيف ، أشبه بغطاء من الدانتلا .
وكما تعودت فى كل متعة تحس بها .. بدأ ذهنها يرسم لها رفيق أحلامها ..
وتصوره أوهامها .. وهو يسير بجوارها .. حاملا العصي والزحافات .
أى متعة كانت تصيها .. لو هيا لها القدر صحبته على قمم هذه الجبال
العجيبة !!

— ٣٣٢ —

(٢٨)

لم أعرفها بعد !

عادت « نادية ومنى » إلى البيت قبل الساعة الثالثة ، واجتازتا باب البيت لتجدتا المدفأة قد أوقدت وألسنة النيران تتلاعب حمراء في جوفها .

وأقبلت « منى » على المطبخ لتصبح :

— مارى .. أكاد أموت جوعاً .

وصاحت الأم من حجرة الجدة :

— طبعاً .. بعد هذا الجهد الذى بذلته .. ألم أنصحك بعدم الذهاب

معهم ؟!

وقالت « نادية » وهى تصد عنها ما يحتمل أن توجهه إليها الأم لمطاوعتها لها فى

الانزلاق :

— لقد نصحتها أنا أيضاً .

وردت الأم ساخرة :

— ثم ذهبت معها ؟ ..

— لأتأكد أنها لن تجهد نفسها .

— وهل فعلت ؟

— بقدر المستطاع .

— وتدخلت الجدة قائلة وهى تضحك :

— يا جماعة اتركوها تلعب ، إنها أدرى بطاقتها ، وجهدها .

واقربت « منى » من الجدة واحتضنتها قائلة :

— أنت أعقل جدّة رأيته .. لست أدرى لماذا لم تكونى أُمى ؟

— ٣٣٣ —

وقالت « نادية » وهى تنفض عن ثيابها تنف البرد :
 — لقد كان الانزلاق لذيقاً .. لم أتصور أنى سأتعلمه بمثل هذه السهولة .
 وردت « منى » قائلة :
 — علماً بأنك خائبة بطبيعتك .. إنها المرة الأولى التى أراك تقدمين على
 المغامرة فى لعبة من الألعاب .
 وأحست « نادية » بمدى ما فى قول « منى » من الصحة ، ولم يستعص عليها
 معرفة الدوافع التى دفعتها إلى خروجها عن طبيعتها الساكنة المنطوية ، والاشتراك
 مع الشلة فى العدو والانزلاق .
 كان أول هذه الدوافع .. إحساس بالسعادة يبدد ذلك اليأس الذى تعودت
 أن تحيط نفسها به ، وشعور بأن هناك شيئاً جميلاً ينتظرها .. أشبه بذلك الشعور
 الذى يحس به الصبية قبل ساعات النزهة .. أو أيام الأعياد .
 يضاف إلى ذلك .. رغبتها فى أن تخلق لنفسها شيئاً تكتب عنه ، وتقص
 تفاصيله .. ثم تخيلها بأنها تقدم على شئ يحتمل أن يشاركها فيه .. ولو بالوهم .
 ورصت صحاف الطعام ، وانتهت الفتاتان من تناول طعامهما بسرعة ،
 وصعدت كل منهما إلى حجرتها .
 وقالت نادية لمنى وهى تغلق على نفسها باب الحجرة :
 — لا أريد دوشة ، ولا إزعاجات .
 — مفهوم .. يافندم .. مفهوم .
 وقبل أن تغلق الباب سمعت صوت أمها تضح بها :
 — لا تنسى أن تكتبى إلى عمك يا نادية ، قولى له إننا جميعاً بخير وهشيه
 بخطبته .
 وأجابت نادية :
 — حاضر يا ماما .
 ثم وجهت القول لمنى :

— ٣٣٤ —

— ستردين على عمك سليمان هذه المرة ؟!
 — حاضر يا فندم .. هل تريدان أن أرد على صبرى ، وأن أكتب لجمال
 أيضاً ؟!
 — لا تسخرى يا منى .. اكتبى لعمك فقط .. لأنك لم تكتبى له أبداً ، منذ
 وصلنا .

— وأنت .. ألا تنوين تهنته بخطبته ؟
 — سأكتب إليه بالطبع ، ولكن كتابتى لن تغنى عن كتابتك ، واذكرى أنك
 ستحتاجين إليه دائماً .. من أجل عصام .
 — أجل .. معك حق ، لقد كتب لى عصام . أن الفرسان رفضوا انتدابه
 لإدارة الجيش ، وأنه هو نفسه كتب إقراراً بأنه يفضل الخدمة فى القوات
 المدرعة ، وأضاع كل دراسته للحقوق سدى .
 — أنت السبب فى ضياع أربع سنوات من عمره ، لو دخل الكلية الحربية من
 أول الأمر لأضحى الآن يوزباشياً .

— وهل كنت أعرف أن الجيش سيقوم بثورة ؟. وأنه سيصبح بعد الثورة
 جيشاً حقيقياً ؟ على أية حال . إنه لم يخسر شيئاً .. لقد حصل على شهادة
 ثقافية ، وعندما يمل من القوات المدرعة .. يستطيع أن يعمل فى الحمامة .

— عصام ، لا يصلح أبداً لأن يكون محامياً .
 — إذن سأوصى عمى سليمان بأن يأخذه معه .
 — أوصيه بما تشائين ، كل ما أطلبه منك هو أن تتركينى بلا إزعاجات .
 — على أن ترينى الرسالة قبل إرسالها ؟!
 — حاضر .

وأغلقت نادية الباب ، وأوت إلى حجرتها وحيدة ، وكان المطر قد أخذ يتناقل
 وازدادت طرقاته على زجاج النوافذ .
 وأخرجت « نادية » الكراسى الزرقاء ، وبدأت فى قراءة ما كتبت ، وشردت

ببصرها برهة ترقب قطرات المطر ، والسماء الملبدة بالغيوم .. ثم عاودت الكتابة .

وفي الصباح .. كانت نادية تقف أمام صندوق البريد ، وتركت ثلاث رسائل تنزلق من بين أصابعها إلى فتحة الصندوق .. لتتخذ طريقها إلى القاهرة ، اثنتان إلى كلية الطب بجامعة عين شمس ، واحدة إلى مدحت ، وأخرى إلى صبرى . أما الثالثة ، فقد تجاوزت العباسية إلى كوبرى القبة حيث البكباشى سليمان فى سلاح الفرسان .

وصلت الرسالة الأولى إلى مدحت .. لتستقر على مكتبة فى مستشفى الدمرداش ، وتبقى فوق كوم من الأوراق ، لا تمسها يد ، وهو يمر بها فى لمحات خاطفة بقسماته الصارمة وملاحمه المتجهمه ، بين عملية وعملية أو محاضرة ومحاضرة ، وهو يصيح بالطلبة ، وينهر المرضات ، حتى جلس « جاد الله » فى ظهيرة اليوم التالى على حافة المكتب وأخذ يتسلى بالبعث فى الأوراق .

ولمخ الرسالة ، فأمسك بها هاتفاً فى دهشة :

— رسالة جديدة ، من مجنونة الألب ؟

ورفع مدحت حاجبيه الثقيلين ، وتساءل فى غير اكتراث :

— ممن ؟

وعاد « جاد الله » يلوح بالرسالة فى يده وهو يقول :

— من مجنونة الألب .. التى تتلهف على ردّ منك .. لتتقذ حياتها .. هل

كبت إليها ؟!

وهز مدحت رأسه قائلاً :

— أجل .. كبت .

وصاح جاد الله فى دهشة :

— كبت إليها ؟. عجيبة !! ومن علمك كتابة رسائل الغرام ؟!

— من قال لك إني كبت إليها رسالة غرام ياغبى !!

— ٣٣٦ —

— أقل ما فيها .. إنها تسأل أن ترد روحها .. هل كتبت إليها رويشة .. أم طلبت إليها أن تحضر إليك لجز رقيبتها ؟!

— أتستخف دملك ؟!

— إذن قل ماذا كتبت إليها ؟

— كتبت إليها بضع كلمات حتى لا أخذلها .. إن كانت حقيقة .

— ها .. لم يطاوعك قلبك على صدها ، ولكن ألم تخش أن تكون خدعة ؟!

— خدعة .. خدعة !! هل نظنها أول أو آخر خدعة أصاب بها ؟!

وهزّ جاد الله الرسالة في يده قائلاً :

— لقد أجابت على ردّك .. سنعرف الآن .. حقيقتها ، ولا أظن الخدعة

يمكن أن تنطلي مرتين .

وبإيهامه وسبائته فتح المظروف قائلاً :

— لنر ماذا تقول ساكنة الألب !

وقبل أن يخرج جاد الله الرسالة مدّ مدحت يده واختطفها قائلاً :

— من أذن لك ؟

وضحك جاد الله :

— لم أكن أظن بها شيئاً يستحق الاستئذان .. هل أضحت بينكما أسرار ..

تخشى عليها ؟!

— أسرار ؟! هكذا سريعاً ؟

— أم تخشى أن أطلع على خديعتك ؟

— لا هذا ولا ذاك .. إنها مسألة مبدأ .. لا أحب أن تهون الرسالة حتى

أتركها في يدك العابثة .

— إذن أقرأها لي أنت .. أسمعنا .

وفتح مدحت الرسالة وأخذ يتلو سطورها الأولى في استخفاف ، وما لبث

صوته أن خفت وبدت عليه علامات الاهتمام وهو يتنقل بعينه من سطر إلى

سطر ، وعندما انتهى من الورقة الأولى وضعها على المكتب ، فاخطفها جاد الله وانهمك في تلاوتها ، وظل يتابع القراءة وراء مدحت حتى وضع مدحت آخر ورقة على المكتب وهز رأسه ببطء وهو يقول في دهشة :

— عجيبة !

ولم يجب جاد الله فقد كان منهما في القراءة حتى أتم الرسالة ، ولم يملك إلا أن هز رأسه وقال بنفس اللهجة :

— إما أن تكون مخلوقة ماهرة جداً .. وذكية جداً .. أو .. أو تكون حقيقة .
وردد مدحت قوله متسائلاً في شرود :

— حقيقة !!

— ولم لا ؟

وفجأة رفع مدحت كتفيه ثم أزاح أوراق الرسالة في ضيق وملل قائلاً :

— حقيقة أو غير حقيقة .. مالى أنا بها .. بلا وجع رأس .. أنا فاضى ؟
وصمت برهة ثم عاد يهز رأسه قائلاً :

— أنا لا أعرف كيف أكتب كلمتين على بعضهما .. ماذا أستطيع أن أفعل لها .. ؟

وتناول جاد الورق الأخيرة من الرسالة وأخذ يتلو السطور التي ختمت بها الرسالة :

« .. ترى هل عرفت كيف أقول لك من أنا ؟ ! »

« هل عرفت بعد كل هذه الصفحات .. أن أعرفك بنفسى ؟ .. بحقيقتى .. ؟ »

« هل استطعت أن أقنعك بأنى صادقة مخلص .. وأنى لست وهماً ولا حدة . »

« ليتنى أكون قد استطعت .. فعلى اقتناعك .. تتوقف .. ماذا أقول .. ؟ .. هل

أكون مبالغة .. لو قلت لك .. حياى ؟ »

« فعلاً .. ربما .. أكون مبالغة .. فلا أظن حياتنا المادية .. تتوقف .. إذا ما

(نادية — ج ١)

— ٣٣٨ —

حطم الناس معنوياتنا .. أجل لست أظن اليأس قاتلى ، ولو كان .. لقضيت منذ زمن بعيد .

« لكى أكون أكثر دقة .. أقول لك .. إن على اقتناعك .. بصدق وإخلاصى وحقيقتى .. يتوقف .. امتلاء حياتى .. بالأمل ، والصفاء والسكينة .

» بقى بعد ذلك .. أن أحدثك عما أريد :

— « إلى أريد صداقتك .. أريد أن تحدثنى عن نفسك ، عن أيامك .. كيف تنقضى .. ادعنى معك إلى حجرة العمليات لأشاهدك ، وأنت تقف الساعات الطوال تنصب عرقاً .

» أوكد لك أنى لن أخاف .. فأنى أحب أن أشاركك كل أعمالك .. حتى الخيف منها .. لأنى أحس بطمأنينة إلى جوارك .

» ادعنى .. إن لم أضايقك .. إلى بعض نزهاتك .. إلى فنجان من الشاى فى النادى .. مثلاً ، أو بضع ضربات فى ملعب الكرويه .

» صف لى حياتك .. بدقائقها وتفصيلها ، لا تخش التزيد أو الإطالة .. إن كان لديك من وقتك فسحة للتزيد والإطالة .

» وسأدعوك أنا .. إذا لم يزعجك هذا .. لتقضى معى — على الورق وبين السطور — بضع جولات على قمم الألب .. ننزل على الجليد أو ننتزه على شاطئ البحيرة .. مسترّك النزهة كثيراً ، وستسرّنى أكثر .

» سأحس فى كل نزهة أخرج إليها .. أنك قد قبلت دعوتى ، وخرجت معى ، وسأعدو فى نزهاتى فى فرحة وحماس . لأنى سأحس أنى سأنقل إليك كل ما فعلت لتعيش معى فيه .

» هل طلبت منك شيئاً كثيراً ؟ ..

» قد يبدو كثيراً لأنك لا تعرفنى ، ولأنك لا تعرف مدى ما تفعله صداقتك من أثر فى حياتى .

— ٣٣٩ —

« ويبدو كثيراً أيضاً .. إذا ما قيس بهنّيات فراغك .. التي تتخلل كثرة مشاغلِكَ وأعمالِكَ .

« ولذلك — فسأوطن نفسي .. إن قبلت صداقتي .. على ألا أطلب منك هذا الكثير .. بل سأكتفى .. بأى شىء يمكن أن يسمح به وقتك .

« مرة أخرى .. إذا اقتنعت نى .. فلا تعتذر بوقت ، ولا تقل إنك لا تجد الكتابة .

« إلى أريد منك أية كتابة ، وبأى أسلوب .

« وأريد منك أيضاً — إن لم تهمنى بالطمع — إحدى صورك ، وأؤكد لك أنها ستكون أئمن منحة وهبتها فى حياتى .

وصمت جاد الله ثم قذف إليه بالرسالة قائلاً فى هجة جاده أمره :

— اكتب لها .. اكتب لها أى شىء .

وطوى مدحت الرسالة فى جيبه وهو يقول فى ضيق :

— فاضى أنا لمتل هذا العته .. أدعوها للنشأ وتدعوني للانزلاق على

الجليد !!

ثم أطلق ضحكة ساخرة من أنفه وأردف :

— إنها لا شك مجنونة .. تصوّر أنى أكتب لإنسانة لم أرها فى حياتى .. أتوهم

أنى دعوتها لتناول الشأى .. ماذا يمكن أن يكتب فى هذا ؟!

— يا أخى لا ضرورة لهذا .. اكتب لها أى شىء ، وأرسل لها صورة .

— أنا أرسل صورة ؟!

— إذا لم ترسل أنت سأرسل أنا .

— إياك أن تفعل !!

— أؤكد لك أنى سأفعل ، وسأكتب لها رسالة غرام طويلة عريضة ،

وسأدعوها أيضاً إلى الجرسونية .

— جاد الله . هل جنتت ؟!

— ٣٤٠ —

- وباسمك ، وتوقيعك ، والعنوان على هذا الظرف .
 واختطف جاد الله الظرف من على المكتب ، وصاح به مدحت :
 — هات الظرف .
 — ستكتب لها ..؟
 — ومالك أنت .. وكلتك عن نفسها !
 — اسمع .. لا داعي للرغى الكثير .. إما أن تكتب أنت أو أكتب أنا ، وأؤكد
 لك أنى على أتم الاستعداد للأخذ والعطا معها .. كما تريد ، وأنت تعرف أن لى
 فراغاً ، لمثل هذه الأشياء .. ما رأيك ؟
 ومدت مدحت يده وأجاب فى حنق :
 — هات الظرف ، سأكتب .
 وناولته جاد الله الظرف وهو يقول :
 — وعد ..؟
 — قلت لك سأكتب .. جاك بلا .. أنت وهى ..
 — على أية حال أرى ردّها عندما يصل .. لأؤكد أنك كتبت .
 وصاح مدحت فى دهشة :
 — اسمع ، ألا تكون أنت صاحب الرسالة ، ولأجل هذا تهتم بردى كل هذا
 الاهتمام ؟
 — يا مدحت لا تكن سخيلاً .. أتتصور أنى أجلس لأكتب لك رسالة من
 هنا ، وأرسلها لفرنسا .. لكى تعود إليك حتى تكتب لها رداً ، لماذا ؟! أتكتب
 الدرر أم تنطق حكماً .. يا أخى ، بعض العقل .
 — لماذا إذن كل هذا الحماس ؟!
 — لأن البنت غلبانة ، وصادقة ، ولأنك لن تخسر شيئاً ، سوى بضع
 كلمات بأسلوبك السخيف ، وصورة من صورك التى تبدو فيها
 « كالعرجية » .. أظن هذا كثيراً ؟!

— ٣٤١ —

— انتهينا .. سأكتب .

ووضع مدحت الرسالة في جيبه ثم قال :

— ولكنى لن أرسل صورة .

— لماذا ؟

— لأننى لا أمتلك صوراً .. إلا صورة قديمة وأنا بالبنطلون الشورت .

— أرسلها . إنها ستكون أقل إرهاباً ، على الأقل ، شعرك ما زال برأسك ،

وأنفك ...

— يبدو أنك قد حننت إلى علق زمان .. إلى لم أضربك منذ أن صرت طبيباً .

— اسمع إن لدى صورة لك .

— أى صورة ؟!

— التى صورناها سوياً لتحقيق الشخصية .

— يا ساتر يارب . إنها كالمشوهدين .

— لا تدعى أنك أجمل منها . أرسلها وتوكل .

— لا . لا . سأبحث عن صورة أخرى .

— أأست تريد أن تتخلص منها !! أرسلها إذن .. حتى تضيع آمالها فيك .

— هات الصورة ، وذبها على جنبها .

وفي المساء عندما خلا مدحت إلى نفسه في حجرته ، وقف برهة يطل من

النافذة على الأفق الذى تراقصت فيه الأضواء الباهتة ، ومد يده يعث بالرسالة

المطوية في جيبه .

أحقاً ينوى أن يرد ؟!

ولم لا !!

بضع كلمات يطوى معها الصورة ويرسلها في الظرف ، ويريح ضميره .

ولكن أحقاً ، يحس بالمسألة كمجرد إراحة ضميره ، أم أنه يشعر — ولو قليلاً

— بالرغبة ، فى الرد ؟!

إنه على الأقل لا يضيق به .
 وجلس مدحت ليقطع ورقة من إحدى الكراسات ويكتب بها :
 « عزيزتى :
 » هذه المرة لا أشعر بالشك بقدر ما أشعر بالحيرة .
 « لقد نجحت فى إقناعى — إلى حد كبير — بحقيقتك .. ولكنك لم تستطعى
 إقناعى بالجزء الثانى من المشكلة ..
 « وهى ماذا تريدن ؟!
 « أو .. من وجهة نظرى .. ماذا أستطيع أن أفعل لك ؟!
 « أحدثك عن حياتى ؟
 « لست أرى بها شيئاً يستحق الحديث .. لا تفاصيل أكثر من الحلقة المفرغة
 التى أعيش فيها بين حجرة العمليات وقاعة المحاضرات .
 « وإن كان الوهم قد هيا لك ، أنى شيئاً ، وأنى حياتى أحداثاً تستحق أن
 توصف وأن يحكى عنها ، فأنا أوكد لك .. أنى خلو من كل هذا ، وأنى لا أجد فى
 نفسى أكثر من إنسان مجرد من كل ما يستحق الوصف والحديث ؟.
 « وإذا كان فى شىء مما تظنين فأنا ، بلا حذال ، عاجز عن معرفته وبالتالى عن
 وصفه .
 « أما عما تسألينى إياه .. من دعوة إلى الشاى .. أو إلى الكروكيه فأنا أقدمها
 على الرحب والسعة ، إذا هيا الله لنا لقاء أما أن أقدمها لك على الورق وبين
 الشطور .. فأؤكد لك أنى لا أعرف كيف أفعلها ، وأكره من نفسى أن أفعل
 أشياء مضحكة ، كأن أتوهم دعوتك ، ثم أخاطبك وأجيب عنك .
 « وأنا بعد ، لم أعرفك ، ولما أستطيع مجرد تصوّر .
 « ألا تجدينى على حق ؟
 « أرسل إليك مع رسالتى الصورة الوحيدة التى استطعت أن أعثر عليها مع
 صديق لى ، ولست أملك إلا أن أعتذر عنها ، وأن أرجو ألا تخيب أملك فى ،

وتجعلى رسالتك السابقة آخر رسالة إلى .
 « أما إذا لم تفلح ، وإذا كنت تنوين أن تكتبى ثانية ، فأظن أن من حقى ..
 أن أعرف عنك شيئاً أكثر ، وأن أتوقع منك ردّاً على صورتى .. صورة منك » .
 وأعاد مدحت تلاوة الرسالة ثم دفع بها فى الظرف ومعها الصورة ، وأخذ فى
 كتابة العنوان على الظرف ، وفى نفس الوقت كان هناك ظرفان آخران كتب
 عليهما نفس العنوان .. الأول يكتبه سليمان بعد أن ضم رسالة كتب بها أخبار
 الأسرة والخطية ، ونقل عصام إلى المجموعة المدرّعة وبدء موسم المناورات ،
 وأرفق بها صورة للخطية طلبتها منه نادية .

والثانى كتب به صبرى بعد أن ضم رسالته عن الحياة ، والأمل ، ومستقبل
 مصر ، والدستور ، والديمقراطية . وأخيراً أمنيته فى أن تعود نادية ، لتعيش
 بجواره فى الأحداث الضخام التى تمر بها مصر .

وفى الصباح أُلقيت الرسائل الثلاث فى ثلاثة صناديق بريد .. لتجتمع كلها
 وتتخذ طريقها معاً إلى « جاب » .. كى تصل إلى نادية ذات صباح وهى تطل
 برأسها فى مكتب الكاتب العجوز ، فتجده يمنحها ابتسامة واسعة ويقول لها
 متهللاً :

— ثلاث .. مرة واحدة .

وتناولت نادية الرسائل وهى تحس برجفة سعادة وأخذت تفحص الرسائل
 بسرعة ، ثم تمسك بإحداها فى لهفة وتحس صلابة الصورة التى بها وتعدو إلى
 حجرتها وتغلق الباب ، ثم تجلس لتحسس الرسالة مرة أخرى وتفتحها وتعيد
 قراءتها .. خمس مرات .. قبل أن تحاول فض الرسالتين الآخرين .

وفى البيت قذفت إلى أمها برسالة العم ، وإلى « منى » برسالة صبرى ، ثم
 انطلقت تصعد الدرج إلى حجرتها لتعيد قراءة الرسالة الثالثة مرة أخرى .

ولحقت بها « منى » صائحة :

— بنت يا نادية .. أهذا كل ما وصلك ؟

— ٣٤٤ —

وضحكت نادية وهى تجيب :

— أجل .

— كذابة .. الابتسامة التى فى عينيك تجزم بأن رسالة أخرى وصلتك !

وهزت نادية رأسها فرحة وأجابت :

— أجل .. وصلت .

— بمثل هذه السرعة ؟!

— أجل .. مع رسالة عمى ورسالة صبرى .

— أرينها .

— ادخلى إلى الحجرة ، واقربئها معى .

وقبل أن تقرأ « منى » الرسالة وقع نظرها على الصورة فصاحت ضاحكة :

— وأرسل صورة أيضاً .. ما شاء الله .. الظاهر أنك ستفعلين به وأنت فى

« جاب » .. ما عجزت عن فعله ، وأنت على بعد خطوات منه فى منشية

البكرى !

وعادت تنظر إلى صورته وهى تبتسم قائلة :

— عال .. عال ، وماله .. « مبوز » هكذا .. كأن أحداً قد ضربه قلمين أو

لعن أباه !

— منى .. اختشى ، وكفى قلة أدب .

— طبعاً .. ما دام قد رد عليك وأرسل لك صورة .. لك حق تدافعين عنه :

ثم عادت تحديق فى الصورة وتضحك قائلة :

— وماله حاجباه ثقيلاً هكذا !! لا تنسى أن ترسلى له ملقاطاً يساويهما به .

ثم وضعت الصورة جانباً وأخذت فى تلاوة الرسالة ، وبدأ عليها الاهتمام شيئاً

فشيئاً ..

وعندما انتهت منها وضعتها جانباً وبدأ عليها الشرود ، فسألتها نادية قائلة :

— مالك !. ألم تعجبك الرسالة ؟!

— ٣٤٥ —

— بالعكس .. أعجبتنى جداً .

— إذن فيمَ شردت ؟

— شردت في اللعبة التي تنزلقين إليها ببساطة .. لست أدري ماذا تتوقعين

نهايتها !

وبدا الشرود على نادية وأجابت :

— نهايتها ؟!

— أجل .. لا بد لنا من أن نتوقع لكل شيء نهاية .. بطريقة ما .

(تم الجزء الأول ويليه الجزء الثاني)

فهرست الجزء الأول

صفحة

٥	الإهداء	
٧	المقدمة	
٩	١ — توءمتان	
١٩	٢ — عبقرى جزار	
٢٩	٣ — من بعيد	
٣٩	٤ — حديث السلام	
٤٩	٥ — صدمة تطهير	
٥٨	٦ — مصرية	
٦٨	٧ — بصيص يخبو	
٧٩	٨ — أعرفها جيدا	
٩٠	٩ — ملك للغير	
١٠٠	١٠ — قبيل الرحيل	
١١١	١١ — أمنية مطرودة	
١٢١	١٢ — يوم أغبر	
١٣٣	١٣ — وجه غريب	
١٤٤	١٤ — صرخات فى الليل	
١٥٥	١٥ — مشكلة تحل	
١٦٨	١٦ — حنين إل وداع	
١٧٩	١٧ — دعها للقدر	
١٩١	١٨ — نحن لا نصنع السراب	

— ٣٤٧ —

٢٠٦	١٩ — إنسان كريم
٢١٩	٢٠ — وهُم وحقيقة
٢٣٤	٢١ — لا ندم
٢٥٠	٢٢ — هاوية
٢٦١	٢٣ — حفيف ونغم
٢٧٣	٢٤ — اكتب إلّى
٢٨٦	٢٥ — خدعة أم حقيقة !
٣٠٢	٢٦ — لن أخذلك
٣١٧	٢٧ — من أنا
٣٣٢	٢٨ — لم أعرفها بعد

(تم الجزء الأول ويليه الجزء الثانى)

الإستاذ يوسف السباعي

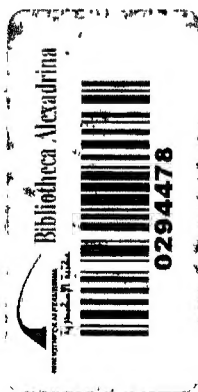
- اثنا عشر رجلا
- اثنتا عشرة امرأة
- ست نساء وستة رجال
- السقامات
- طريق العودة
- بين الأطلال
- لست وحدك
- جفت الدموع (الجزء الأول)
- جفت الدموع (الجزء الثاني)
- ليل له آخر (الجزء الأول)
- ليل له آخر (الجزء الثاني)
- هذه النفوس — هذه الحياة
- من العالم المجهول — خبايا الصدور
- ليلى ودموع — أطياف
- نفحة من الإيمان — صور طبق الأصل
- ليلة خم — من حياتي
- يبكي العشاق — غي موكب الهوى
- سمار الليالي
- هذا هو الحب

- طائر بين المحيطين
- من وراء الغيم
- امتسامة على شففيه
- أغنيات — الشيخ زعرب
- بين أبو الريش وجنيّة ناميش — يا أمة ضحكت
- نائب عزرائيل — البحث عن جسد
- وراء الستار — أقوى من الزمن
- أم رتيّة — جمعية قبل الزوجات
- نادية (الجزء الأول)
- نادية (الجزء الثانى)
- رد قلبي (الجزء الأول)
- رد قلبي (الجزء الثانى)
- نحن لانزّرع الشوك (الجزء الأول)
- نحن لانزّرع الشوك (الجزء الثانى)
- إني راحلة
- أرض التفاق
- فديتك يا ليلي

رقم الإيداع ٨٧/٤٠٦٨

الترقيم الدولي ٣-٠٣١١-١١-٩٧٧

مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الفيحالة



دأى مصر للطباعة
سمد جوده السحار وشركاه